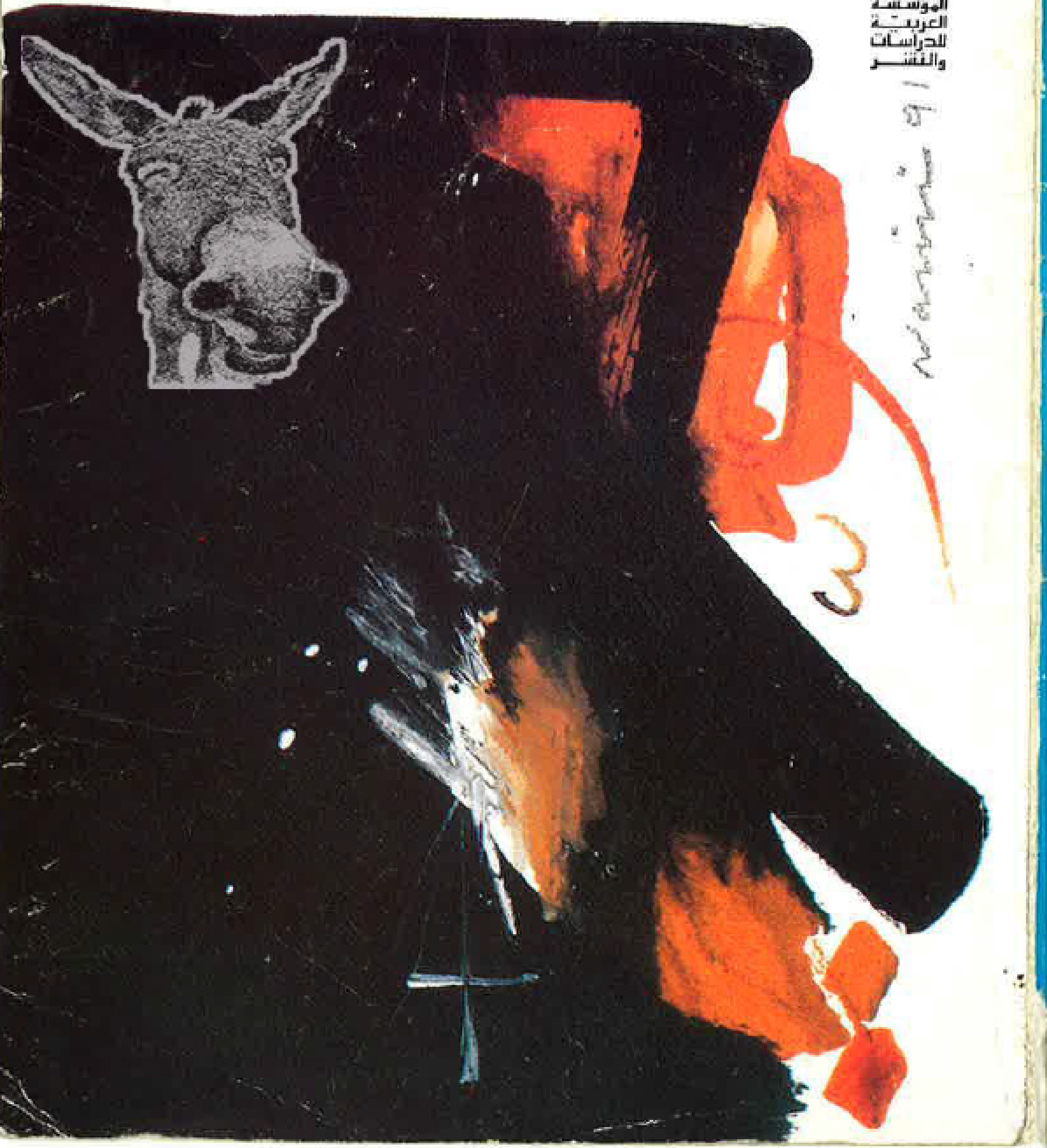
مؤنس الرزاز

اعترافات كاتم صوت

مؤلف أحياء في البحر الميت

طبعة ثانية منقحة

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



اعترافات كاتم صوت

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

طبعة ثانية منقحة

١٩٩٢

مؤنس الرزاز

اعترافات كاتم صوت

مؤلّف أحياء في البحر الميّت

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

إلى «قسمت» التي رمّمتني!

الشخصيات والأحداث في هذه الرواية، هي من نتاج الخيال. وإذا وجد أي شبه بين أشخاصها وبين أشخاص حقيقيين، أو بين أحداثها وبين أحداث حقيقية، فلن يكون ذلك سوى نتاج غرائب الصدف الخالية من القصد.

مؤنس

أ

مدارات الصدى

(١)

الخميس

الصغيرة . . .

كم أحب مغادرة هذا البلد. أسافر في خيالي إلى غابات الأمازون أطير إلى كاليفورنيا أنتقل إلى باريس القرن الثامن عشر. إلى ماري أنطوانيت. يحفر خيالي حقول الأزمنة مثل خلد الحقل . . يحفر أنفاقاً صوب أمكنة أخرى . . حيث لا أحد يعرف اسمي الحقيقي .

كم أتمنى لو أملك طاقية الاخفاء . . فلا تراني العيون .

أبي يقف خلف الواجهة الزجاجية لبيتنا . يحدق إلى تلك النبتة الغريبة التي يسمونها «المجنونة» . يقول دون أن يلتفت :

ـ متى ستنمو فتغطي هذا الزجاج العاري؟ . . يسمونها أحياناً «جهنمية» . .

عيون الحرس فوق السور تحدق الينا . تخترق هذه الجدران الزجاجية ، ونحن ـ أنا وأمي وأبي ـ نحاول ، مثل لصوص سلطت أضواء باهرة عليهم بغتة ، أن نختفي وراء باب ، نتوارى خلف جدار داخلي يجلل عري هذا البيت الزجاجي المستباح بالعيون المبحلقة .

نتتظر نقاب الظلام . الظلام ستارة ، إزار ، ثوب . . لا يجللنا إلا في الليل . أحس بالعراء . حتى خواطري . . أحسها عارية مستباحة .

نتتظر الظلام، ونمو «المجنونـة». إنهم يراقبـونني من وراء السور. ويـرون أبي يكتب فتتسع حدقات عيونهم.

يقول أبي:

ـ سوف يأتـون، أعرف، حين أنتهي من الكتابـة. سيسألـوني عن أوراقي. وسأسلمها لهم. أعرف. لكنني سأظل أكتب.

أمي علّقت على هذه الخاطرة قائلة:

ـ هـذي هي المأسـاة. المأسـاة.. هي أن يعرف البـطل مصيره التـراجيـدي مسبقاً، لكنه، بالرغم من هذه المعرفة، يواصل مسيرته نحو هذا المصير.

فقال أبي مستضحكاً:

ـ بل أبشع ما في المأساة.. هو أن يعاقب المرء على ذنب لا يعرفه. على خطيئة لا يدري كنهها. فيقضي حياته كلهـا وهو يتسـاءل، ويخمن ويحلل، ثم يكتشف أنه يتمنى أن تكون التهمة الرسمية صحيحة.. حتى يتوقف عن هذا التساؤل المتصـل. حتى يجد مبرراً معقولاً للثمن الذي يدفعه.

أنا لم أعلق. لم أفهم. أبي مثقف. وأنا صغيرة.

لم تكن عيون الجنود وحيدة في الاستباحة.. الشمس والغبار والريح استباحتنا أيضاً.

لقـد قررت أن أتـرك شعري ينمـو ويستطيـل دون أن أقصه. في الليـل أضع نظارتي السوداء أيضاً. أبي يسأل عن السبب.. وهو يعرفه.

(٢)

الخميس

الرجل...

إتصلتْ عدة مرات بـ «عمو». قالت لا بد أن يكون ثمة سوء تفاهم. لا يمكن أن يوافق «عمو» على وضعنا جميعاً في الإقامة الجبرية.

لم أقل لصغيرتي لا تتصلي. أمها رنت إلي بعينين تدور فيهما الحيرة دوراناً متصلاً. قال لها سكرتير مكتبه إنه مسافر.

في المساء رأته على شاشة التلفاز. كان يفتتح أحد المشاريع الضخمة الجديدة. هتفت بسذاجة:

ـ عاد من السفر.

وهرعت إلى الهاتف. اتصلت. جاءها صوت السكرتير منقبضاً:

ـ مسافر.

قالت بنبرة احتجاج:

ـ رأيته قبل قليل على شاشة التلفاز.

ـ . . . مسافر.

ـ طيب. دعني أحكي مع ابنته؛ صديقتي.

ـ . . . مسافر.

ثم انقطع الخط.

إنهارت على الكنبة، وراحت تبكي. وكانت تضع نظارة سوداء، والليل يقرع جدران الأفق.

تناولت السماعة، واتصلت أنا هذه المرة. فاكتشفت أنهم قطعوا الخط نهائياً. الخط الوحيد الذي ظل يربطنا بالحياة والزمن.

ما عاد يأتينا من العالم الخارجي سوى غبار الزوابع. يدخل من شقوق الأبواب والواجهات الزجاجية العريضة. تلحق به نظرات رجال الأمن.

زوجتي أعدّت الشاي في صمت. ناولتني فنجاناً وجلست مقابلي. عيناها مسلطتان على عيني. تسألان عن مبرر، عن معنى. وكان لا بد لي أن أجد مبرراً يقنعها بأننا ندفع ثمناً مقابل موقف محسوس يستحق هذا الشقاء. ولكن أي موقف هذا الذي يستحق أن يسحقك رفاقك من أجله؟ لن تفهم. قالت:

ـ لو كان النظام البائد هو الذي اعتقلك لفهمنا. لو كان أعداؤك هم الذين انتقموا منك لقلنا لا حول ولا. . ولكن. . رفاقك؟ كيف؟ لماذا؟

كانتا تريدان أجوبة محددة دقيقة. . معلومات. وما كنت أحمل سوى تحليل وعلبة سجائر.

احتسينا الشاي في صمت ثقيل متوتر.

سعيت إلى طاولتي. تناولت ورقة وقلماً. سألت بدهشة:

- ماذا ستكتب؟

قلت:

- كتاباً حول فكرنا. . فكر العصبة وضرورة انفتاحه على المادية الجدلية.

دفنت رأسها بين يديها. وراح جسدها يهتزّ ويرتجف. . . في صمت.

بدأت أكتب. ثم رفعت رأسي. كانت عيناها الحائرتان مسلطتين على عيني. رفعت نظارتي الطبية عن عيني وقلت:

- ربما. . لأنني عارضت إعدام اليساريين.

لم ترفع عينيها عن عيني. قلت:

- ربما. .

وقفت. حملت كوب الشاي الفارغ. سعت نحو المطبخ وهي تقول:

- «ربما». . لا تكفي.

واختفت في المطبخ. قلت لنفسي بصوت مرتفع لم يسمعه أحد:

- ربما. . لأنهم اعتقدوا أنني لن أتأقلم مع المرحلة القادمة.

دلفت الصغيرة إلى غرفتها. فتحت المسجل وأوصدت الباب. إنها تنسحب إلى نفسها، وتعتزل العزلة.

إنهما متعطشتان إلى أجوبة لا أملكها.

(٣)

الخميس

المرأة. . .

الماضي كله فقد مبرره. لماذا كنت أحتمل اعتقاله؟ لماذا قبضت على الجمر وصبرت؟ كان كل شيء قد تحول إلى هباء وسدى ، عندما غاب المعنى. دفعنا بنفس سخية ثمناً باهظاً في سبيل الحلم. . فإذا الحلم شرنقة تطبق علينا وتخنقنا في قوقعة كابوسها. كأنما نزع عن الماضي كل مبرر يجلله. كأنما خلع المعنى عن عذاباتنا الماضية في سبيله. . مثلما يخلع المرء حذاءه. إذن. . لماذا مشينا درب الآلام شبراً شبراً؟

أمس، حلمت بأنني «سيزيف». كنت أرتقي الجبل حاملة صخرتي. وصخرتي كانت مقدسة. قدماي عاريتان، وذراعاي متعبتان. أمشي كأنني لا أمشي. وألهث كأنني لا ألهث. وعند القمة، وقبل أن أتنفس الصعداء بهبة ريح، تدحرجت الصخرة، وسحقتني تحت ثقلها.

استيقظت ، كنت ألهث.

حاولت أن أهرب إلى الماضي. أحمد عزاؤنا الوحيد، صوته يضفي على الماضي مادية الواقعية، وشرعية الحقيقة. لولا صوته لحسبت أن الماضي ما كان سوى وهم. صوته وحده ـ حين يتكلم بالهاتف من المدن البعيدة ـ يمنح ذاكرتي جلال الشرعية ووضوحها ويقينها. إنني حبيسة ذاكرة بغيضة، ومخيلة أشبه بنافذة تطل على جدار. أي مستقبل ينتظر مَنْ ستقضي حياتها في هذا القمقم؟ أية حياة تنتظر امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها. أية طموحات وآمال ستبعث فيها إرادة الصمود والاستمرار؟

أشعر انني مقطوعة من شجرة.

أعتقد أنهم زرعوا أجهزة تصوير سرية في البيت. لقد صادروا «الخصوصية» من حياتنا. صادروها تماماً. كأننا نعيش في عراء مسرح. المتفرجون هناك في ظلام الصالة يحدقون إلينا، يسمعون أنفاسنا. . ونحن لا نعرفهم، ولا نعرف النص. . ولا اسم المسرحية. لا نعرف أدوارنا. لا نعرف المخرج. لا نعرف الملقن. لا نعرف أن نمثل.

جاء صوته الرخيم من غرفة مكتبه:

ـ فنجان قهوة يا أم أحمد.

من أين يأتي بهذه القوة الخرافية؟ من أين؟

«مشمشة» تطلق عواء غريباً.

(٤)

الخميس

الرجل. . .

تساقطت كل أوراق «الروزنامة». لم يتبق منها ثابتاً غير تلك الورقة التي تشير إلى الأول من نيسان. ما معنى هذا؟ هل كانت حياتي كلها كذبة مضحكة؟

إنها في غرفتها تعتزل العزلة، تلوذ بخيالها وتسافر. وزوجتي تنظف البيت للمرة الخامسة. تنفض غبار الزوابع. . زائرنا الوحيد. بعض الناس يهربون من الواقع المر إلى المستقبل. . الشباب بخاصة. هي تهرب إلى الماضي فلا تجد فيه اليوم معنى. كأنه إنسان باغتته شاحنة لم يكن يتوقعها. . فقذفته بعيداً عن سياق دربه. . وتركته حطاماً لا وجه له ولا ذاكرة ولا جسد. انتشر هنا وهناك. بات بقايا لحم وبقايا عظم وبقايا دماء. . بات كل شيء سوى نفسه.

إبنتي تهرب إلى المستقبل. صوت أحمد ـ عبر الهاتف ـ يأخذ أم أحمد إلى الماضي، ويحمل الصغيرة إلى المستقبل. تقول له: إذا أفرجوا عنا، هل تأخذني إلى السينما؟

فتحت درج مكتبتي. وجدت المسدس يرقد على حاله. لماذا لم يصادروه، حين فتشوا البيت ونبشوه؟ لماذا صادروا كتبي وصوري ولم يصادروا المسدس؟

أعرف الجواب. وأعرف أنهم لن يطلقوا سراح زوجتي وابنتي إلا إذا مت. والمسدس أمام عيني: نهايتي تعني حرية زوجتي وابنتي. أقسى ما في الأمر أنهما أيضاً تعرفان لماذا ترك رجال الأمن المسدس.

أغلقت الدرج، ورحت أكتب:

«الفصل الثاني: «انفتاح الفكر القومي على المنهج المادي . . .».

وقالت زوجتي وهي تضع فنجان القهوة على الطاولة:

ـ سوف يصادرون ما تكتب.

قلت دون أن أرفع عيني.

ـ أعلم.

وواصلت الكتابة.

* * *

قالت إنها قلقة على «مشمشة». قالت إنهم سيقتلونها. قلت:

ـ إذن حاولي أن لا تبالغي في التعلق بها.

تناولت فنجان القهوة الفارغ. سعت إلى المطبخ. قبل أن تختفي تساءلت:

ـ بماذا نتعلق إذن؟

وواصلت الكتابة.

(٥)

الخميس

المرأة...

أتأمل وجهه وهو يكتب. وجه نقشت الخطوب عليه حروفها الأزلية الغابرة. لا شك في أنه يشبه «سنمار». سنمار حمل وجهاً مثل وجهه، وقدراً مثل قدره. ألم يشارك في تشييد هذا البناء؟ ألم يساهم في تهيئة هذا الكابوس؟ ألم يحفر ـ مع أصحابه الألداء ـ هذه البئر التي وقعنا فيها؟ يشارك؟ يا لشماتة الأعداء السابقين، يا لتشفيهم. هل ألومهم.. أبدا.

العتمة والصمت. لم نشعل النور. عيوننا تعودت على الرؤية في الظلام. الليل لحظة الانتصار المرير الأسود. نراهم ولا يروننا. نحملق في رجال الأمن، ويعجزون عن الحملقة فينا. الضوء عندهم ساطع. نحن الآن نتبادل الأدوار. نحن المتفرجون، وهم الممثلون. نحن في القاعة المظلمة، وهم على خشبة المسرح المشتعلة بالأضواء.

لكنهم يعرفوننا. والملهاة سوداء، مملة، مضجرة...

انتظر مكالمة أحمد. الهاتف في حجري صامت مثل جثة. والقلق يدب تحت جلدي. لماذا لم يتصل. اليوم خميس، والساعة جاوزت الثامنة والهاتف لم يرن. كل

أيام الأسبوع لا معنى لها سوى انتظار مساء الخميس، حيث يـرن الهاتف معلنـاً عن ذلك الصوت الوحيد الذي يربطنا بالعالم الخارجي. صوت يمنح الماضي يقيناً.

تـرى ماذا يفعـل أحمد الآن.. في هـذه اللحظة؟ هـل يجوس شـوارع بيروت النابضة بالخطر. هل يحتسي القهوة مع صديقة في عمان؟ لعله يدير قرص هاتفه، فيرد ذلك الصوت الآلي البغيض بأن كل الخطوط مشغولة.. أو معطلة.

(٦)

الخميس

الرجل...

نجلس في الظلام، ظلام تنبت فيه ظلال. نحدق اليهم. جرس الهاتف ينطلق مثل ضحكة سوداء. قهقهة معتوه. أرفع السماعة، أسمع هديراً أشبه بهـدير محـارة بحر وهمي. صوت أجش:

- يا خونة.

ثم صمت متصل وهدير.

فصلوا الهاتف. الخط الوحيد الذي يربطنا بالعالم الخارجي.

نجلس في ظلام تنبت فيه ظلال، ونحدق إلى الحـرس. الحرس يقفـون تحت مصابيح الشارع. أسمع أحدهم يقول:

- لنشعل «الكشاف».. ماذا لو حاولوا الهروب؟

إنهم قلقون. ونحن محررون من القلق. لا قلق ولا مغامرة ولا مسؤولية. أشعر بخفة لا عهد لي بها.. بالتحرر من عبء السلطة.

ريح تزمجر.

قالت زوجتي:

- هل يسلطون علينا أضواء الكشاف؟

قلت دون أن التفت اليها:

- تركوا المسدس لكي أنتحر.

قالت :

- هل يخلعون عنا نقاب الظلام . . ويتركوننا لعرينا؟

سعيت إلى المطبخ . كنت أشعر بالجوع ، فتحت الثلاجة . إنعكس عليَّ ضوء باهت . أشعلت النور . أحسست بنظراتهم تلمسني ، تتحسس وجهي ، تقرأ عيني .

أطفأت النور . عدت إلى غرفة النوم دون أن أتناول لقمَة سريعة .

رقدت على السرير إلى جانب زوجتي ، ورحت أدخن سيجارة ، وأصغي إلى الجوع يرسل أصواتاً غريبة من معدتي .

الجوع يعض .

إنها ترحل إلى الماضي . وأنا أحدق إلى الحرس . رؤوسهم تطل من وراء السور . أفكر في أحمد فيغمرني فرح لذيذ . أحمد ، على الأقل طليق .

التفت إلى زوجتي . قلت كالمواسي :

- على الأقل . . أحمد طليق .

سمعت صوتها دون أن أرى وجهها . كان صوتاً مظلماً :

- هل تثق في يوسف الذي يسكن معه . ألم تقل لي يوماً إنه غير سوي .

هززت رأسي بالايجاب . لم ترني ولم تسمع .

ترامى إلى أذني سعال خافت من وراء السور . ثم نحنحة . هل يسمعوننَا يا ترى؟ هل توجد أجهزة تنصت في الغرفة؟ كان أحمد يافعاً يفور حماسة . حين أشار إلى تمجيد الجنرال على حساب العصبة قلت له مطمئناً :

- الرسالة بحاجة إلى رسول .

قال كالمحتج :

- لكنهم يصورونه على أنه نصف إله .

إنقبض قلبي . قلت وأنا أتكلف ابتسامة مطمئنة :

- هو نفسه يعرف أنهم منافقون . لكننا نعيش في عالم متخلف .

تناقشنا طويلاً . قال أحمد إنه يرغب في الدراسة خارج البلد . خارج نطاق هذا

الديكور، وهذه الطقوس. وأشار إلى رجال الحماية، والسيارات الفخمة، والفيلاّ الضخمة.

تناهى صوت زوجتي من قلب الظلام:

ـ لم يعد لاستشهاد حسن، صديق أحمد، معنى. ألم يستشهد في سبيل العصبة التي تضعنا في القيد الآن؟

تخيلت وجهها. ثم تحسسته بأصابعي. مسست دمعة انفلتت تحت جنح الظلام. وجه تصوغ الفجيعة ملامحه. تعرفت أصابعي إلى ملامح غريبة، لا عهد لي بها.

أين خبا ذلك الضياء الوامض في هذا الوجه؟

صمت ثقيل، يقطعه بين الحين والآخر سعال الحرس، ايقاع خطواتهم، همساتهم. لماذا يتهامسون؟

أشعر براحة مقاتل خرج من معركة طاحنة مثخناً بجراحه. لم تنته المعركة بعد، لكنه مطمئن النفس، مرتاح الضمير. لا يسأل عن نتيجة المعركة، ولا يقلقه مصيرها. فقد ألقى في أتونها بكل ما لديه، وها هو ينسحب إلى ركن قصي كي يلفظ أنفاسه الأخيرة بهدوء.

لماذا تركوا المسدس راقداً في الدرج المجاور لوسادتي؟

قالت إنها تشعر بالأرق. تريد أن تقرأ. قلت:

ـ سيروننا.

أشعلت المصباح الجانبي، تناولت كتاب «النِفَّري». قرأت بصوت مرتفع:

«وقال لي لا بد من أن أتعرف اليك، وتعرفي إليك بلاء، أنا لا أزول، أنا أصل البلاء. أحببت فيك البلاء. أظهرت لك البلاء. كرهت منك البلاء. معرفتك بالبلاء بلاء. إنكارك للبلاء بلاء».

«.. وقال لي مالي باب ولا طريق».

لم ألتفت إليها.

كانت عيونهم وراء السور تلتمع وتبرق. لم أرها، ولكنني أعرف.

(٧)

الخميس

الصغيرة. . .

حين أخرج من هذا القمقم، سوف أمضي إلى أدغال الأمازون. سوف أشيد قلعة ذات أسوار هائلة. وأختفي وراء الأسوار والجدران. سأجعل من فتاة تشبه «أوسكار» مرافقتي. سأضع على رأسي طاقية الاخفاء، وأجوب العالم، أراه ولا يراني.

إتصل أحمد ووعد بأن يصحبني إلى القاهرة لرؤية الأهرام، وحديقة الحيوانات. . . بعد أن يفرجوا عنا . لكن أبي يقول إنهم لن يفرجوا عني وعن أمّي إلاّ بعد وفاته.

أحب أحمد.

أشجار الحديقة تنهض بيني وبين عيون الحرس. عيون واسعة تحدق من وراء السور. أخشى أن ينتزعوا الأشجار من جذورها. أخشى أن يستخدم والدي مسدسه.

إن أطلق النار على نفسه. . تحررنا. ولكن؟ أستغفر الله العظيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أشعر بالذنب. أفكاري السرية بشعة. سيعاقبني الله إن تمنيت مقتل أبي. أنا أحبه. لكني أحب الهواء الطلق أيضاً.

أمس منع الملازم ابنة الجيران من زيارتي. كنت أريد أن أحكي لها عن أوسكار وماري أنطوانيت. أن نتفرج معاً على الفيديو.

الحمد لله الذي جعل أفكارنا وخواطرنا خفية لا يكشفها إلا اللسان إن شاء ذلك. لكنه ـ أعني الله ـ يقرأ هذه الأفكار والخواطر. هو وحده الذي يعرف كل احساس يتململ في أنفسنا، وكل خاطرة تمر ببالنا، مهما كانت مموهة وسرية.

إنه يراقب أحلامي الآثمة.

آثمة نعم. كيف تحلم فتاة بمقتل والدها؟ كأنني أرغب في موته. سيغضب الله مني. لكني اليوم سوف أصوم طلباً لمغفرته. إنني أحب والدي. ولكن كيف لي أن

التحكم بأحلامي؟

لو أملك طاقية الاخفاء.. لتسللت من بين رجال الأمن، وسعيت إلى بيت صديقتي. سأقول لها:

- لماذا لا نذهب إلى السينما؟
ستوافق.
ولن يراني أحد.

(٨)

الخميس
المرأة...

أخذت يده بين يدي في الظلام. كنا نرقد على السرير، ونحدق إلى العتمة بصمت. لم أر يده. بل رأيتها بأصابعي. إنها باردة وصلبة. قلت دون أن التفت:

- كان لتضحياتنا في الماضي معنى.
قال دون أن ينزع عينيه من الظلام:
- حين كان العهد البائد يسجنني.
قلت:
- أشعر بالوحدة.
شد على يدي. لم يدخن سيجارة. قال:
- آن لنا أن نتقاعد.
قلت:
- لكنه تقاعد قسري.
قال:
- عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء.
قلت:
- كان للماضي معنى.
قال:
- أنت تكررين ما قلت. القرن «الحادي والعشرون» سيكون مختلفاً.
قلت:

ـ لن نشهده. سنموت هنا، في هذا القمقم، لن نشهده.
قال وهو يضغط على يدي:
ـ بل سنراه. ستنتصر الشعوب ويعم السلام. ستتخلص من الخرافة.
قلت:
ـ في الماضي كان الناس يتعاطفون معنا.. كلما تعرضنا إلى الإضطهاد.
قال:
ـ ثم انتقلنا من موقع المقموعين إلى موقع القامعين.
قلت:
ـ ولكنك لم تستطع معهم صبراً.
قال:
ـ بل هم الذين لم يستطيعوا معي صبراً.
قلت:
ـ الناس لا يتعاطفون معنا الآن.
قال وهو يربت على يدي:
ـ لا ندري بماذا يشعر الناس. لعلهم لا يعرفون عن اعتقالنا.
لا تنسي أن الصحف لم تشر إلى زجّنا في الإقامة الجبرية.
قلت:
ـ تجاهلتنا، كأننا غير موجودين. لعلنا غير موجودين. لعلنا أشباح تطوف منام حالم...

لم ينبس، فقلت:
ـ سيقولون حفار البئر وقع فيه. سيشمتون.
قال:
ـ أرى أنهم يتعاطفون، ويدركون. ماذا ترين أنت؟
قلت:
ـ أرى ظلاماً وعتمة وحرساً تحت مصابيح الشارع.

رفع يديه عن يدي وأشعل سيجارة. أطلت الصغيرة وأشعلت النور. قالت إنها رأت كابوساً مرعباً في منامها. وإنها خائفة وتريد أن تنام بيننا.

رفع والدها الغطاء وهتف:

ـ اطفئي النور وتعالي.

ما كانت البروق والرعود والزلازل تهزنا. كانوا يعتقلونه ويفصلونني من عملي لقطع رزقنا. كنت أحول سيارتـه الخصوصيـة إلى سيارة أجـرة. أطلب من صاحب البيت المتعاطف أن نؤجر بيتنا مفروشاً لأجانب، فيوافق.

كنت أحلم بحياة غنية. أبغض الرتابة وانتزاع المغـامرة من الحيـاة . تقدم لي عدة أثرياء فرفضتهم. والدي الحاج التقي يذكر الأسماء وأنا أصمت، يتجهم وجهي. يقرأ الرفض في عيني. كنت أطوف شوارع مدينتي مرتدية بذلة رجالية. أتلثم بكوفية وأطوف. يجتاحني شعور عارم لذيذ بالحرية.. بالخفة. أشعر أنني أكاد أطير.

يا للجرأة.

أقول: إذا كانت الشوارع لا تستقبل غير الرجال.. فلأصبح رجلاً. وأدخل في ثياب أخي.

قال الختيار فيما بعد، إنه كان يدرك أنني فتاة لأن طريقة مشيتي كشفتني. لكنه تصنع الجهل، لأنه كان يرغب في رؤيتي. ولو متدثرة بأزياء الذكور وكوفياتهم.

قلت في نفسي آنذاك: هذا هو السندباد الذي سيرافقني لأبحر معه في عصارة الحياة ومغامراتها.

* * *

(٩)

الخميس

الرجل...

مسارقة أتأمل ابنتي وهي تسافر عبـر الفيديـو إلى عالم أفـلام الكرتـون. أشعر بالذنب يطأني بثقله، يبهظني. ترحل إلى أفلام الكرتون على الرغم من أنها باتت على وشك ولوج مرحلة المراهقة.

خطيئة أن لا أضع حداً لحياتي. خطيئة أكبر أن لا أكتب . ينبغي أن أواصـل كتابة الكتاب الذي سيصادر.

مشيت اليوم عشرة كيلومترات بين المطبخ وغرفة النوم عشرون خطوة. ذرعت هذه المسافة كبندول ساعة، رائحاً راجعاً مئات المرات.. لم أحسبها بدقة. وكنت طوال مشواري أفكر في شكل القرن الحادي والعشرين.

ينبغي أن أعيش. ينبغي أن أرى القرن الحادي والعشرين سيكون عصر تحرّر الشعوب المضطهدة.

سأقلع عن التدخين.

(١٠)

الخميس

الرجل...

لا.. إنهم لا يعاملوننا كما يعامل فئران المختبرات لا.. وضعنا أشبه ما يكون بكلب بافلوف والجرس.

أدركت ذلك بعد أن انقطعت الكهرباء عدة مرات. وبعد أن أعيدت الحرارة إلى الهاتف غير مرة، وانقطعت غير مرة، بناء على الفعل ورد الفعل.

حين انقطعت الكهرباء للمرة الأولى. فتحت الباب وخرجت إلى الحديقة. سعيت نحو السور. إشرأبت أعناق رجال الأمن عندما أصدر الباب صريراً بليداً. هتفت بالملازم:

ـ الكهرباء مقطوعة.
دنا مني ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وقال:
ـ صحيح؟ آه.. ولكنكم لا تحتاجون إليها على كل حال.
لم أفطن إلى ما يدور بخلده. تساءلت:
ـ لا نحتاج إليها؟ كيف؟
قال وهو يحاول أن يحافظ على ابتسامته:
ـ لاحظت أنكم لا تشعلون الأضواء في الليل.
غاضت ابتسامته. فزم شفتيه.

فطنت إلى مأربه، فهتفت كالمصعوق:
ـ يعني لا كهرباء إلا إذا أشعلنا الضوء؟
قال باقتضاب:
ـ أنا لم أقل هذا.

تأملت وجه الملازم الشاب. عنَّ لي أن أسأله متى انضم إلى العصبة. لكنني غالبت نفسي، وقهرت هواي. لا شك في أنه انضم اليها بعد الاستيلاء على السلطة. لم ير السجن إلا كسجّان. ولكني كنت أدرك أن تفاصيل حياتنا اليومية رهن مزاج الملازم. بوسعه أن يخفف من شقائنا، وبوسعه أن يحول حياتنا إلى جحيم، عبر التحكم في تفاصيل حياتنا اليومية. تفاصيل تبدو من الخارج تافهة. لكنها هائلة الحجم والخطورة من الداخل.

عدت إلى البيت دون أن أنبس. كان رأسي يدور وأصابعي ترتعش. وجدت زوجتي تجلس في الظلام مكتئبة. وابنتي تحدق إلى التلفاز المعتم وقد انتبذت مكاناً قصياً. غمغمت:

ـ إنهم يعاقبوننا.

في اليوم التالي جاء الملازم ومعه ثلاثة رجال. قال بعد أن قرع الباب بهدوء:
ـ هؤلاء الرجال من البريد. جاؤوا ليصلحوا الهاتف.

تهلل وجه زوجتي وقالت:
ـ لا ندري ما الخلل الذي أصابه. كان يعمل قبل...

قاطعها الملازم بلهجة ذات مغزى:
ـ الهاتف ذو ولاء، شأنه شأن المواطن. فإذا سمع كلاماً غير مستحب فإنه يرفض أن يردده.

وأطلق ضحكة مجلجلة سرعان ما كتمها حين نظر إلى عيني.

قال وهو ينقلب على عقبيه:
ـ على كل حال.. للجدران آذان.. لابد أنكم تعرفون هذا.

أدركت من فوري أنه أراد أن يبلغنا رسالة خاصة. فهمتها، ولأول مرة بدأت أرى الإنسان فيه. البشر تحت هذا القناع الصارم المخيف.

إذن البيت مزروع بأجهزة تنصت. ترى. . هل زرعت هذه الأجهزة حين كنت في السلطة، على قمة الهرم، أم أنهم زرعوها بعد زجنا في الإقامة الجبرية؟

عادت الحرارة إلى الهاتف. اتصل أحمد، قلت له إننا نعيش حياة هانئة وان كل احتياجاتنا متوافرة. . فعادت الكهرباء. وبات بوسع الصغيرة أن تشاهد التلفاز. ما قلته لأحمد كان ثمن عودة الكهرباء. . إنها تجربة «باڤلوف». الجرس يعني الطعام، واعطاء العالم الخارجي صورة مزركشة عن وضعنا يعني توافر حاجاتنا الأساسية: ماء كهرباء وهاتف. . الخ. . . .

التفت إلى زوجتي. كان بصرها شارداً. إنها تعتقد أن أحمد ما يزال حياً. وخيالها يلاحق تفاصيل حياته: لعله الآن يجلس في مطعم مع صديقة. لعله يحبها. لعله دعاها لتناول «البيتزا». إنّه يحب البيتزا. لو أستطيع أن أرسل له من هنا طبقاً من البيتزا. أحب أن يبتعد عن السياسة. إنها طاحونة لا دين لها. تطحن الأخضر واليابس.

هكذا تفكر.

(١١)

الخميس.
المرأة. . .
قطعوا الكهرباء.
«يا عبد نور العلم يضيء لك عنه، لا عني».

أقبلت الصغيرة ـ ما زلت أسميها الصغيرة، وهي تكاد تلج مدار المراهقة ـ وقالت:

ـ يا ربي. لماذا قطعوا الكهرباء. كنت أتفرج على مسلسل «أوسكار».
وبكت كالأطفال. أخذت يديها بين يدي. وقلت:
ـ «الصبر هو تجرع المرارة من غير تعبيس». .
فضربت الأرض بقدمها.
الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. على الأقل أحمد نفذ بجلده.

ولكن أين هو الآن يا ربي. قال إنه لا يريد أن يبقى هنا. قال إنه يريد أن يدرس في بيروت. ماذا لو انضم إلى المقاومة؟ كم بكيت يوم ذاك. اعتقدت أنه أقسى أيام حياتي. ولكن حظه في السماء. الله يحبه ويحبنا، نجّاه لنا. نفذ بجلده من هذا المصير المفجع.

لعله ما يزال الآن في بيروت. لعله سافر إلى لندن. لا أدري. المهم أنه نفذ بجلده.

أستطيع الآن أن أراه في بيروت. وفي لندن. وفي باريس. كان يضحك ويقول:

ـ الحياة هنا قاسية. لا أستطيع أن أعيش حياتي. كوني إبن مسؤول في القيادة يجعلني ألعب دوراً لا أحبه، ولا أرغب فيه.

وراح.

الحمد لله. بوسعي الآن أن أحتمل هذه المحنة، ما دمت أعرف أنه يتمشى الآن في شوارع: عمان؟ باريس؟ بيروت؟ ربما مع فتاة دافئة! يوسف اتصل وقال إن أحمد ترك بيروت وسافر إلى باريس.. ثم انقطعت أخباره. أكاد أراه في باريس يدرس أو يعمل في صحيفة ما. لعله يطوف الآن مع صديقته. شوارع الحي اللاتيني، أكاد أراه يطعم البط والإوز نتفاً من الخبز. آه لو يتصل. سأقول له إن صحتي عادت وتحسنت. وإني استرجعت في الأسبوعين الأخيرين ٣ كيلو مما كنت قد فقدت من وزني. لن أخبره عن انقطاع الكهرباء. سيغضب الملازم ويقطع عنا خط الهاتف.

الصغيرة تعد العشاء. ليتها نفذت بجلدها هي الأخرى. لكن.. لا.. إنها الملح والفلفل في حياتنا.

الختيار يقول إنني أبحر في الماضي كثيراً، وإنه يخاف على حالتي العقلية والنفسية. لكن أنا بدأت أنسى. ما عدت متأكدة من وجود الماضي. فالزمن فقد معناه. ماذا لو لم يكن لنا ثمة ماضٍ. ماذا لو كان كل ما جرى لنا مجرد حلم، مجرد كابوس. لعلي أحلم في هذه اللحظة. لعلي أستيقظ بغتة فإذا بكل ما يحيط بي الآن مجرد كابوس.

ولماذا أصدق أن أحمد قد سافر؟ لعل مكروهاً قد...

عندما جاء الملازم وقال إنّ للحيطان آذاناً، كنت أعبث بأصابعي. كانت أصابعي تعبث بأصابعي. وقلت: ربما كنت أحلم. وقمت إلى الغرفة وأحضرت ألبوم الصور، لأتأكد أن الماضي كان فعلاً. أنا لا أستطيع أن أنام. أريد أن أنام حتى أحلم بأحمد. وفتحت الألبوم، ورأيت صورة أحمد وهو في السادسة من عمره. وكان يبكي. وتذكرت أنه كان يسأل عن والده.

الماضي مريح لأنه معروف مكشوف. المستقبل مرعب، لأنه مجلل بحجاب المفاجأة. لكني ألتفت إلى الماضي فلا أرى سوى فراغ أشبه بهاوية مظلمة تفغر فاها. كان صوت أحمد يملؤه. لماذا انقطع صوته فجأة.. انكتم؟ يوسف اتصل وطمأننا وقال إن أحمد يعيش في منزل لا هاتف فيه. ولكن لماذا أظلم وجه الختيار حين تكلم مع يوسف؟ كنا نتفرج على التلفاز. نشاهد نشرة الأخبار. ورأينا أعضاء القيادة يتقبلّون التهاني بمناسبة عيد الثورة. وقال الختيار: إن وزير الاعلام غائب. واستنتج أنهم طيروه. هكذا كنا نعرف أخبار العالم الخارجي.. بالاستنتاج. هذا تضاءل حجم صوره في الصحف، إذن بات مغضوباً عليه. وذاك انتقلت أخباره إلى الصفحة الثانية، إذن بات على وشك أن يطير.. هو ورأسه، أو رأسه فقط.

وقال الختيار إنه يرغب في فنجان قهوة. قلت معترضة:

- لكنك ستدخن ثلاث سجائر مع فنجان القهوة.

رمقني بنظرة لو نطقت لقالت:

- وهل تودين أن أعيش طويلاً.. فتحبسين طويلا؟

قلت مغضبة:

- أريد أن تعيش.

فقام هو وسعى إلى المطبخ. أعد فنجاناً من القهوة بصمت.. ودخن ثلاث سجائر قبل أن يأتي على القهوة.

لا.. أنا لا ألوذ بالماضي. إذ كلما التفت إليه أطل وجه أحمد. أرغب في أن أرتبط بهذا الخيط الذي يربطني بأحمد. الخيط الوحيد الذي يربطني بالحياة. ماذا لو انقطع فجأة؟

أخلع الماضي كما أخلع سترتي. ما عدت ألبس سترة. ما حاجتي إلى تغيير الملابس. الختيار ينهض كل صباح، فيعد فنجان قهوته. ثم يغتسل، ويدخل في ثيابه، كأنه سيذهب إلى مكتبة في القيادة. ثم يلتف إلي ويغمغم:

ـ كنت أعتقد أن عمري سيشفع لي.

لكن لا العمر يشفع، ولا الاسم الكبير يشفع.

أضحك ضحكة سوداء. أقول:

ـ من يرك يحسب أنك ذاهب إلى العمل.

يقول:

ـ وهذا صحيح. سأذهب إلى القرن الحادي والعشرين.

ويجلس إلى طاولته.. ويكتب.

وهم من فوق السور يحملقون. والختيار يلقي بصره بين الحين والآخر على نبتة «المجنونة». إنها تنمو. ما كنت أحسب أنهم سيقتلعونها من جذورها يوماً ما.

قالت الصغيرة:

ـ لماذا لا تقع لنا أحداث؟

قلت:

ـ بل تقع. ألم تلد كلبتك؟ ألم يحضروا لك جهاز فيديو؟

وقال الختيار كالمحتج:

ـ كل هذا ولم تقع لنا أحداث؟

ربت على رأسها ثم تابع:

ـ وقعت لنا أحداث تكفي عشرة أجيال كاملة.

أشعر بأننا أبطال مسرحية من مسرح العبث.

عندما ارتفع ضغطي أحضروا طبيباً. هذا حدث كبير أشبه بانفجار لغم في حقل من الصمت.

أقبل الطبيب الشاب وابتسم. كان وجهه سمحاً. قال:

ـ بماذا تشعرين؟

قلت:

ـ بأنني من أهل الكهف. إنني نائمة لا ترى سوى ما يراه النائم.

فتجهم وجهه.

أصررت على أن أعـدّ قالب جـاتو. قلت للطبيب إننـا نبحث عن مناسبـة لاعداد الجاتو. ومجيئك مناسبةٌ مناسِبة.

فقدت إحساسي بالزمان، فاتخذ المكان هيئة شبحية. كيف أجعل الختيار يصدق أننا لا نُريد له أن يضع حداً لحياته. هو لا يتهمنا، ولكن لماذا يفتح الدرج بين الحين والآخر ويحدق إلى المسدس بعينين تاه اليقين فيهما؟

أحدق إلى ورقة التقويم الوحيدة. كل الأوراق تساقطت إلاها. إنها تشير إلى الأول من نيسان. أضحك وأنا أكاد أبكي. هل كانت حياتنا كلها كذبة بيضاء؟ سوداء؟ دموية؟

انفتلت إلى المطبخ. غسلت الأطباق للمرة السادسة.

(١٢)

الخميس

المرأة. . .

نتفرج على نشرة الأخبار في التلفـاز. نبصر الصورة ولا نسمع الصوت. قلت للختيار دون أن التفت:

ـ هل تعتقد أنهم عطلوا الصوت؟

قال وهو يشيح بوجهه:

لا. لعل العطب في الجهاز.

ـ منذ أسابيع والصوت معطل. ماذا يا ترى يحدث في العالم الخارجي؟

مسح عرقه الغزيز بمنديل من الورق. قال وهو يشير إلى مشهد دبابات تقصف أبنية سكنية:

ـ لعلها ثورة وقعت في بلد مجاور.

رفعت يدي إلى جبيني ومسحت بظاهرها العرق المنسكب على وجهي. نفخت.

قلت:

ـ لعل الحرب وقعت مجدداً بيننا وبين إسرائيل.

قال وهو يطرد ذبابة حطت على أنفه:

ـ لعلنا نحلم.

طارت الذبابة وحطت على أنفي، لم أطردها. قلت:

ـ ننام مساء، ننام ظهراً، ننام ليلاً. نصحو ليلاً، نصحو ظهراً.

قال:

ـ نصحو في المنام، ننام في الصحو.

ـ لعلنا نحلم.

قلت:

ـ أنت تكرر ما تقول.

قال:

ـ لعلها حرب أهلية.

قلت:

ـ بين حركة أمل والفلسطينيين في المخيمات.

قال:

ـ أو بين الحزب التقدمي الاشتراكي والكتائب.

قلت:

ـ أو بين أمريكا ونيكاراغوا.

قال:

ـ لماذا لا نصوغ أخبارنا الخاصة؟

قلت:

- هذا ما نفعله الآن.

قال:

- إذن، لنقل إن هذه الدبابات تمثل انقلاباً عسكرياً في جيبوتي.

- لعله فيلم وثائقي عن حرب أكتوبر.

قال:

- لكن حرب أكتوبر لم تقع بعد، حسب تقويمنا الخاص.

قلت:

- أنت تلعب بالأزمنة.

قال:

- نحن نحلم بحلم واحد مشترك. ماذا ترين أنت؟

في تلك اللحظة تلاشت الصورة وحلت محلها أصوات انفجارات.

قلت:

- أنا أقول هذا انفجار في كورنيش المزرعة.

قال:

- أو في جنوب السودان.

قلت:

- أو في طائرة تسللت إليها حقيبة ملغومة.

قال:

- نحن نشاهد الحلم ذاته.

قلت:

- هذه ليست أصوات انفجارات. إنها قصف رعود. هذا فيلم روائي يتحدث عن شخصين تائهين في البحر. والجو عاصف.

قال:

- نحن نلعب.. «نتولدن».

قلت:

- لعبة مسلية على كل حال.

قال:

- منتصف الليل وأشعر بالأرق.

قلت:

ـ لأنك نمت صباحاً . .

قال :

ـ وبعد الظهر . .

قلت :

ـ ومساء .

قال :

ـ وأنت أيضاً . . هل تناولت أقراصاً منومة؟

قلت :

ـ أنت تناولت أقراصاً منومة .

قال :

ـ أقتل الوقت .

قلت :

ـ الماضي مضى .

قال :

ـ والمستقبل لا يقبل .

قلت :

ـ ماذا لو نتصل بشقيقتي في لندن لنسأل عن أحد؟

قال :

ـ لنتأكد من وجودها .

قلت :

ـ كل ما يوجد خارج هذا القمقم مشكوك في وجوده . أشبه بحلم يقظة .

قال :

ـ كل ما يوجد داخل هذا القمقم مشكوك في واقعيته . أشبه بكابوس . ثم حل صمت ثقيل عازل كجدار . قلت :

ـ ماذا قال لك الجنرال حين أخبرك بأنه سيدفنك في الصمت والعزلة؟ نهض . أشعل سيجارة . رفع ذراعه صوب جبينه ومسح العرق . قال :

ـ قلت لك ألف مرة ماذا قال .

قلت :

ـ إنني جائعة . كل مرة تروي لي حكاية مختلفة .

مضيت إلى الثلاجة. فتحتها. تناولت قطعة من الجبن.. ثم أعدتها إلى مكانها. سكبت كأساً من الحليب وعدت إلى الغرفة. رشفت منها. ناولتها إلى الختيار فأبعدها بحركة من يده. قال:

- قلت لك إنه مولع بالتشبيه. قال دولتنا حذاء نمرة ٤٥ وقدمك مقاسها ٣٥. ثم قال: معك.. كنا ذبابة مقلوبة على ظهرها. دونك سنكون ذبابة راقدة على بطنها ومستعدة للاقلاع والانطلاق. ثم إنه امتعض من حديثي لصحيفة خليجية قلت فيه إنني كنت أهرب من محاضراتي في الجامعة لسماع أغنية لأم كلثوم. قال عضو القيادة ينبغي أن لا يكشف أسراره البشرية. ألم تفكر بمصير هيبة الحكم؟

ترامت إلى مسامعنا طرقات على الباب. إنه الجندي العجوز.

قال:

- معي مغص يا حكيم.. داوني.

(١٣)

الخميس

المرأة...

يضع يديه في جيبيه ويطوف بحجرات البيت. يقف عند كل باب كأنما يبحث عن مفاجأة. التفت إليّ وقال إن عناصر جديدة انضمت إلى القيادة. كنت قد انتهيت لتوي من غسل الصحون والكؤوس النظيفة كي أقتل الوقت. قلت:

- كيف عرفت؟

أخرج يده اليمنى من جيبه، ومسح عرقه بظاهر يده وقال إنه لم يعرف نصف الوجوه التي رآها على شاشة التلفاز أمس. وتساءل: أين ذهب الرفاق القدامى؟ ثم أجاب وهو يبتعد:

- لعل الجنرال زجهم في إقامات جبرية!

أعدت الصحون النظيفة إلى صنبور المياه، وفتحته مرة أخرى. ورحت أغسلها للمرة الرابعة. ولاحظت رعشة تسري في يدي.

هتفت متسائلة:

ـ لديك قمصان متسخة؟

جاء صوته دون وجهه:

ـ لا

إرتعش الصحن بين يدي.. وهوى. تناثر حطامه بين قدمي، ولم أصرخ. ماتت الصرخة في حنجرتي.

(١٤)

الخميس

الصغيرة...

لو أستطيع التسلل إلى ما وراء شاشة التلفاز. حيث العالم الرحب، والمدن الكبيرة، والازدحام والضوضاء.

أخاف الصمت. إنني أقضم أظافري على الرغم من أنني لست جائعة. قالوا إنهم لا يريدون أن يتذكر الناس اسم والدي. لهذا منعوني من الذهاب إلى المدرسة. قال أبي تريدون أن تدفنونا في النسيان. صاح في وجه مندوب القيادة. قال إنني مجرد طفلة لا ناقة لها ولا جمل. وحسبت أن الناقة والجمل تهمتان، ففرحت لأنني بلا ناقة ولا جمل. الرجل أظلم وجهه وارتبك. قال إنه مجرد موظف. قال ما على الرسول إلا البلاغ. لكن والدي صرخ في وجهه. وها هو الآن يوبخني لأنني صرخت في وجه الملازم حين منعني من اللعب مع بنات الجيران في الحديقة. قال: إنه مجرد موظف ينفذ تعليماته.

قالوا نحضر لها معلماً. اعترض أبي. قال أنا سأدرسها. كان غاضباً. وأنا لا أحبّ المدرسة. كنت أحب أيام العطل. انتظر يوم الجمعة وعطلة الصيف بفارغ الصبر. لكن أن يمنعوني من الذهاب إلى المدرسة... لا. ما كنت أكره المدرسة إلى هذه الدرجة.

لا أدري لماذا لا تقبل أمي مساعدة خادمة. عرضوا عليها خادمة.. فرفضت. والنتيجة: اعملي فنجان قهوة لوالدك، أنا مشغولة بالغسيل. راقبي الرز على النار، أنا

مشغولة بالكي . وأنا مالي نفس. أريد أن أشاهد أفلام الفيديو. الحياة فيلم خيالي لا ينتهي . متى سيتصل أحمد؟

يوم الخميس سلحفاة عجوز، يزحف ببطء. لكنه اليوم الوحيد الذي ننتظره. بقية الأيام لا معنى لها. يوم واحد يتكرر بتفاصيله المملة لو يلغي ملك الزمان أيام الأسبوع الفائضة. ولا يبقى إلا على خميس واحد طويل متصل.

إتصل أحمد، وكنا نتخاطف سماعة الهاتف. أبي وأمي وأنا.

قال إنه يعيش مع صديق اسمه يوسف في شقة. سألته أمي أن يصف الشقة بالتفصيل حتى يكون بوسعها أن تتخيله فيها. وحين أخذت أنا السماعة وسألته أن يصف الشقة بالتفصيل، قال إنه وصفها لأمي. قال بعد المكالمة: اسألي أمك. لأن الوقت ضيق، وأريد أن أحكي لك عن أمور أهم. وقال إنه حين يتزوج سيسمي ابنته باسمي. وسألني عن أخبار الكلبة «مشمشة». وقال إنه سيأخذني إلى «ديزني لاند» في يوم من الأيام. واختنق صوته. كأنما بكى. وسأله أبي إن كان يثق بيوسف. وسألته أمي أن يبتعد عن السياسة. وقال أحمد إن الناس في الخارج لم ينسونا. وبعد أن انتهت المكالمة رحنا نتبادل أجوبته. أمي تسألني ماذا قال لك حين سألتِهِ عن صديقته؟ وأنا سألتها بماذا أجابها حين وصف شقته. أما أبي فقد جلس صامتاً مظلم الوجه لا يأتي بحركة.

(١٥)

الملازم . . .

الغريب أنه ما يزال يكتب. وهو يعلم علم اليقين بأننا سنصادر المخطوطة. زوجته بدأت تعاني من فجوات في الذاكرة.

نظرت زوجته إليه بعينين نصف مغمضتين وقالت:

ـ ألن تقوم إلى الفراش. الساعة تجاوزت منتصف الليل.

ظل يدخن بشراهة ونظراته تتنقل بين الأرض والسقف والهاتف، لا تستكين في موضع واحد. اختفت الزوجة في غرفة النوم. وأشعل هو سيجارة أخرى. كان يضع مسدسه على منضدة صغيرة أمامه.

أطلت الزوجة وهي ترتدي ثوب نوم يكشف عن مفاتن جسدها الباذخ. وقفت أمامه، فحجبت شاشة التلفاز. نظر إليها ولم يبصرها. قالت بلهجة لا تخلو من دلال:

- أنظر إلي. ألا ترى جديداً؟

رمقها بنظرة شاردة، وتكلف الاهتمام. قال:

- صففت شعرك عند الكوافير. جميل.. جميل..

إمتقع وجهها. وأطلت من عينيها نظرة خائبة. قالت بصوت لا يخلو من حنق:
- لا.
فك ربطة عنقه وعاد يرمقها بنظرة وشت بأنه لا يعير جديدها اهتماماً.
قال كالمجامل:
- اليوم عيد زواجنا.
أخذت تقهقه قهقهة قهر وخيبة، ثم غطت فمها بيديها. قالت:
- لا.
شبك ساقاً على ساق وقال بانقباض:
- ما الجديد إذن؟

أرخت يديها وفردت ثوب منامتها الأحمر ودارت أمامه مرتين. لاحظ أن الثوب قد يكون جديداً. قال بلهجة المتسائل:

- قميص نوم جديد؟
هزت رأسها بالإيجاب.

فطن إلى ما يدور بخلدها فانقبض قلبه. وقف، أخذ يدها في يده، واقتادها إلى الحمام. فتح صنبور المياه على آخره. قال:

- انتظري هنا.

ثم خرج ليعود وبيده مذياع صغير. كان عبد الوهاب يغني ويقول:
«إني رأيتكما، إني سمعتكما».

رفع الملازم صوت المذياع. ثم همس في أذنها:
- جدران البيوت جميعاً مزروعة بأجهزة تصوير سرية.
قلبت المرأة شفتيها وقالت باستنكار:

ـ غير معقول. ثم لماذا فتحت الماء، وأحضرت عبد الوهاب إلى الحمام؟
همس:
ـ كي لا يسمعونا.

همست دون أن تدري لماذا يتهامسان:
ـ من؟

فأشار بأصبعه إلى الجدران.

خرجت من الحمام مغضبةً. وسعت من فورها إلى الفراش.. لكن الملازم لم يلحق بها. عاد إلى مجلسه. تناول زجاجة من الويسكي. راح يتجرع كأسه بصمت. وظلت هي تنتظره في الفراش المزدوج بصمت. لم يأت.

(١٦)

الملازم...

الرغبة تشب في جسد الملازم ولا تخمد. وشهية الصياد فيه تتأجج. وهو يجوس الجدران بأصابعه، ويشيح عن جسد زوجته، يفر مذعوراً إلى الصالة، يطفىء الرغبة المتأججة بالخمرة، حتى ينام.

قال لابن عمه العقيد والارتباك باد في محياه:

ـ أريد أن تمنحني شقة من شققك لساعة أو ساعتين.

لا يعقل أن تكون شقق العقيد السرية مراقبة أو مزروعة بأجهزة تصوير. ظهرت البغتة في وجه العقيد. قال:

ـ لماذا؟
شبك الملازم أصابعه. وخفض عينيه. غمغم:
ـ أريد أن أمارس الحب.
تهلل وجه العقيد. وغمز بعينه وهو يقول بخبث:

ـ يا ملعون.. ومن هي العشيقة المحظوظة؟ وأنا.. ماذا يطلع لي من هذه الصفقة؟ من هي؟. من هي؟.

أشاح الملازم بوجهه وغمغم بصوت مختنق وقد تضرجت وجنتاه:

- زوجتي.

جحظت عينا العقيد، وحدق إلى ابن عمه بنظرة فاحصة قلقة لا تستطيع أن تقرر إن كان هذا يداعبه أم يعني ما يقوله.

كان العقيد يداري حيرته في تأويل أية عبارة غامضة بالضحك. ابتسم للوهلة الأولى ابتسامة قلقة، ثم التمعت في عينيه نظرة ضاحكة، ثم أرسل ضحكة عصبية مجلجلة اهتز منها جسده كله.

تقهقر قلب الملازم في صدره. وبدا وجهه أبيض باهتاً كالموت. هذا ما كان يخشاه. أن يقابل اقتراحه الغريب بالسخرية. همس بصوت فيه عتاب:

- لو لم تكن ابن عمي لما صرحت لك بما ينبغي أن أخفيه.

أشاح بوجهه محرجاً. اتخذ وجه العقيد هيئة الجد. نهض من وراء مكتبه وجلس على كنبة مجاورة لكنبة الملازم. مال نحوه وهمس:

- ولكن لماذا؟ ألا تقوم لك قائمة إلا في بيوت الآخرين؟

ولم يتمالك العقيد نفسه، فأطلق ضحكة صاخبة أخرى، سرعان ما شكمها حين رأى وجه ابن عمه يتضرج ثم يظلم.

قام الملازم وسعى إلى النافذة مولياً ظهره للعقيد. ما كان ليستطيع أن يتحدث في هذا الموضوع الحساس الحرج مع العقيد وجهاً لوجه. قال وكأنما يخاطب العالم الذي لاح خارج النافذة:

- أعتقد أن بيتي مزروع بأجهزة تصوير سرية.

فغر العقيد فاه ببلاهة. لم يستوعب ما قاله الملازم للوهلة الأولى. استخرج علبة سجائر من جيب سترته وأشعل سيجارة. حدق إلى ظهر الملازم فلاحظ استقامته الكاملة. تمنى لو يرى وجهه، ليقرأ ملامحه، ويلمس ما تخفيه أعماقه. قال بلهجة من لا يصدق ما يسمع:

- ولكن هذا مستحيل. أنت أحد المسؤولين عن زرع هذه الأجهزة في بيوت الآخرين. ألم تزرع مثل هذه الأجهزة في بيت الختيار؟

هز الملازم رأسه، بالايجاب ولم يلتفت. لم ير العقيد وجهه الذي اربدّ غيظاً.

ونفد صبره فقال:

- التفت إلي. لا أستطيع أن أكلم ظهرك.

لكن الملازم لم يلتفت. كان يحدق من نافذة الطابق السادس إلى المدينة المزروعة بأجهزة التصوير والتنصت وقد وضع يديه في جيبي بنطاله. ظل العقيد ينظر إليه ذاهلاً لا يدري ماذا يقول. نهض ودنا من الملازم، ورمى ببصره إلى المدينة. قال دون أن يلتفت:

- أنت تغالي... لا تزرع هذه الأجهزة في بيوت ضباط الأمن. إنهم موضع ثقة. ثم نحن الذين نزرعها.

تجلى القلق في عيني الملازم فأبرقتا. التفت العقيد فأوّل تلك النظرة، وفطن إلى ما يدور بخلد ابن عمه. قال:

- تخشى أن تكون الأجهزة الأخرى قد زرعت أدوات التصوير السرية في بيتك.. اليس كذلك؟ الأجهزة تراقب الأجهزة. وماذا عن الفنادق، لماذا لا تنزل وزوجتك ليلة كل أسبوع في أحد الفنادق؟

تهافت الملازم على كنبة قريبة وقال بصوت مظلم:

- أنا زرعت جدرانها بأدوات التصوير السرية بيدي هاتين.

صاح العقيد مستنكراً:

- كل الفنادق؟

غمغم الملازم كمن يعترف بمصيبة نزلت عليه نزول القضاء:

- نعم.

فما تمالك العقيد أن قال:

- وبيتي؟ هل زرعت فيه..

قاطعه الملازم وهو يفتح أزرار قميصه:

- لا.. شَغِّل جهاز التبريد.

وتناول منديلاً من جيب سترته، وجفف عرق وجهه. استدرك قائلاً:

ـ لكن يمكن أن يكون جهاز آخر قد زرع مثل هذه الأدوات الالكترونية في بيتك.. من يعلم؟

أطرق العقيد، ثم رفع رأسه وهم أن يتكلم فلم يجد ما يقوله. لفهما الصمت بقبضته القوية. كان العقيد يتنفس بصعوبة. رفع رأسه وقال بقلق:

ـ أية ورطة هذه. أجهزة تراقب أجهزة. جهازنا، على حد علمي، لم يزرع في بيتك هذه الأدوات المعقدة.

قطب الملازم جبينه وقال:

ـ وماذا عن الجهاز الثالث؟

نهض العقيد في انفعال طارىء ينم عن الغيظ والرعب في آن واحد. نعم ماذا عن جهاز الأمن الثالث الذي يراقب جهاز الأمن الأول والثاني؟ ماذا لو صوروا كل ما يجري في بيته.

ما يجري في غرفة نومه! ما يفعله في المرحاض! ما... بل ماذا لو كانت هذه الغرفة ذاتها ـ غرفة مكتبه ـ مزروعة بهذه الأدوات اللعينة.

التفت إلى الملازم بوجه شاحب سقط عنه قناع الهيبة وسأل كأنما يحاول الفرار من هذا الكابوس:

ـ والختيار.. ماذا يفعل.. هذه الأجهزة تصور في الظلام.. هل... أومأ الملازم اليه أن يصمت. وراح يتفحص الكنبات بحثاً عن أجهزة تسجيل سرية. ثم غمغم:

ـ إنه يكتب.

نفخ العقيد ومسح عرقه بظاهر يده. ثم حمد الله. التفت الملازم إليه ورمقه بعينين متسائلتين: فأكد له أنه لا يعاني من هذه المشكلة. قال:

ـ أنت تعرف أنني عنين. وأعزب. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

عاد العقيد إلى مكتبه وقال بلهجة من سئم الحديث حول هذا الموضوع إنه يعتقد أن هذا هاجس اختلقته مخيلة الملازم. وأنه ـ أي الملازم ـ متوتر الأعصاب،

وبحاجة إلى إجازة طويلة. وقال:

ـ أنصحك بعدم الافصاح عن هذه الهواجس أمام آخرين. قد تتهم بنشر إشاعات مضللة مسيئة.

ثم مسح عرقه بظاهر يده وسأل:

ـ هل ستصادرون ما يكتبه الختيار؟

اتجه الملازم نحو الباب وقال دون أن يلتفت:

ـ طبعاً.. ولكن بعد أن ينتهي منه.

هتف العقيد:

ـ وكيف ستعرفون ما إذا انتهى من الكتابة.

إلتفت الملازم، وحدق إلى العقيد بعينين كثيبتين وقال:

ـ حين يكف عن الجلوس إلى طاولة مكتبه.. يكون قد أنهى الكتاب.

خرج الملازم ولم يوصد الباب وراءه.

(١٧)

الخميس

المرأة...

كنت أقول دائماً إنَّ الجوهري يكمن في مناعة جبهتنا الداخلية: الأسرة. أنا والختيار وأحمد والصغيرة.. ما دامت جبهتنا الداخلية متماسكة، ما دام كهفنا الخاص، ملاذنا الشخصي متماسكاً، فلن نأبه لانهيار العالم الخارجي على رؤوسنا.

عندما استيقظت اليوم وجدت الختيار في الحمام.. كالعادة. كان يحلق ذقنه ويدندن.. كأنما يستعد للخروج. كأنما يتهيأ كما كان يفعل في الماضي للسعي إلى مكتبه. كأن شيئا لم يتغير. الحرس الذين يحيطون بالبيت.. ظلوا في أمكنتهم ـ وإن تغيرت أدوارهم ـ مبرر وجودهم لم يتغير: الحماية.

إنه، كالعادة، يفتح أنبوب، معجون الحلاقة، يحلق، ثم يترك الأنبوب مفتوحاً.

وضع الفرشاة جانباً ولم يغسل الصابون عنها. فتح زجاجة العطر، سكب على كفه، مسح وجهه، ثم وضعها في مكانها دون أن يعيد اليها غطاءها.

أقرأ لأحد الكتاب الغربيين أن الموت هو فقدان النفس أو الروح. ولكن ما هي النفس؟ إنها خلاصة كل ما نتذكر ومجموعه. إن ما يخيفنا في الموت لا ينبع من كوننا سنفقد المستقبل. إن ما يخيفنا في الموت هو فقداننا للماضي. الموت ينتزع الماضي منا. النسيان شكل من أشكال الموت الحاضر في الحياة.

وها أنا أعاني من فجوات في الذاكرة. فجوات تتسع وتتسع مثل فم ينفتح قليلاً كي يبتسم، ثم تتسع فتحته ليمتلىء بالقهقهة. هذا الفم الهائل، فم النسيان، بدأ يبتلع الماضي . ماضيّ. يبتلع عمري. إنه أشبه بفم قبر يستدرجني إليه رويدا رويدا. يمتصني كقرص عسل. وأنا أذوب، أتلاشى. تخبو ذاكرتي.. فأموت. أموت وأنا أتنفس وأتناول الطعام وأغسل الصحون. أموت.

لماذا لم يتصل أحمد بعد؟ هل اتصل وحادثته ثم نسيت؟ غير معقول.

أقبل الختيار. طلب مني أن أعقد له ربطة عنقه. بات في الستين من عمره، ولم يتعلم كيف يعقد ربطة عنقه لا.. ولا يتقن انتقاء الربطة المناسبة. قال إنه سمع خطاباً للجنرال يطالب فيه باعادة كتابة تاريخ الأمة والعصبة، وتنبأ بأن المؤرخين سيشطبون دوره بجرة قلم.

ابتسمت ابتسامة شاحبة وقلت:

- خير، أين ستذهب؟

أظلم وجهه وقطب. لم يستسغ هذه الدعابة المرة. تجاهل قولي وغمغم:

- أين طلاء الأحذية؟

رحت أتأمله وهو يجلس على طرف السرير. يده في الحذاء، ويده الأخرى تمسحه. كان وجهه يتخذ هيئة الجد، وجذعه منحنياً. تفحصت تلك الأخاديد والغضون التي نقشتها يد زمن عاصف على وجهه. لكنني لاحظت أيضاً أن ذلك الومض الذكي المشع من عينيه ما يزال نافذاً براقاً. كأنه يعكس تفاؤلاً يأبى إلا أن

يشب ويرتفع كشعلة النار تضربها العواصف فتأبى إلا ارتفاعاً. كأنها لهب ارادة الحياة لديه. إرادة لا تخمد جذوتها، ولا تسكن حركتها.

حاولت أن استرجع من ذاكرتي الذاوية لقاءنا الأول. تراءى لي وهو يمشي إلى جانب أخي في يوم بارد رمادي، وقد تلفع المارة بالكوفيات والمعاطف. كنت أمشي إلى جوارهما.. وهو يظنني شاباً! كيف؟ كنت فتاة متمردة تتطلع بتوق شديد إلى الخروج من شرنقة عالم الحريم الخانق. حيث لا باب ولا نافذة. كنت أدخل في ثياب أخي الرجالية، وأضع الكوفية والعقال على رأسي، وأتلثم: أتسلل من البيت إلى الشوارع، فأطوفها بحرية لا تجرؤ عليها امرأة.

بين الحين والآخر، كنت أداعب ذلك الشقيق الطيب، فما أن أراه قد خرج ليتمشى، حتى أفتح دولاب ملابسه، فأدخل في ثيابه، وأغطي رأسي بإحدى كوفيات أبي وألحق به.

وما إن يراني ويعرفني حتى يتعثر في مشيته، ويضطرب من فعلتي. وينظر إليّ مبهوتاً مصدوماً، ويفتح فمه ليوبخني، لكن وجوه المارة تسرق الكلمات من بين شفتيه، فيتجنب مشاجرة علنية، ويشكم غيظه. وتتحرل الكلمات القارصة الغضبى التي كان يود أن يقذفها بوجهي إلى غضب عارم يتأجج في العينين. يتلفت ليتأكد من أن المارة لم يكتشفوا هويتي الحقيقية، ثم يشيح وييمم شطر شارع آخر بخطى عصبية متلاحقة، كأنما يهرب من طاعون أو رجل أمن يلاحقه.

ما إن أرى ملامح وجهه الذاهلة حتى أكتم ضحكة تكاد تنفجر بين شفتي. أقول له فيما بعد: لو رأيت وجهك المباغت. وجه من رأى الشيطان على نحو مفاجىء. فيصرخ ويضرب الأرض بقدمه، ويقسْم بإفشاء سري لأبي الحاج التقي. لكنني أعرفه جيداً، وأعرف أنه لن يفعلها.

ذات مساء انضممت اليه وإلى الختيار، الذي كان شاباً يافعاً. ارتبك أخي وقال يعارف بيننا:

- صديقي حسن.. صديقي الدكتور مراد.

لم أمد يدي لأصافحه. خفت أن يحس بملمس كفي الناعم. هززت رأسي، بينما قال هو:

- فرصة سعيدة.

مشينا ثلاثتنا في شوارع ذلك الجبل الهادىء. كان الدكتور مراد يتحدث بحماسة وبمنطق جديد لا عهد لي به عن مسائل عديدة. كان ينظر إلى الحياة نظرة ثوروية لا تلتفت إلى السائد. يتحدث عن الحب فيقول: إن الزواج هو شراكة في الدرب الوعر، لا ملجأ يلوذ به الرجل من أعاصير الحياة.

مفاهيم جديدة بدأت تطرق مسامعي. وأخي المرتبك المضطرب لا يناقشه، بل يكتفي بأن يقول باقتضاب:

- ولكن مجتمعنا لن يتقبل هذا في هذه المرحلة.

أو:

- لقد

- لقد ولدت قبل أوانك.

أو:

- أفكارك قد تصلح للنصف الثاني من هذا القرن.

ويلتفت الدكتور اليافع الفارع إليّ ويقول:

- وأنت، ما رأيك. ما بالك تبخل علينا بالحديث؟

يقشعر بدني حرجاً. فينقذني أخي قائلاً:

- صديقي حسن. . أخرس وأصم.

تلوح في عيني الدكتور الشاب نظرة مبهمة مكتنزة بمعان غامضة. . وترافقها ابتسامة ذات مغزى لا أفهمه.

أحب أخي الكبير هذا. وأعرف أنه يخفي وراء قناع الاستياء من خروجي عن المألوف إعجاباً حرص دائماً على توريته - إعجاباً بجرأتي وقدرتي على مجازفات تمسّ حدود الخطر، لكنها لا تندفع إلى حقل الغام الفضائح.

كان يسميني «حسن صبي»، أي البنت المسترجلة. ويثور ويصرخ مستنكراً. ثم ما يلبث أن يهدأ وينظر إلي بعينين تطل منها نظرة اعجاب، يحرص كبرياؤه على مغالبتها.

غير أني حين أستحضر الآن هذه الذكريات، يغمرني إحساس مؤلم بالشك في حقيقتها. وأتساءل: هل تنبع هذه الصور الماضية من ذاكرتي المخلخلة حقاً.. أم أنها نتاج مخيلة أدركت فجوات الذاكرة، فعمدت إلى سدّها بملامح دقيقة، وأحداث صغيرة.. لملء فراغات تتسع اتساعاً سرطانياً في الذاكرة.

استحضر وجه أخي فيقبل باهتاً مجزءاً. يتراءى لي أنفه منفصلاً عن عينيه، واتمثل عينيه بلا نظرات. أليست نظرة العينين المميزة هي التي تمنح الشخصية طابعها وختمها؟

حين اكتشف أخي أنني أركب دراجته سراً في الشارع الفرعي المقفر القريب، هاج ساكنه. كانت تلك الواقعة تفوق احتماله. قال؛ وهو يلوح بيديه ويصرخ، إنني تجاوزت الخط الأحمر. قال، وهو يذرع صالة البيت القديم، إنني أستغل طيبته، وأبالغ في امتحان سعة أفقه. قال:

ـ لحد هنا وبس. دسترنا له ففات هو وحماره. إن كان حبيبك عسل فلا تلحسه كله.

كان مولعاً بالأمثلة والحكم. وأقبلت أمي مضطربة مذعورة، وسألت عن سبب الصياح تركت مملكتها ـ المطبخ ـ وأتت مسرعة ولاحظت أن رائحة الطبيخ والبصل تفوح منها. نقلت عينيها القلقتين بيننا وقالت:

ـ خير؟

صدر أخي يعلو ويهبط. أصابعه ترتعش. ودارت عيناه في محجريهما كأنما يتردد في أن يبوح لأمي بإثمي.

ظل السؤال يصرخ في عيني أمي. سقط ذقن أخي على صدره وقال دون أن يتطلع إلينا:

ـ الست المصون إبنتك.. حسن صبي.. تريد أن تمتطي دراجتي وتنطلق عليها في الشوارع المجاورة.

صعقت أمي ولم تصدق أذنيها. تشنج وجهها وانتفخت أوداجها. سرت في بدنها رعشة قوية هزت جسدها هزاً فسقط المنديل عن رأسها. بدا شعرها الطويل ناعماً جميلاً. مدت يدها وتناولت أذني فقرصتها وقالت بلهجة محقق ساديّ:

ـ هل هذا صحيح؟

هـزت رأسي بالايجـاب. فصفعتني عـلى وجهي، ووصفتني بـأنني مقصـوفـة الرقبة. ودعت علي دعوات مرعبة وكانت تتبعها بلازمة: «بجاه سيدنا محمد». أطرقت صامتة لا أميل ولا أنتفض. وهي تصرخ وتحمد الله على عدم وجود أبي في البيت. وما كدت أفتح شفتي لأتحداها حتى أطبقتهما في ارتباك وحيرة. رفعت أمي يدها لتصفعني مرة أخرى. وهي تقول إن أبي سيذبحني لو سمع بهذه الحكاية. فتدخل أخي وقبض على يدها في اللحظة الأخيرة. بدا لي وكـأن نوبـة هستيريـة من الغضب الأعمى قد اجتاحت أمي. كانت تصرخ وتصرخ. وأخي يحاول تهدئةالموقف فيقول إنني لم أركب الدراجة على كل حـال. إنما هي فكـرة طائشـة ألمت ببالي. لكن أمي ظلت تصـرخ بغضب هستيري. قالت إن ركوب الدراجة يفقد البنت عـذريتها. وأن زوجهـا ليلة الدخلة لن يصدق أن الدراجة هي التي اغتصبتها، وسيعتقد أن القصة كلّها مختلقـة للتغـطية عـلى فضيحة يتكتم عليهـا الأهل. ثم.. مـاذا سيقول النـاس. الجيـران؟ الأقارب؟ المعارف؟ المدينة صغيرة وكل من فيها يعرف الآخر.

انقلبت على عقبي والدموع تجـلل وجهي، واختفيت في غرفتي. دفنت وجهي في وسادة السرير. غمرني إحساس ساحق بالرعب. ما كنت آبه لما سيقوله الجيران، ولا التفت إلى تقولات أهل الحارة.. كنت أحس بالـرعب والخيبة لأنني فتـاة ولست صبياً لكن أمي صاحبة تجربة في هذه الحياة. وهي تعرف عن عالم النساء ما لا أعرف. حمدت الله لأنها كشفت لي حقيقة ما كنت أعرفها. حقيقة مرعبة عن اغتصاب مقعد الدراجة للفتاة. حقيقة مرعبة لو كنت صبياً لمـا خفتها. لكنهـا حقيقة. صحيـح أنها بشعة، صحيح أنها تحرمني من متعة ركوب الدراجة.. لكنها حقيقة تدل دلالة قاطعة على أن عالم النساء غير عالم الرجال. إنه عالم العوائق والمحرمات. محرمات فـرضتها قوانين الطبيعة، وعوائق فرضها الناس.

انتابتني حمى الخوف. خوف من المجهول. من الحدود التي لا أعرفها. ارتفعت حرارتي ولزمت الفراش. حـين أتى الدكتور مراد ليفحصني. كـانت أمي تقف إلى جانبه ممتقعة الوجه. قال بصوت واثق إنني لست بحاجة سوى إلى الراحة. أشرق وجه أمي وخرجت لتعد له فنجان قهوة. كان يجمع أدواته الطبية ويدسّـها في حقيبته حين همست وقد تضرج وجهي:

ـ هل يشكل ركوب الدراجة خطراً على البنات يا دكتور؟

فطن إلى ما أرمي إليه. أطلق ضحكة مجلجلة وقال:

- هذا كلام عجائز.

وأمي عجوز. انبسطت أعصابي، وشعرت أن هذا الطبيب الحالم يختلف جذرياً عن أصدقاء أبي وأخي. كأنه ينتمي إلى عالم آخر، لا علاقة له بهذا العالم الخانق

ودخلت أمي تحمل صينية القهوة. فقال لها إنه سيحتسيها في الصالة. وسأل عن أخي. فقالت أمي إنه ذهب إلى السوق. وقذفت الدكتور بكل دعاء صالح، طالبة من السماء أن تكافئه على أعماله الخيرة.. وبخاصة حين رفض أن يأخذ أجره قائلاً:

- عيب يا خالتي.. نحن أهل.

وكان معظم سكان المدينة الصغيرة أشبه بالأهل فعلاً.

* * *

قال الختيار إنه لا يستطيع أن يجد جورباً نظيفاً. وتلفت حوله ثم قال بامتعاض إن الصغيرة تستخدم جواربه. وأكد أنني أعير كل اهتمامي للصغيرة، ولا التفت إليه. والدليل القاطع يكمن في أنني أسمح للصغيرة بالاستيلاء على جواربه. وسعى إلى باب الغرفة، ثم توقف وعاد إلى الدولاب. ففتحه للمرة العاشرة. نبش الأدراج. وقال دون أن يرفع رأسه. إنه لا يجد جورباً واحداً. ثم.. ثم ماذا تفعل فتاة بجوارب رجل؟

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ب

الأصوات وكاتمها

اعترافات كاتم صوت

١

أعرف ـ سيداتي آنساتي سادتي ـ أنكم لن تصدقوا أبداً أنني مجبول من طينتكم. أنني بشر، إنسان عادي، يحب ويكره. أعرف.. أعرف. وأعرف أنكم ستقطبون ثم ترفعون حواجبكم دهشة وتعلقون: قاتل محترف مأجور.. وإنسان! غير معقول. ولكنكم لا ترغبون في أن تصدقوا. هذا شأنكم. أنا لاأحاول هنا أن أصحح ما ترغبون في اعتقاده. لا بل إنني أهز منكبي وأقلب شفتي السفلى كلما سمعت رأياً يختلف مع آرائي. لأنني لا آبه. ولأن معتقدات الناس ما عادت تعنيني أو تستهويني.

أنتم تتعشقون أفكاركم المسبقة عن حامل كاتم الصوت. فليكن.. «تصطفلوا». لكنني أؤكد لكم أنني بشر مثلكم. حتى أنني أحببت أمرأة امريكانية ذات مرة. لا بل أؤكد لكم أنني عرفت في شبابي المتمرد طعم الدموع. تصوروا أني بكيت مرة من أجل امرأة، ومرة أخرى خوفاً من جهنم. ومرة ثالثة حين سمعت أغنية لفريد الأطرش. ومرة رابعة حين حضرت فيلمين بتذكرة واحدة. بكيت في ظلمة الصالة مرتين. مرة حين شاهدت الفيلم الأول (وهو فيلم هندي اسمه كانكاجمنا) ومرة أخرى حين شاهدت فيلم الخطايا (وهو من بطولة عبد الحليم حافظ ونادية لطفي.. آه كم أحببت نادية لطفي في ذاك الفيلم). أعرف أنكم سترمونني بالكذب. ولكن هذا لا يهمني. فأنا ـ كما قلت ـ لا التفت إلى آرائكم فيَّ.. وفي صدق اعترافاتي. ماذا؟ نعم. بكيت من أجل امرأة. امرأة من لحم ودم. امرأة التقيت بها في بيروت. ماذا؟ ماذا كنت أفعل في بيروت؟ كنت أدرس. نعم. لماذا؟ ألا يعقل أن يكون القاتل المحترف متعلماً؟ عجيب أمركم. أنتم تبسطون الأمور إلى حد السذاجة.

أستطيع أن أثبت لكم إمكانية ذلك: ألم يكن هتلر مثقفاً؟ وماذا عن موسوليني؟ ومناحيم بيغن؟ وبن غوريون؟ وعبد الحميد السراج؟ وقاذف القنبلة الذرية على هيروشيما؟ القائمة طويلة جداً، والوقت ضيق.

ألم ينل كل هؤلاء قسطاً من التعليم؟ لا بل إن موسوليني كان عازف «كمنجة» بارعاً، وكان هتلر فناناً لا يستهان بطريقة خلطه للألوان.

حاصله.. حاصله.. أين كنا؟

آه.. كنت أتحدث لكم عن رقة مشاعري. وأنتم ترفعون حواجبكم ولا تصدقون. حسن. ماذا لو قلت لكم إنني أمتنع عن التدخين بتاتاً إذا كان ثمة طفل صغير في الغرفة. لماذا؟ لأنني حريص على صحة الأطفال، رمز البراءة والصفاء. فإذا ألحت علي الرغبة في التدخين، دفعت الطفل إلى الشارع كي يلعب مع اقرانه، ودخنت وحيداً تحت سحب الوحشة.

وهنا أود أن أسارع إلى القول بأنني لم أعمل «كاتم صوت» وحسب. لقد شغلت عدة وظائف أخرى.. منها على سبيل المثال لا الحصر وظيفة «بهلوان» في سيرك متنقل. كنت أقفز على الحبال ببراعة تحبس أنفاس المتفرجين. وكنت أنتزع من أيدي الجماهير تصفيقاً لم يحلم بمثله مطرب مثل فريد الأطرش ـ الذي أكن له كل الاحترام والتقدير ـ وإن كنت اختلف معه في طريقة النظر إلى الحياة. فهو كما تعرفون ينتمي إلى مدرسة المتشائمين، أما أنا فأنتمي إلى مدرسة المتفائلين. وقد شغلت أيضاً وظيفة أمين مكتبة عامة صغيرة في إحدى القرى النائية.

وكانت المكتبة تحتوي على سبعة كتب مهمة. منها كتاب كليلة ودمنة، وكتاب «كيف تقلع عن التدخين»، وكتاب «كيف تكسب الأصدقاء»، وكتاب «تعلم الألمانية بدون معلم» وكتاب «أبراج الحظ».

وهي جميعاً ـ حسب يقيني واعتقادي ـ كتب خطيرة، ذات شأن. لكني أسر لكم بأنني تحيزت لكتابي «كلية ودمنة» وكتاب «أبراج الحظ». فأنا لست بحاجة للأصدقاء، ولا أدخن، ولا أرغب في تعلم الألمانية، لأنني أحقد على «فيورباخ» الذي اعترف بأنني لم أقرأ كتبه. لكنني سمعت عنه قصصاً وحكايات لم ترق لي. (يقال إن أمه يهودية)

وقد أعجبني في كتاب ابن المقفع القول الحكيم الذي قاله كليلة لدمنة. لأن

هذه الحكمة تنطبق علي. قال كليلة: «قالت العلماء: إن ثلاثة لا يتجرّأ عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا قليل، وهي محبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة».

ولقد اجترأت ـ سيداتي سادتي ـ على الثلاثة دفعة واحدة. لماذا؟ تسألون؟ لأنني أهوج بالطبع، ولأنني من القليل الذي يسلم.

فقد ائتمنت سيلفيا على أسراري ـ اسمها بالعربية سلافة ـ وكنت اعترفت لها بكل ما كنت أخفيه في باطني، ونشرت أمامها غسيلي كله: النظيف منه والمتسخ.

وكنت خلال جلسات اعترافي أشرب السم للتجربة. أي الخمرة. فأنا لم أتذوقها والحمد الله منذ ولدت. ولكن حين ألحت علي الحاجة إلى الاعتراف، وأدركت **أنني عاجز عن حل عقدة لساني، أمام الآخر ـ أي آخر ـ بسبب من رصانتي، وجبني (انني رعديد جبان أحياناً، خاصة حين أجلس إلى مسؤولي أو إلى شخص قوي مثل الدكتور مراد) وجفاف وجهي الذي لا يضحك للرغيف السخن. واحتقاري لمن يكشف** عن مكامن ضعفه للآخر.. قيل لي عليك بشرب سم الهاري للتجربة. فلما قلت مستعجباً:

ـ وما سم الهاري هذا؟

قيل:

ـ الخمرة.

قلت أشربها للتجربة فقط. فإذا بعقدة لساني تنحل بعد الكأس **الأولى، وعقدة حاجبي تنبسط بعد الكأس الثانية. أما خوفي فقد تلاشى منذ اللحظة الأولى، وحل محله شعور بثقة طاغية متغطرسة.** لماذا؟ **لأن سيلفيا حشرة. أليست غانية؟ وهكذا، بدأت أجلس ـ سيداتي سادتي ـ إلى سيلفيا أقضي** حاجتي الملحة إلى الاعتراف، واستخراج كل هذا البخار المضطرم في صدري لأهمسه في أذنها. بينما أشرب الخمرة للتجربة.

ولكن دعوني أصف لكم قبل أن أخوض في تفاصيل اعترافاتي. في أي جو كنت أدلي بهذه الاعترافات.

كان أحمد ـ رحمه الله ـ قد اقتادني، يوم زرت باريس لأول مرة، إلى ملهى في

البيغال. وهناك تعرّفتُ إلى سيلفيا ـ وهي فتاة من أصل عربي وفرع فرنسي ـ واسمها الحقيقي سلافة.

لقد دعوت سيلفيا إلى كأس من الشمبانيا، ورحت اعترف لها وأنا جالس في الملهى. وكان بيني وبينها حاجز البار. لم آخذ راحتي، فسألتها عن حل لمشكلة الحاجز، فقالت نجلس هناك وتفتح زجاجة شمبانيا. ونظرت إلى «هناك».. فإذا هي خلوة خافتة الضوء. فوافقت من فوري.

ورحت اعترف، وأفتح زجاجة وراء زجاجة. إلى أن حن قلبها الرقيق علي. فاقترحت هي أن تقضي عطلة نهاية الأسبوع في شقتي.. وهناك آخذ راحتي أكثر، دون أن أضطر لدفع هذه المبالغ الهائلة مقابل كل زجاجة شمبانيا. فوافقت من فوري. وأدركت أنها امرأة مخلصة، حريصة عليَّ، وعلى أموالي. وفسرت ذلك بأن الدماء لا تصير ماء. فالبنت من أصل عربي. وأنا عربي ولساني عربي.

وهكذا انتقلت عند عطلة نهاية الأسبوع إلى شقتي.

٢

إنني خريج مدرسة الحياة. أعظم مدرسة في العالم. أكثر عراقة من أوكسفورد التي لم أرها، وأعظم اتساعاً من جامعة بيروت العربية التي رسبت فيها، وترددت على مكتبتها.

لقد علمتني الحياة أن الظفر يكمن في ثلاثة: الباطنية، والازدواجية، والجرأة غير الاعتيادية.

إنني أبحث عن شخص ليكون ظلي وامتداداً لي. ولقد وجدت ضالتي بعد طول عناء. وجدتك أنتِ. اقرأ في عينيك رغبة مضادة في أن تكوني امتداداً وظلاً لشخص قوي. وهكذا نكون قد كملنا بعضنا. لا.. لا... هذا كلام لا علاقة له بالخمرة أو بالفلسفة. أنا أعرف الفلسفة. لقد درستها في جامعة بيروت العربية. **صحيح** أنني رسبت في السنة الأولى، ثم في السنة الثانية. لكن اهتمامي في الفلسفة لا علاقة له بالدروس الأكاديمية. وما ذنبي أنا إذا كان منطق أرسطو صعباً. كنت أحفظ أول السطر: قال أرسطو. ثم أنسى ما الذي قاله. ولكني لم أرسب لأنني كتبت في ورقة الامتحان «قال أرسطو».. ولم أكتب ما قاله أرسطو. لا أبداً. رسبت لأنني كنت

أرغب في أن أصبح تلميذاً للحياة. أتعلم على يديها لا على يدي الدكتور.. ماذا كان اسم دكتور علم المنطق؟ حاصله..

تعلمت من الحياة ـ التي تتلمذت على يديها ـ أن المنطق والنظام ضدّان للحياة، لأنَّ الحياة ثورة دائمة ضد المنطق، وتمرد مباغت على الأنظمة التي يؤمن الناس أحياناً بخلودها.

إذن فالحياة غير منطقية، والتناقض فيها فاقع كالفضيحة. الدليل على ذلك أنني أشعر بالعجز والعقم والضعف والموت. ولكنني قادر على التحكم بالآخرين والسيطرة على حياتهم، بل وموتهم. لا بل إنني أستطيع أن أختار شكل هذا الموت وهيئته ووقته. ومع ذلك.. مع ذلك.. أشعر دائماً بالارتباك.. حين أكون بين الناس. لهذا سعيت اليك أنت بالتحديد يا سلافة.

استأجرت أذنيك لأعترف أمامك. لماذا؟ لأنني عاجز عن الاعتراف أمام صحفي لامع مثقف مثلاً. أو كاتب جهبذ ـ لاحظوا «جهبذ» هذه ـ لقد اعترفت مسبقاً، وبتواضع، إنني لا أخلو من مستوى ثقافي لائق. علماً بأنني أبغض جميع المثقفين، وأخاف منهم، وأتمنى لهم الموت.

مع سيلفيا، ظننت إنني سأشعر بالراحة، سأنطلق على سجيتي. لماذا؟ لأنها مثلي، حشرة حقيرة. مجرد غانية، آلة تسجيل، آلة، شيء.

ولكن لنعد إلى التناقض: كيف يمكن «لحشرة» أن يتحول إلى طاغية متجبر يتسلط على الحياة، ويتحكم في الموت؟

أعرف، أعرف، ستقولين لي: ولكن لماذا تشعر بأنك حشرة؟ سؤال مشروع. سأجيب عليه بجواب مقنع منطقي:

سأقول إنَّ هذا الشعور ـ بأني مجرد حشرة ـ يتجلى في أعماقي. ما إن أدلف إلى دار عزاء أو حفلة عرس، حتى يتصبب عرق بارد من كل أنحاء جسدي. ويمتقع وجهي وأنا أحاول اصطناع ابتسامة مزورة.. بلا جدوى. إذ تختلج شفتاي اضطراباً ويتحول مشروع البسمة إلى رعشة عصبية. وينز العرق من كفي، فترتعش يدي عندما يمد أحدهم يده ليصافحني. وتسري في جسدي رعدة ذعر عجيب، وترتبك أصابعي فتمتد للوهلة الأولى نحو اليد الممدودة، ثم تتراجع فجأة نحو سترتي. **فأمسح عرق كفي بالقميص أو السترة، ثم أدفعها بعصبية وتوتر نحو اليد التي**

امتدت لتصافحني. . فإذا بالأوان قد فات، وإذا باليد الغريبة قد تجاوزت يدي وصافحت يد جاري، ذلك الذي يقف إلى جانبي.

في تلك اللحظة الرهيبة أطلب من الأرض أن تنشق وتبتلعني. . لكنها تتأبى، ولا تفعل. آه كم أحب أن أتحكم في الأمكنة والأزمنة، أن استعبدها. وأقول لنفسي وأنا أبحث ملهوجاً عن منديلي: ليتني أستطيع أن أغادر المكان. ولكن هيهات. ولا أجد المنديل في جيوبي كلها. أبحث عن أكسجين أتنشقه. . بلا جدوى. فأشعر بالاختناق. وحين أغادر المكان ماشياً في ظل الوجيه أو الزعيم أو الصديق الذي يتقن التصرف في مثل هذه الحالات (اسمي هؤلاء «عكاكيزي» أي الرجال الذين أتعكز عليهم في اللحظات الحرجة) آه. . أين كنا؟. . آه. . وحين أغادر المكان ماشياً في ظل «عكازتي». . أدس يدي في جيبي وأنا أتنفس الصعداء، فأعثر على المنديل بيسر وسهولة. تصوري!

نعم، في مثل هذه اللحظات الرهيبة الحرجة، أحس بتوقي إلى أن أكون ظلاً لرجل يمشي في خال وكبر وثقة. ماذا؟ تقولين لماذا أتردد على هذه المناسبات إذا كانت تضايقني إلى هذا الحد؟ ما هذا السؤال؟ لقد ولدت «مختاراً». فيَّ صفات الزعامة كاملة. لكنها الزعامة التي تحتاج إلى توجيه من فوق. من زعيم أكبر وأرفع مستوى.

مثلاً. . انظري إلي كيف أسيطر الآن على بالك. على سمعك. على انتباهك. لاحظي كيف تثير كلماتي ملامحك وتتحكم بها (آه لو كان معي مرآة لتنظري إلى وجهك) انتبهي إلى استحواذ أقوالي واعترافاتي على تعابير وجهك. وحركة اصابعك، ولمعة عينيك، ومدى اتساع حدقتيك لحجم ضحكتك، ارتفاع حاجبيك عند الدهشة أو الذهول. بل سرعة خفقان قلبك. حجم إفراز الادرينالين في غددك. الخ الخ الخ. . طريقة كلامي هي التي تتحكم في كيفية ردود فعلك، وكميتها. ليتك تنظرين إلى وجهك في المرآة. أراهن أن أحداً من زبائنك لم ولن يسعه أن يستحوذ عليك مثلي. انظري إلى نفسك، لقد تحولت كل حواسك إلى آذان صاغية. لقد نجحت في توريطك عاطفياً في اعترافاتي. . أي في تفاصيل حياتي. لماذا؟ إسألي نفسك لماذا؟ لا. . لم أقل لك إسألي كيف. قلت إسألي لماذا؟

ما بالك تصرين على «كيف». قلت: اسألي لماذا؟ يبدو أن لغتك العربية ضعيفة. يبدو أنك تفهمين العربية ولكنك لا تتقنين نطقها. في أية حال. . لماذا؟ أنا أقول لك: لأنني قادر على السيطرة. التحكم بمصير الآخرين. وهذه قدرة طبيعية حباني الله بها. وهاك مثالاً على ذلك:

حين كنت عضواً في التنظيم ـ أي قبل أن يفصلوني بحجة الانهيار والاعتراف والاستنكار ـ كان رفاقي يضربون المثل بانضباطي الصارم. أقف بين يدي الدكتور مراد كالصنم الذي قُدّ من صخر. لا تطرف لي عين، ولا تصدر عني حركة. أرفض أن أدخن عندما يقدم لي سيجارة. صحيح أنني كنت ارتعش من الداخل رعشات عنيفة متتابعة، غير أن هيئتي الخارجية كانت تتخذ شكل الصنم. بالمناسبة، أنا أبغض معاملته الانسانية لي. ينبغي أن يتذكر أنني لست صديقه، ولا زميل ابنه. أنا هنا شاب منضبط ينتظر أوامر قائده بخشوع. لكن الدكتور مراد ـ سامحه الله ـ كان يبدد نشوتي بهذا الانضباط حين يرسل قهقهة لا تليق بمقامه، ولا ينبغي أن تصدر على سجيتها أمام مريد ضئيل مثلي.

ولا يكتفي بتلك القهقهة التي تفسد جو الهيبة، بل يدنو مني ويربت على ذراعي ويقول:

ـ ما بك تقف منتصباً متخشباً كعضو مستثار؟ وأصعق. أكاد أنتحب. ولكني أتمالك نفسي وأتجاهل ملاحظته. وأقول بجدية مصطنعاً الغباء وانعدام الفطنة.

ـ كل اعضاء المجموعة ينتظرون تعليماتك على أهبة الاستعداد . . سيدي. فيرسل ضحكة مجلجلة أخرى ويقول:

ـ أقعُدْ يا شيخ، أقعُدْ. واقف مثل الأربعاء وسط الجمعة. . كأنك تمثال بوذا. . أقعد يا شيخ. . بلا سيدي بلا بطيخ. قل لي يا دكتور. . أو يا رفيقي.

وهنا، في تلك اللحظة تجتاحني موجة حقد عارمة ضد هذا الرجل الذي أكن له احتراماً يمسّ حدود التأليه. أشعر ببغضه لأنني أحبه. أحرص عليه. في تلك الأيام كنا نلتقي في عيادته سراً. آه كم أتعشق أجواء السرية والحذر. وكنت أخرج من عيادته محبطاً، ولكن سرعان ما أتمالك نفسي، وأسعى إلى جمع مجموعتي. فأصب جام غضبي عليهم. أوجه لهم الاهانة تلو الاهانة. أصرخ في وجه هذا منتقداً اهماله لأناقته. أنت مثال بالنسبة للناس، أنت نموذج. . كيف ترضى بأن تهمل ثيابك؟ من يهمل ثيابه يهمل مبادئه، يهمل رسالته.

ثم التفت إلى الثاني، فلا أرى عيباً في ملابسه. تدور عيناي في وجهه بحثاً وتنقيباً عن عيب ما ـ ينبغي أن تتعلمي أن الضغط المتصل هو أصل الانضباط. . وأصل النشوة كذلك. النشوة بكل أنواعها تنبع من الإهانة. إهانة رئيسي لي، وإهانتي لمرؤوسي ـ نعم. . وأصرخ في وجه الثاني ـ الذي لا عيب فيه ـ قائلاً: إن الأناقة

المفرطة تكشف هويتك الحقيقية. سيعرف الناس جميعاً أنك منتم وملتزم، لأن المنتمي والملتزم أنيق بالضرورة.

إشربي كأسك، إشربي. فالعمر واحد والحياة واحدة. والخمرة تمنح المرء ذلك الاحساس الاستثنائي بالخلود.

والآن.. استعدي لسماع هذا التحليل الدقيق، لقد كانت تصرفات الدكتور مراد تلك، أي عدم التفاته للانضباط والهيبة.. هي مصدر ضعفه. بل مكمن مقتله. حين اعتقلوه، ارتكبت خطأ جسيماً وفررت. أصبت بحالة رعب كابوسية. حتى إنني «عملتها» في بنطالي.

زجوه في الاقامة الجبرية عندما كنت في إجازة. لم يذيعوا النبأ في المذياع. ركبت سيارتي كالعادة، ومضيت إلى بيت الدكتور. فرأيت من بعيد ما أثار ريبتي. دبابات وجنوداً مدججين يتحلقون حول البيت. انقبض قلبي. قلت: وقع انقلاب. يبدو أنه أبيض. أوقفت السيارة في مكان خفي وصوبت نظري، فلم أر رجال أمن. وهنا تعززت ريبتي. وأطلقت ساقيَّ للريح. ولم أتوقف نهائياً سوى في بيروت. وهناك علمت أن المسألة ليست انقلاباً ولا من يحزنون. المسألة أكثر تعقيداً، وأنا لا أفهمها. وفي بيروت ـ بيروت ما قبل الحرب الأهلية ـ كدت أموت جوعاً. كنت غريباً ومقطوعاً من شجرة.

وحين عضني الجوع وقرصني البرد. بدأت أطرق أبواب السفارات، والتنظيمات والجهات.. وأعرض خدماتي وخبرتي. وهكذا بدأت أحوالي تتحسن. وذات يوم، بينما كنت أتمشّى في شارع الحمراء، حانت مني التفاتة فإذا بي أرى أحمد جالساً في إحدى المقاهي الرصيفية.

طار صوابي ولم أصدق عيني. اندفعت كثور أهوج، عبرت الشارع وفتحت له ذراعي، فرفع رأسه، ولمحت نظرة دهشة خاطفة في عينيه، تلتها نظرة مستريبة سريعة لا تخلو من ومض خوف.

٣

إشربي، إشربي.. أنت مستمعة عظيمة. تذكرين أحمد. تعرفين أحمد. الشاب ذو العينين الكئيبتين. أتذكرين حين قابلناك لأول مرة. آه.. ما أصغر العالم!

في بيروت، عثرت على أشخاص من النوع الذي حدثتك عنه. أشخاص يبحثون عن ظل وامتداد لهم. وكنت أنا بحاجة ماسة إلى أن أكون ظلاً لكائن قوي. امتداداً له. كائن يكملني.. وأكمله. يحتاجني واحتاجه. وفي بيروت حققت حلمي هذا الذي حال الدكتور مراد دون انجازه سابقاً.

ولا بد لي هنا من الاعتراف بدور أحمد في إعادة علاقتي مع الدكتور مراد. فلنعد إلى الوراء قليلاً.

بعد أن دالت دولة العهد البائد وجاء الدكتور وصحبه إلى السلطة. سعيت إلى بيته. كان يجلس في الحديقة يقرأ صحيفة وإلى جانبه أحمد. توسلت إليه أن يوظفني حارساً شخصياً له. فنبذني، قال إنه لا يحتاج إلى ظل. كدت أقبل قدمه. لكنه رفع حاجبيه. وأشاح قائلاً:

- لست بحاجة إلى حماية.

قلت مشيراً إلى حراسه:

- وماذا عن هؤلاء؟

تجهَّم وجهه. قال إنهم ديكور مفروض عليه. وإن عدم وجودهم أفضل من وجودهم. وإنهم عبء عليه.

يا الله.. إنني أذكر ذلك اليوم وأراه كما أراك الآن. كان الدكتور مراد يستمتع بشعشعة الشمس. وأحمد يشبك ساقاً على ساق ويطالع كتاباً. والحق أقول لك إنني استأت من طريقة جلوس أحمد. صحيح إنَّ الدكتور والده. ولكن أن يشبك ساقاً على ساق وهو في حضرة هذا القائد.. لا.. هذا كثير.. كثير.

وأشعل الدكتور سيجارة، ولم يناولني واحدة. فاحترمته. هز عود الثقاب فانطفأ. ثم نفث الدخان في الفضاء وقال بخشونة:

- ثم إنك مفصول من العصبة.

وهنا تدخل أحمد. قال إن الإنسان إنسان. وإنه معرض للضعف. وإن ما مضى قد عفى عليه الزمن. وإن كثيراً من الذين تركوا الجماعة في الأيام الصعبة، عادوا إليها أيام العز.

وعاد يقول:

ـ الإنسان إنسان.

كما لو أنه اخترع جديداً. طبعاً الإنسان إنسـان. ولكن.. قد تستغـربين ما سأقوله لك الآن: لقد احترمت موقف الدكتور الخشن واستعذبته. أما موقف أحمد، فقد رأيت فيه ضعفاً لا يليق بمناضل ـ ولهذا السبب لم يكن أحمد ملتزماً إلتزاماً جدياً.

وانتقلت عـدوى الضعف إلى أبيه. فهـز رأسه وقـال دون أن يرفـع عينيه عن الصحيفة:

ـ حسن: سنرى.

فرحت وحزنت. صدقيني. فرحت لأنني منحت فرصة أن أكون ظلاً. وحزنت لأنه غفر لي ضعفي وضآلتي.

حـاصله.. بين ليلة وضحـاها، انضممت إلى رجـال حمـايتـه. ثم أصبحت حـارسه الخـاص. أي المسؤول عن رجال الحمـاية. ثم حصـل ما حصـل، ونتيجة لغبائي، وسوء تقديري للموقف.. هربت.. مغادراً البلد كلها. ربما.. ربما.. لو لم أهرب، لما شكك فيَّ أحد ولتحولت من حارس له إلى حارس عليه.

لا.. لا.. كان ينبغي أن أعرف مصير الدكتور مسبقاً. إنه ليس رجل سلطة. إنه رجل معارضة. والمصيبة أنه جرني إلى البلاء معه من حيث لا أدري.

حسن: هو قوي صلب ولا ينكسر. ولكن ما ذنبي أنا؟ هل تعرفين؟ سأعترف لك بسرٍ لم أبح به لأحد من قبل. إنني أمقت صلابته. أحسده عليها. كنت أتمنى أن أراه في موقف ضعف ـ ولو مرة واحدة ـ. لا.. لا.. ينبغي أن تفرقي بين حبي لقوة السلطة والنفوذ وألقها، وبين مشاعري نحو أولئك الذين توصف قناتهم بأنها لا تلين. إني أمقت هؤلاء، وأغبطهم بغيظ.

في بيروت بعت خبرتي لأطراف عديدة متباينة. وما الغريب في ذلك؟ المهندس يعرض خدماته على أكثر من شركة إذا فصل من شركته الأصلية. لماذا لا ينتقده أحد. كذلك يفعل العالم والأستاذ الجامعي. كلنـا سلع. سلعنا خبـراتنا.. وهي مثـل كل سلعة تعتمد على العرض والطلب. ولحسن حظي كانت أسهم سلعتي ـ ولا تزال ـ في العلالي. صحيح إنني لم أقم بـوظيفة كـاتم صوت من قبـل. لكنني كنت مهيأ لهـذه الوظيفة المزدهرة. تماماً مثل سائق ينتقل من قيادة سيـارة «صغيرة» إلى قيـادة شاحنـة ضخمة. الخبرة موجودة، وقليل من التدريب ييسّر الأمور.

٤

في صحتك. لهذا.. ولهذا كله وافقت على اغتيال أحمد. حتى أنني رفضت المبلغ الضخم الذي عرض علي. كان الهاجس الذي يستولي على كياني كله، يتلخص في كلمتين:

- كيف أهزم الختيار؟ كيف أجعله ينكسر.. ولو لمرة واحدة في حياته. لقد أصبت بانهيار في السجن بينما بقي هو كالسنديانة. إنني أمقته. حتى وضعه في الاقامة الجبرية لم يحطمه. مقتل أحمد هو ثغرة الضعف فيه. هو نقطة ضعفه. وأحمد نفسه لا يستحق أن يكون ابن هذه السنديانة. إنه يكره الحياة. إنه ميال للموت.

ولكن دعيني أعود إلى الوراء قليلاً. لم أهرب إلى بيروت مباشرة. لا. في البداية لذت بمدينة أقرب. والتسلل إليها يسير لا عناء فيه. آه.. أين كنا.. نعم.

كنت أتحدث عن الحشرة التي تتحول إلى طاغية. نعم. أين الفستق؟ أين الفستق؟ ويسكي بلا فستق، مثل كاتم صوت أبكم. أنا رجل صاحب مزاج يا سيلفيا. أعجبك. على الرغم من ازدياد ثقتي بنفسي مع ازدهار سوق حرفتي. إلا أنني ظللت حبيس ذلك الاحساس البغيض بأنني حشرة.

كان ثمة مسائل اجتماعية ضرورية.. لا أتقنها. مرة أعلنت إحدى السفارات العربية الحداد على موت رئيس دولتها. وحولت منزل السفير إلى دار عزاء. طبعاً لم أذهب لاداء الواجب وحيداً. لا.. أنا لا أجرؤ على مثل هذه المغامرة.

ذهبت مع وجيه كان يعتبرني ذراعه اليمنى - وقد كنت عشر أذرع يمنى لعشرة اشخاص مختلفين - وكالعادة مشيت في ظله. فصافحت من صافح، ورددت الكلمات التي رددها. وجلست إلى جانبه التفت إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى، بحجة الحيطة والحذر. وكنت أعرف أن لا أحد في كل هذه الدنيا تراوده فكرة اغتيال هذا الوجيه. وكان هو يعرف تلك الحقيقة أيضاً، ويأسف لها.. وعلى الرغم من ذلك، لم يخف أبدا متعته بالتفاتاتي الحذرة، ونظراتي القلقة الدائرة التي لا تستقر على وجه واحد، ولا تستكين. لماذا؟ لأن حركاتي هذه تمنحه شعوراً بالأهمية. تجعله يحس إحساساً مزيفاً بأنه معرض للخطر. وهو يعرف أنني أمثل. وأنا أعرف أنه يمثل. لكننا - مثل الذي كذب كذبة ثم صدقها - بتنا بعد حين نعتقد جازمين بأنه معرض للخطر. ثم انطلت الكذبة على الآخرين أيضاً.. فبدأوا يتعاملون معه باحترام وهيبة. لا تفهميني غلط يا سيلفيا. أنا لا أذم الرجل، لكنه كان

مجرد وجيه عنده كم قرش زيادة. . وكان يطمح في موقع سياسي. فبدأ بتوظيفي حارساً شخصياً له. وهكذا كنت الدرجة السفلى من درجات سلم جاهه السياسي فداس عليّ ووصل. وهكذا بدأت أنا أيضاً ـ بعد أن انفصلت عنه ـ أتحول بين الحين والحين إلى درجة أرقى في سلم وظيفتي الجديدة ـ القديمة.

حاصله. . لماذا جبنا هذه السيرة. . آه. . كنت أجلس إلى جانبه وأتلفت مصطنعاً الحذر والحيطة. وما كنت أعرف أن التدخين أثناء تلاوة القرآن في دار عزاء أمر مكروه. فاستخرجت علبة سجائري من جيب سترتي، وكدت أشعل سيجارة حين شخصت عيون كل الوجوه الصامتة الذابلة إلي. وزجرني الوجيه ـ وكان حاجاً مؤمناً، في النهار على الأقل ـ.

وعندما خرجنا من دار العزاء، طردني من العمل، دون أن يمنحني تعويضاً. وقال إنني أحرجته أمام أناس سينتخبونه ـ إن جرت انتخابات ما في زمن ما ـ لإيمانهم بإيمانه. ولم أطالبه بتعويض. إذ كان ينتمي إلى أسرة ذات نفوذ. . وأنا مقطوع من شجرة.

وهكذا عدت لأتشرد في الشوارع، عاطلاً باطلاً. إلى أن نصحني أحدهم بالسفر إلى بيروت. واحتج بحجة ذات سند. وهي أن سوق وظيفتي مزدهر في بيروت. وأنّ أسهم سلعتي رائجة وفي العلالي.

فعملت بنصيحته وسافرت إلى بيروت.

طرقت أبواب بعض السفارات والجهات والأطراف. فإذا بالأبواب تفتح على مصراعيها. وكأنني علي بابا الذي وقف أمام صخرة تسد كهف الكنز وصرخ:

ـ افتح يا سمسم.

وهكذا. . وبالتالي نستطيع أن نستنتج يا سيدتي أن الحشرة ـ أي أنا ـ يمكن أن تتحول إلى قضاء مبرم، وقدر محتوم ـ تذكري أنني قاتل محترف ـ وأنا لا أشعر بالخجل حين أعترف أنني لا زلت حتى اليوم أشعر بضآلتي أحياناً. لا بل إنني أمقت الأقوياء الذين يعاملونني بلباقة ودماثة. ولهذا السبب عينه اجتاحتني كراهية عنيفة، وجهتها نحو الدكتور مراد حين ربت على رأسي وكتفي مواسياً، في الزنزانة أيام كنا في المعارضة علماً بأنني كنت أعتبره مثالي الأعلى الذي لا يمكن بلوغ مكانته.

وقد تضاعف حقدي عليه حين زرته مرة في عيادته ـ أيام المعارضة أيضاً،

وذكرته بأيام السجن، وتهمة الشذوذ التي وجهت لي في البداية. فقال وهو يبتسم:

- إنس.

أنسى! كيف أنسى؟ أنا لا أرغب في أن أنسى. لا بل أرغب في استحضار كل لحظة وتذكر كل برهة من تلك المرحلة. ذلك يمكنني من اضرام نيران الحقد الخصب في نفسي. يجدد لهبي. يجعل ناري خالدة. لا أرغب في أن أنسى الاهانات، الذل، الحط من الكبرياء.. سواء أكانت اهانات صدرت عن زوج أمي، أم عن ضابط المباحث، أم معلم المدرسة، أم زعيم عصابة الأولاد في الحارة. آه.. كم أحب أن أفكر بكل الاهانات التي لحقت بي. أن أعيد تمثيلها بكل تفاصيلها.. كل كلمة سببت لي ألماً.. أتذكرها بوضوح. أتذكر قائلها ومناسبة قولها. أتذكر الوجوه التي قالت الشتيمة، أتذكر حركة الشفتين اللتين نطقتا بالاهانة.. وأتذكر طعم الألم.

لماذا كان الدكتور مراد يعاملني بكل هذا العطف والحنو؟ إنني أبغض عطفه وحنوه. أرغب في أن أنسى أنه ربت على رأسي، وأنه ضيفني سيجارة وأنه كان يستقبلني في العيادة وهو يبتسم بلياقة.

كنت بحاجة ماسة إلى أن أكون ظلاً لشخص ما. لكن الدكتور مراد كان راغباً عن أي ظل.

حاصله...

سافرت إلى لبنان، فوجدت في بعض السفارات والأوكار «عمالقة» تبحث عن ظلال. وسرعان ما صرت ظلاً لأكتمل. وبحثت، أنا نفسي، عن ظل يكمل كمالي. ورأيت فيك ظلاً مناسباً لي. ألست تتمنين أن تتحولي إلى ظلي كي تكتملي يا سيلفيا؟ أقصد أنني بحاجة إلى ضحية، كي أكتشف اكتمالي وقوتي. واحتاج إلى التحرر من الضحية لأكونها، وأحل فيها، فأكتشف نقصي وضعفي.

لو كنت كاتبة لامعة، وكانت هذه الجلسة أشبه بمقابلة صحفية لسألتني:

- ما رأيك في الملكية الشخصية يا سيد يوسف؟

رأيي في الملكية؟ هـمْمْ. أنا يا سيدتي ضد المشاع، ومع الملكية الخاصة. هل تعلمين أن زوج أمي كان يتهمها بأنها مشاع لكل رجال البلدة؟ كان يسكر، ويتهمها بصوت مرتفع يسمعه كل الجيران. ثم ينتحب فجأة ويقول إنه يرغب في أن تكون ملكاً له وحده.

حين كنت أسألها عن والدي، كانت تطلق ضحكة مرة وتقول إنني ورثت عنه البطالة والضجر والصعلكة. لا أدري. ربما كانت مشاعاً لكل الرجال. وربما كان زوجها ظالماً في اتهامها. لكنها بالتأكيد لم تكن لي. إذ كانت تقول لي كلما دنوت منها:

- إطلع العب في الخارج.

أهز كتفي معترضاً، وأبوز. أقول إنها تمطر في الخارج. ولكني ما كنت أخاف المطر.. لا. كنت أخاف زعيم عصابة الكف الأسود. الولد الملعون الذي كان يضربني ويصيح قائلاً إنَّ لي ألف أب وأب. والأولاد يضحكون. وأنا لا أفهم. أريد أن ألوذ بصدر أمي. لكن صدر أمي محجوز. وأمي تقول بعد خروج الضيوف أنه لولا هداياهم لمشيت في الشوارع حافياً عارياً ومؤخرتي بادية للعيان.

ويقال - والله أعلم - إنني ثمرة للوحدة المستحيلة بين البورجوازية والبروليتاريا الرثة. إذ خان أبي طبقته (زوجته) وتزوج من أمي (الخادمة) التي خافت بدورها سيدتها (زوجته). لكن هذه الرواية لا تستند إلى أدلة وبراهين قاطعة.

وزوج أمي يتشاجر دائماً معها. يحاول اقتلاع شعرها. كان عاملاً في معمل صغير، وكان يعود مع المساء مرهقاً فتستقبله أمي بوجه مشرق. لكن ما إن يعود من العمل حتى ينهار على مقعده ويطلق شخيره، فتنتفض هي وتهزه بشدة. وتقول وهي تشتم حظها إنه ليس رجلاً. فينهض ويخلع بنطاله ويقول إنه متعب مهدود الحيل. فتقول له إذن لا عشاء لك الليلة! ويظلم وجهه ويقول إنه لا يستطيع لأنه مرهق. وإنه يستيقظ عند مطلع الفجر وحين تأبى أن تعد له العشاء. يصرخ في وجهها!

- أنت مشاع!

وأنا أراقبهما ولا أفهم. وتقول هي أنت قطعة صقيع! فيتناول زوج أمي زجاجة العرق ويقول إنه سيذهب ويشتري جبنة ومرتديلا من الدكان. ويصرخ في وجهها قائلاً إنها مشاع لكل ذكر! لا يقول ذلك إلا حين يشرب.. ثم تداهمه نوبة نحيب. ويقول إن ظهره يوجعه. وترقد أمي على السرير صامتة. وحين تنعشه الخمرة، ينهض ويقترب منها، فتدفعه بيدها، وتضغط على منخريها بيدها الأخرى، وتشيح بوجهها واسمعها في الظلام تقول لأبي يا خايب، مرة تحتج بحجة ارهاق العمل اليدوي، ومرة تحتج بحجة العرق، لكنك خائب فيسألها وهو يتضاحك، ومن أين لك هذا؟ ويشير إلى بطنها. فتدير له ضهرها وتطلب منه أن يحل عنها! فيصرخ كالمجنون إن الجنين حين

يولد لن يشبهه ثم يشير إليّ بإبهامه ويقول، وهذا أيضاً لا يشبه والده. . . وكانالأولاد يسمعون ويقولون إن أمي ستحرق بنار ذات لهب!

٤

نعم، التقيت بأحمد في بيروت. قال إنه كان في باريس حين زج بالدكتور مراد وأم أحمد واخته في الاقامة الجبرية وأن أبشع ما في هذه المأساة، هو أنه لا يعرف لهذا الاجراء سبباً واضحاً. وقال إنه يتصل مع أسرته مساء كل خميس، وأنهم يؤكدون له بأنهم في صحة جيدة. وكان يحتسي البيرة منذ الصباح. ولا يأكل إلا الفستق.

وسألته عن وضعه الأمني. فهز كتفيه وتطلع إلى المارة، وتناول حبة فستق، ثم سألني:

- تشرب بيرة؟

أفهمته أنني لا أشرب الخمرة. وكنت متلهفاً مضطرباً تجتاحني رغبة جامحة طاغية في أن أسمع كلمة عن انهيار الدكتور مراد. فالمحنة هذه المرة أشبه بضربة قاضية. لأن سجون الصحاب غير سجون الأعداء. لكن أحمد كان يلتهم الفستق ويحتسي البيرة، ويتمتع بشعشعة شمس بيروت ويقول:

- معنوياته عالية. . حتى إنه قال لي على الهاتف إنه سيعيش ليرى القرن القادم.

واندلعت نيران الغيظ والحنق في نفسي. وتذكرت أيام انهياري في السجن، حين كنت أشاطر الدكتور مراد الزنزانة كيف انتحبت أمامه بضعف ورعب. كيف ربت على كتفي ورأسي مواسياً. كيف مقت هذا التعاطف. كيف بغضت صلابته وحسدته عليها.

وطلبت فنجان قهوة، وكانت بيروت بيروت. واجتاحتني رغبة جارفة باطنية بتدمير أحمد. لم أتبين لهذه الرغبة سبباً واضحاً. إذ كان الشاب بسيطاً مسالماً. . وشبه مدمر أصلاً. ورحت أحاول فهم هذه الرغبة العنيفة التي ملكت نفسي، وسيطرت على عقلي. بلا جدوى. . فقد كنت أحسها، وأشعر بخضوعي لها، ولكني لا أستطيع فهمها أو تفسيرها.

في البداية حاولت أن أشكم هذه الرغبة الخفية، وأن احتويها. لكنها كانت

أقوى مني. إذ ملكت علي حسي، فعجزت عن تجاهلها، وشعرت بـأنني لا أملك لها خلافاً. حتى بات عقلي يذعن لها بلا مقاومة، وأمست نفسي تأتمر بأمرها بلا مناقشة.

وسألت أحمد عن وضعه الأمني. فلم يفهم. وقلب شفته السفـلى وقال إنـه لا يعتقد بوجود خطر عليه هنا. وبين رشفة وأخرى اعترف لي بأنه استقال من التنظيم، وأنه مكتئب ويشعر بأنه قد استقال من الحياة كلها. ثم قام ودفع للنـادل وقال دعنـا نتمشى. يممنا شطر الروشة. وكنت طوال الطريق أوسـوس في أذنيه عن الخطر الذي يحيق به. وكان يدخن بلا مبالاة. ويقول إنه لا يعتقد بوجود من يرغب في اغتيالـه. فهو يعيش في صمت وعزلة. وإنه عـلى علاقـة جيدة بفصـائل المقـاومة، والأطـراف الوطنية. وكان يمشي بخطى وئيدة بطيئة، مشية من يتمتع بشعشعة شمس الربيع في يوم عطلة. وقال إنه إذا شعر بخطر ما، فسيطلب من المقاومة أن توفر له الحماية.

هتفت بنبرة من حزه قوله:

ـ فشر.. يحميك غريب وأنا موجود.

هز رأسه وأشعل سيجارة. وقال:

ـ بارك الله بك.

ثم أشار إلى مقهى يطل على البحر. وقال إنه يرغب في مراقبة البحر. فجلسنا إلى طاولة تشرف على البحر. وراح هو يراقب البحر، وأنا أراقبه.

ضاق صدري بهذه اللامبالاة التي تطل من ملامحه. ورأيتني أحذره من الأخطار الخفية المحدقة به. وسمعتني أخترع له إشاعات سمعتهـا عن ضرورة تصفيتـه. وما زلت أشده إلى دائرة الرعب المغناطيسية بقوة جهنمية خفية غامضة، حتى نبتت نظرة قلق أصيل في عينيه. فشعرت بنشوة لا تجارى. نشوة بدائية اهتز لها كياني كله.

سألته عن مكان سكنه. فقال إنه يقيم في شقة صغيرة في زقاق متفرع من شارع الحمـراء. فغشيت على عيني غمـامة سـوداء، وذعرت واستـطار عقلي. هتفت وقـد اجتاحني غضب مفاجىء:

ـ الحمراء.. أي اهمال هذا. أنت تفتقر إلى أي إحساس أمني. الا تعرف أن هذه المنطقة بالتحديد غـابة يتـوارى فيها القتلة المـأجورون، وعمـلاء الاستخبارات العربية والأجنبية، الا تعرف أنها منطقة مفتوحة و...

قاطعني قائلاً إنه يعرف. ولكنه لم يعر هذه المسألة أي اهتمام. بدا وكأن الأمر لا يعنيه. وهنا، بدأت أعتقد أن غريزة الموت في أعماقه غلابة.

أبديت دهشتي وقلت بإصرار لا يقبل الرد:

ـ ينبغي أن تنتقل إلى شقة قرب الجامعة العربية. المنطقة أكثر أمناً هناك.

وسأقيم أنا معك ـ إن لم يكن لديك اعتراض ـ لأقوم بواجبي في حمايتك.

أطرق أحمد طويلاً، وعكف على بطحة العرق، لا تكاد يده تفارق الكأس. ثم ابتسم ابتسامة المتهكم، فانحرفت زاوية فمه في سخرية. ثم التفت نحوي وألقى علي نظرة هادئة وقال:

ـ سأفكر بالأمر. أعدك.

ثم رفع الكأس إلى شفتيه وقال وهو يبتسم تلك الابتسامة المرة:

ـ في صحة الاستقالة من الحياة كلها. في صحة التقاعد عن العيش.

ذهل رأسي بدوار مفاجىء. هذا ليس أحمد الذي عرفته. أحمد الحيوي الملتزم ذا الرسالة.

حين أتى على الكأس الرابعة، بدأ يحكي لي عن فتاة تنتمي إلى فصيل من فصائل المقاومة. قال إنها صديقة؛ صديقة فقط. وأكد على فقط. ثم التفت إلى البحر وقال:

ـ اعتقد أنها ربما.. أقول ربما.. تكون الخيط الوحيد المتبقي الذي يربطني بالحياة.

ملأ رئتيه بالهواء. وقذف ببصره إلى الأفق البعيد. رفع كأسه إلى فمه. فإذاهي فارغة.. لا ماء فيها ولا عرق ولا ثلج. ودهمني إحساس هادر عدائي تجاه هذه «الصديقة فقط» التي لم يقع بصري عليها بعد.

٥

وهكذا بدأت أتحكم بحياة أحمد. أقنعته بضرورة الانتقال إلى شقة في منطقة الجامعة العربية.. فوافق على مضض، ثم انتقل فعلاً. أقنعته بضرورة بقائي معه

وإلى جانبه، فتردد. . لم ترق له الفكرة للوهلة الأولى. لكن الرعب الذي نجحت في شده إلى مداراته السحيقة دفعه إلى الموافقة.

نعم. . الرعب. آه من الرعب حين يتحول إلى هاجس. وهذا أعظم انجازاتي. إذ كان أحمد يهز منكبيه في وجه الخطر. لا يلتفت إليه، ولا يعبأ به. ويستبعد مواجهته.

لكن الرعب جرثومة دقيقة لا ترى بالعين المجردة. أنا أعرفها. حملتها في أنفاسي حين كنت أتحدث إلى أحمد. فانتقلت العدوى. تسللت جرثومة الرعب إلى خياله الذي كان عصياً. وأعصابه المنيعة كحصن وعينيه الكئيبتين الساخرتين وشفتيه اللامباليتين الهازئتين. وتوالدت في جذوع شرايينه الداخلية. وبدأت تنمو وتتكاثر وتتضخم، حتى استولت على كيانه كله. فتوارت لا مبالاته في السحيق العميق المعتم من أعماقه. وأطل الرعب جهاراً نهاراً من عينيه مدشناً انتصاره النهائي الساحق. توالدت جرثومة الرعب وتكاثرت فأنجبت مبالغة في الحذر، وإسرافاً في الوساوس والمخاوف والتهيؤات، وإمعاناً في التحوط، وإفراطاً في الريبة والشك.

وهكذا انفتحت أبواب حصن أحمد مشرعة لاستقبال موكب سيطرتي الكاملة. وسلطان إرادتي الطاغية. فقد بات يشعر إنَّ حياته متعلقة بحمايتي، وإن مصيره يعتمد على قدرتي.

لكن تلك الفتاة الحمقاء، ذات الشعر الأسود القصير كلحظات المتعة، لم تترك لي الميدان دون صراع ضار.

وأحمد حائر متردد بين هذه الفتاة التي تشده نحو مدارات الصراع ومقاومة الجاذبية وتسنده ليقف على قدميه ثانية ويواصل انحيازه للحياة من خلال المقاومة وبين قبضة يدي التي تشده نحو الخوف والأمان والعزلة السوداء وبين يد مغناطيسية داخلية خفية ثالثة تدفع به إلى معانقة الهاوية، والتماس العدم، وولوج مملكة العبث واللاجدوى من باب الخمرة ، وسلم اللامبالاة، وطريق الكآبة، ودهليز النفي، ليتربع نهائياً على عرش اليأس الباهر ، ويرفع صولجان الدمار الذاتي.

٦

بات هاجس الاستيلاء على أحمد والتحكم به سيد خواطري، وطاغية بالي.

وهذا أمر طبيعي، لكن لناس لا يقدرونه. فالناس هناك، أعني الآخرين، يعتبرون أن الذي يهجس بفكرة واحدة مسيطرة دائماً، وهو يقظ، معتوه. فإذا استولى خاطر أو شيء واستحوذ على أحاسيسه كلها وهو في حالة يقظة، حكموا عليه بالجنون وظنوا بعقله الظنون... أما الرجل الشره الذي لا يفكر سوى بالمال والامتلاك، وكيفية مضاعفة مقتنياته، فإن أحداً لا يتهمه بالجنون. هل رأيت الناس يقولون عن رجل طموح مهووس بالشهرة بأنه معتوه؟ لا. أنا سأجيب عنك. قد يعتبرونه مزعجاً، أو ثقيل ظل. لكنهم لا يتهمونه بالجنون. لماذا إذن يا آنستي، تتهمينني بالجنون حين أعترف لك بأن فكرة قتل أحمد المسالم الطيب تستحوذ على عقلي، وتنصب نفسها ملكة طاغية على مشاعري كلها.

إنني حريص على الحياة. لا تضحكي، أنا مثلاً لا أتذوق لحم الحيوان. أي أنني نباتي. لماذا؟ لأنني لا أتصور ذبح حيوان. ماذا؟ تسألين من هو أقرب الأصدقاء إلي؟ أنا أقول لك: سيارتي وآلة التسجيل والفيديو. نعم سيارتي أحب الكائنات إلى قلبي. لا تضحكي، لست أمزح. أنا سيد الرصانة، وصولجان الهيبة. إنني ألمعها يومياً وأنظفها، وأعشقها.

ثم إنني أحب الترتيب. لقد كدت أقتل خادمتي مرة، لأنها لا تضع الأشياء في أماكنها. الترتيب يعني السيطرة على المكان. والدقة في المواعيد تعني السيطرة على الزمن. والأناقة تعني الاستعداد لمواجهة المفاجأة.

واشتعلت الحرب بيني وبين تلك الفتاة «الصديقة فقط». تدعوه إلى مشوار في كورنيش المزرعة، فأعترض بحجج أمنية. تقترح أن يحضرا مهرجاناً خطابياً في قاعة جمال عبد الناصر. فيلتاث عقلي، ويجن جنوني وأصرخ:

- حمايته مستحيلة في القاعات المزدحمة.

وأعترض أيضاً على صالات السينما. في عتمة السينما.. حتى سوبرمان نفسه لا يستطيع أن يحميه.

كان يستمع إليّ حيناً فيرد دعوتها رداً مؤدباً هيناً. ويستمع إليها أحياناً فيعرض عني بأذنه، ويشيح بوجهه ويخرج دون كلمة وداع. كأنما يود أن يشعرني أنه مل وصايتي.

وأنا كنت أريد أن يكون ظلي.. فقط. ما كنت أرغب في قتله.. لا. كنت

أرغب في السيطرة على تفاصيل حياته. لماذا تسألين؟ لا أدري. قلت لك لا أدري؟ رغبة غامرة لا تفسير لها، تسيطر علي وتدفعني للسيطرة عليه.

للانتقام من أبيه؟ ولكن لماذا؟ للاستمتاع برؤية الدكتور محني الهامة لأول مرة ؟ للتلذذ برؤية دمعة تترقرق في عينيه؟.. ولكن كيف؟ هذا الدافع لم يكن واضحاً أيضاً. للانتقام من أيام انهياري في السجن؟ لا أدري! هل أنا سادي؟ مازوشي؟ سادي مازوشي في آن؟ لا تكثري من الأسئلة. لقد استأجرت أذنيك لا لسانك. انصتي إليّ فقط.

لكن سيلفيا لم تسأل. كانت تتنحنح فقط. ولم تنصت، لأنها صماء. والأنوار خافته. وشارب كاتم الصوت كث ويحجب شفته العليا. وهي تقرأ الكلمات. تقرأ حركة الشفتين. لكن شفته العليا خفية. وسيلفيا لا تقرأ إلا نصف كلمات، ونصف عبارات. لأن يوسف ذا المسدس الكاتم للصوت لا يمتلك سوى نصف فم.

شاربه يغطي النصف الأعلى. ويوسف لا يعرف أنها صماء. ولا يعرف أن صوته لا يصل إلى أذنيها. لا.. لا يعرف أن صوته مكتوم.

العزلة

١

الخميس

المرأة . . .

لم يكن هذا الطبيب اليافع صاحب متجر مثل ذلك الرجل البدين الذي تقدم لخطبتي ، ولم يكن صاحب عزوة مثل ذلـك الرجـل شبه الأمي الـذي أرسل مشـايخ ووجهاء البلد إلى أبي يطلبون يدي .

كان صاحب حلم كبير.

قبل أن يطلب يدي ، طلب قلبي . فأعطيت .

دلف إلى غرفتي وقال بامتعاض :

ـ أين قلمي ؟

كنت أحيك الصوف وأحصي القطب . خربطني . رفعت رأسي وقلت محتجة إنه خربطني . فعاد يسأل عن القلم . قال لا بد إنَّ الصغيرة أخذته . أين الصغيرة؟ عدت أحصي القطب . وأنبأته أنهم سيصادرون ما يكتب . . فلماذا يبحث عن القلم؟

أورقت في عينيـه تلك النظرة المفعمـة بالحيـاة وحدق إلي ، كمن يقـول «وعلى الرغم من ذلك سأكتب» . ثم خرج ونادى على الصغيرة .

خرج وترك النظرة الخضراء التي أورقت في عينيه تتسلل إلى ذاكرتي. تستحضر ذكرى إلمامي لأول مرة بعيادته. كأن نظرته هذه يد عنيدة تطلب المستحيل في ترميم اطلال ذاكرتي.

سعيت إلى عيادته ترافقني صديقتي إبنة جيراننا. دخلت إلى غرفته وحيدة. كان يراجع ملف المريض الذي خرج لتوه من غرفة الفحص. لم يرفع رأسه. لم ينظر إلي. وقفت أتأمل جبهته العريضة بارتباك. رفع عينيه دون أن يرفع رأسه. ثم انتفض فجأة كمن بوغت بظهور معجزة أمام عينيه. لم أفهم سر تلك الدهشة الألقة التي اشتعلت في عينيه. لكنه سرعان ما تمالك نفسه. وقال بصوت كله ثقة:

- أهلاً.. الاسم؟

قلت:

- مريم.

أشار بيده اليَّ أن اجلسي. فجلست على مقعد خشبي قديم مجاور لمكتبة.

سأل:

- تأتين لأول مرة أليس كذلك؟

أومأت برأسي بالإيجاب. فتح لي ملفاً وراح يدون.

ثم رفع رأسه وقال:

- مريم ماذا؟

قلت بتلعثم لا أفهمه:

- مريم القيمري.

انتظرت أن يسألني عن صلة قرابة تربطني بزاهد القيمري، أخي وصديقه. لكنه لم يسأل. نهض من وراء مكتبه وقال بصوت خشن:

- مم تشكين؟

كان يرمقني بنظرة مبهمة ذات مغزى استعصى على فهمي. أخبرته إنني أشكو من وجع في رأسي، واضطراب في معدتي. أومأ لي أن أستلقي على سرير الفحص.

فحصني بدقة. ثم أومأ لي أن أنهض . في تلك اللحظة، لمحت تلك النظرة ، نظرة ألق شريد، تلتمع في عينيه .

قال وهو يعود ليجلس إلى مكتبه :

ـ عليك أن ترددي على العيادة كل أسبوع كي أتابع حالتك. أعتقد أنك مصابة بمرض قد يصبح خطيراً إذا لم نعالجه في وقت مبكر . . وبسرعة وانتظام .

هالني ما سمعت. وأحسست بقشعريرة حادة تسري في جسدي . كتب لي وصفة، ناولني إياها وأخبرني بصوت جاد أن علاجه المنتظم الأسبوعي لي ضروري .

قال :

ـ إنها مسألة حياة أو موت .

امتقع وجهي وخرجت من الغرفة منسرقة القوى . أرتعش مثل ورقة شجرة في خريف عاصف توشك على السقوط . أخذتني صديقتي من يدي وسألت بقلق :

ـ مالك؟

أخبرتها بما أنبأني به الطبيب . فكذبت أذنيها وقالت باستهجان : إننا جئنا إلى عيادته لنراه . وإننا اخترعنا أمر وجع الرأس والمعدة كمبرر وغطاء .

وكنت أعرف ذلك . ألم أقف أنا وراء هذا الاقتراح الخبيث؟ مشينا في الشارع صامتتين . أنا واجمة مأخوذة، وهي مطرقة تفكر . بغتة توقفت صديقتي عن المشي وأطلقت ضحكة مجلجلة، سرعان ما كتمتها خوفاً من أن يظن المارة بها الظنون . التفت إليها بعينين متسائلتين وفتحت فمي لأسأل، لكن الصدمة تخطفت الكلام من بين شفتي . قالت وهي تكتم ضحكها بيدها :

ـ الخبيث . . الملعون . . لا بد أنه اكتشف لعبتنا . . فرد بلعبة أكثر خبثاً .

لم أقتنع باستنتاجها الخيالي هذا . واستبعدت هذا التأويل تماماً .

غالبت صديقتي ضحكة أخرى، لكن الضحكة غلبتها وانفلتت ترن في فضاء الشارع . فالتفت شيخ جليل ورمقنا بنظرة زاجرة . لم تلتفت صديقتي اليه . وعنّ لها فتأبطت ذراعي وقادتني في اتجاه معاكس لاتجاه بيتنا . دون أن تعير احتجاجي انتباهاً . قالت إنها سترافقني إلى طبيب آخر . ورأت في هذا الحل حسماً قاطعاً للمسألة .

وراهنت على أن الطبيب الآخر سيخرج ، بعد فحصي، بنتيجة تعزز استنتاجها وتثبت فرضيتها.

استأنست لهذا الاقتراح. وعرجنا على عيادة طبيب آخر. قلت ونحن نرتقي درج العيادة:

- لن نخسر شيئاً.

قالت الصديقة وهي تبتسم لنفسها:

- وسيطمئن قلبك الخفاق.

فزجرتها.

أكد لي الطبيب بعد فحص دقيق أنني لا أعاني من أي مرض. قال إن صحتي مثل الحديد. وأضاف: الحمد لله. خرجت وأنبأت صديقتي. فبدا من ملامح وجهها أنها شامتة. قالت:

- ألم أقل لك؟

وأطلقت ضحكة مجلجلة أخرى.

مشينا في الشارع وأنا أرتعش حنقاً وفرحاً.

وصديقتي تردد:

- يا إلهي كم هو شيطان وملعون.

لكن حنقي وغيظي من لعبته غلب فرحي بنتائج الفحص الثاني، وبرغبة الدكتور في رؤيتي.

أدركت أنه لجأ إلى هذه الحيلة ليراني أسبوعياً. ومشيت يدي في يد صديقتي، بالي في قبضة الحنق، شعري في أصابع الريح.

ونشوة سرية مقنعة تقرع باب مشاعري، وأتردد.. ولا أفتح.

أقبل الختيار، أطل وجهه حانقاً محتقناً وهتف بعصبية:

- الصغيرة تقول إنها لم تأخذ القلم.

ولاحظت أن نظرة الألق التي كانت مورقة في عينيه قد ذوت.

فتش الدولاب وقال بامتعاض دون أن يلتفت إلي:

- لو كان ألبوم الصور هو الذي ضاع.. لنبشت الدنيا عليه. أما قلمي..

فطنت إلى ما يريد أن يقول. من عادته أن يقول الكلام مواربة ومداورة. كان يريد أن يقول إنني أتعلق بالماضي. وإن المسافة بين ألبوم صور الماضي، والقلم الذي يصور به ما سيحدث في القرن الحادي والعشرين.. هي المسافة التي تفصل بيننا.

المسافة بعيدة نائية، على الرغم من التصاق سريرينا.

بعد أن عقدنا القران، قال لي وهو يبتسم:

- لماذا لم تخبريني بأنك اكتشفت لعبتي بعد أن فحصتك للمرة الأولى.

لم أضحك بصوت مرتفع. ضحكت عيناي. قلت أرد على ملعنته بملعنة مضادة:

- ولماذا لم تعترف لي أنك اكتشفت كوني امرأة، منذ مشينا أنا وأنت وأخي لأول مرة؟

٢

دلف الملازم إلى بيته، فاستقبلته زوجته بوجه كئيب واتقد في عينيها ومض وحشي. بدا متعباً منقبضاً، أوصد الباب ولم يقل لها مساء الخير. غاضت الابتسامة على شفتيها وقالت:

- سأعد لك العشاء.

تداعى على كنبة كابية في صالة البيت الصغير. وأشعل سيجارة. ثم نهض وسعى نحو التلفاز. تناول جهاز التحكم الصغير وعاد إلى الكنبة. ضغط على أحد الأزرار فتوهجت شاشة التلفاز وظهرت المذيعة السمراء. لم يضغط على الزر الخاص بالصوت. تأمل شفتي المذيعة المكتنزتين وهما تتحركان حركات لا معنى لها. فاشتعلت غرائزه.

خلع حذاءه وراح ينفذ دخان سيجارته في فضاء الغرفة. أطلت زوجته وهي تحمل صينية. قالت:

- إخلع جواربك.. رائحتها فظيعة.

قال دون أن يلتفت إليها:

- ركبنا أجهزة تصوير سرية في بيت الختيار.. سوف يموت بعد ستة أشهر بانفجار في الدماغ.

ولم يخلع جوربه.

انحنت زوجته. وضعت الصينية على الطاولة. التفتت إليه ورمقته بنظرة مستنكرة وقالت:

- استغفر الله العظيم. وهل أنت عزرائيل حتى تعرف متى سيموت الرجل. إنثنى الملازم وخلع جوربه وقذف به بعيداً. غمغم:

- أجهزة التصوير السرية مزروعة في معظم البيوت. بيوت أعضاء العصبة أيضاً. لعلهم زرعوا بيتنا أيضاً بمثل هذه الأجهزة.

جلست المرأة إلى جانبه وقالت وهي تمسد شعره:

- مستحيل. منذ مدة وهذا الوسواس يستحوذ عليك.

ثم أشارت إلى بطنها المنتفخ وسألته:

- ماذا سنسميه؟

قال:

- أنا زرعت الأجهزة في بيت الختيار.. بنفسي.

٣

الخميس

المرأة...

منذ أيام والختيار لا يجلس إلى طاولة الكتابة. لعله قلق على أحمد. لاحظ الملازم

أن الختيار انقطع عن الكتـابة. فـأدرك أنه انتهى من المخـطوطة. فسعى إلى صيـده الثمين!

قرع الملازم على الباب. فتحت له. قال بليـاقة إنـه يرغب في تفتيش البيت. ترامى صوت الختيار من المطبخ. قال:

- لا داعي لذلك. المخطوطة في المكتب. افتح الدرج الأول إلى اليمين.

توترت عروق رقبة الملازم، وقال إنه يريد مصادرة أشياء أخرى أيضاً. وأضاف إنه يحقد على الكلب. ثم التفت إليّ وحذرني قائلاً بلهجة لا تخلو من وعيد:

- إن لم تنجحوا في تربيته وتأديبه.. أدبته أنا.

فالت الصغيرة بتحد كأنما تعيره بجهله:

- إنها كلبة.

انتشر رجال الأمن في البيت: صادروا المخطوطة، ثم الكتب والأقلام والدفاتر وأوراقاً بيضاء، وأشرطة تسجيل.. ثم آلة التسجيل نفسها. صادروا كل ما لهعلاقة بالكلمة واللغة حتى «الأقلام الرصاص»... لكنهم تركوا المسدس ورصاصاته.

سعى الملازم إلى غرفة المكتبة بخطى وئيدة عندما سمع صراخ الصغيرة. كانت تضم القرآن الكريم إلى صدرها كأنما تحاول أن تخفيه في قفصها الصدري. أمر الملازم رجاله أن يستثنوا الكتاب من المصادرة. ثم التفت نحوي وقال بصوت محايد لا يخلو من نبرة ضجر:

- ألبوم الصور لو سمحتم.

وقفت في وجهه مباشرة، اعترض طريقه. التفت الى الختيار. كانت عيناي قد استصتا كل قطرة ألم في نفسي. خرج صوتي كأنه لم يخرج حين قلت مستغيثة بـذلك العجز الجبار الذي يلف الختيار:

- إنهم يصادرون ذاكرتنا.. ماضينا.

طوقني الختيار بذراعه، كأنما يريد أن يقول لي:

- بوسعك أن تعتمدي علي.

رمق الختيار الملازم بنظرة طويلة متفكـرة ثم فكر في أنهم لا يـريدون مصـادرة

الماضي، بل المستقبل. قال للملازم بصوت خشن:

ـ خذ الصور التي أظهر فيها إلى جانب الجنرال. أليس هذا مبتغاك. بوسعكم أن تمسحوا وجهي عن الصور.

نظر الملازم في عيني الختيار مباشرة، وترك العرق يتصبب على جبينه دون أن يجففه. قال بلهجة توحي بالملل:

ـ ألبوم الصور كله لو سمحت.

أغمضت أم أحمد عينيها مغيظة وقالت إنها لا تفهم. ولما قرأت صمماً في ملامح الملازم. اقترحت حلاً وسطاً:

ـ خذوا كل الصور. . باستثناء صور أحمد.

لكن الملازم الذي لا يجفف عرقه، شرح لها أنه ينفذ تعليماته بدقة. استسلمت أم أحمد ليأس سلبي مريح وقالت إنها تود أن تحتفظ بصورة واحدة فقط. صورة أحمد وهو في الشهر الأول من عمره. وأحضرت الألبوم، وعادت إلى الصالة. ثم فتحت صفحة معينة. وتقدمت من الملازم. فرأى الملازم طفلاً ذهبي الشعر عارياً تماماً، وعورته بارزة. فأغمض عينيه وأشاح على استحياء. قال من بين أسنانه:

ـ كل الصور.

شد الختيار على ذراع أم أحمد. وأومأ لها بأن تناوله الألبوم كله. فاعترضت أم أحمد وقالت إن شعر أحمد قد تحول مؤخراً من أشقر فاتح إلى كستنائي داكن. وإنها ترغب في الاحتفاظ بهذه الصورة، حتى تثبت بالدليل القاطع لمن سيتزوجها أحمد في المستقبل. . أنه كان أشقر الشعر.

كان العرق يجلل وجه الملازم. ويبدو أنه لم يعد يحتمله أكثر. إذا باتت حبات العرق تتسلل إلى عينيه. . وتضرم فيهما حريقاً لا نار له. مال نحو الختيار واعترف بصوت هامس، أنه نسي منديله في بيته. وسأل الختيار إن كان يستطيع أن يعيره منديلاً.

سأله الختيار بجدية ورزانة:

ـ منديل ورق؟

فشال الملازم رأسه سلباً. وأفهم الختيار أنه معتاد على مناديل القماش. فقال

الختيار إنه يملك واحداً في جيبه، لكنه متسخ، لأنه يتمخط فيه. فاستسلم الملازم للأمر الواقع، ووافق على أن يستخدم منديلاً ورقياً.

وعندما تناول ألبوم الصور بيده اليمنى. جفف عرقه بمنديل الورق الذي حمله بيده اليسرى. ثم ابتسم وعلق قائلاً:

ـ تأكدوا أن الهاتف لن يتعطل اليوم.

٤

رن جرس الهاتف. فهرعت أم أحمد اليه، وهتفت:

ـ لا بد أنه أحمد.

وجاءت نبوءتها في محلها. إذ كان أحمد يتحدث من بيروت. كذب أحمد على أمه ألف كذبة وكذبة واحدة. ومنها مثلاً أنه يشتغل في شركة محترمة، وأن راتبه ممتاز. وأن الأوضاع الأمنية هادئة، وأنه يرسم بين الحين والآخر لوحات، يرى فيها النقاد تميزاً.

ثم جاء دور الأم لتكذب ألف كذبة بيضاء وأخرى سوداء. فقالت إنهم مرتاحون هنا. وإن الطقس جميل. وإنهم بخير ما دام هو بخير. وإن «الجماعة» يعاملونهم معاملة مثلى.. الخ الخ..

وكان الختيار يدور حول نفسه بعصبية ويغمغم:

ـ جاء دوري.. جاء دوري.

وجاء دوره، فحكى لأحمد أنه توقف عن التدخين تماماً، وأنه يلعب الرياضة. لأنه مصمم على أن يعيش ليرى القرن الحادي والعشرين. وسأله عن حاله، والوضع الأمني في لبنان. فقال أحمد إنّ يوسف الطويل يوفر له حماية كاملة. وقال إن يوسف يقول إنه يعرفك، وإنه كان يشاطرك زنزانتك أيام العهد البائد.

تجهم وجه الختيار، كأنما صعقته هذه الحقيقة، وأمسكت فمه في لسانه. فناول السماعة إلى الصغيرة، وتداعى مأخوذاً على كنبة صغيرة. قالت الصغيرة وهي ترفع صوتها:

ـ آلو أهلاً أحمد . .

وقالت الأم لابنتها لا تثرثري كثيراً، كي لا يدفع أحمد مبلغاً كبيراً مقابل المكالمة . وقالت الصغيرة إنها خائفة على كلبتها مشمشة التي يشبه رأسها حبة المشمش . واقترحت على أحمد أن يأخذها في رحلة بحرية إلى جزر هاواي بعد أن يطلق سراحهم .

وقال الأب بعصبية :

ـ قولي له أن لا يثق بيوسف هذا .

وقالت الأم وهي تقبض على سماعة الهاتف وتجذبها بقوة لتحررها من يد الصغيرة :

ـ جاء دوري الآن .

قالت الصغيرة باحتجاج وهي تتشبث بالسماعة :

ـ دورك خلص .

قال أحمد :

ـ سوف أدور بك العالم في ثمانين يوماً حين تخرجين .

وقالت الأم بعد أن نجحت في انتزاع السماعة من يد ابنتها :

ـ أنت الصوت الوحيد الذي يربطنا بهذا العالم يا حبيبي . الصوت الوحيد .

اتصل دائماً . . لأنك الصلة الوحيدة . . الصوت الوحيد .

وقال الختيار في نفسه وهو يقضم أظافره بعصبية :

ـ الصوت الوحيد يسكن مع كاتم صوت . . ولا يعرف ذلك .

ولكزت الصغيرة أمها . وطلبت منها أن تسأله إن كانت له صديقة .

وأشعل الختيار سيجارة وأشعلها بيد ترتعش . ثم نهض وراح يذرع غرف البيت مطرقاً متفكراً، يضرب أخماساً بأسداس . ويعقد كفيه وراء ظهره الذي أوشك على الانحناء .

واستحضر وجه يوسف الغض ذا العينين السوداوين البراقتين الحالمتين. كان الختيار يحتل الزنزانة وحده، إلى أن دفعوا بيوسف إليها. صرخ يوسف بحماسة متهوِّرةٍ:

- سوف يأتي يوم الحساب قريباً.

ثم التفت بوجهه المتجهم وعينيه البراقتين إلى الختيار. وراح الرجلان يتبادلان النظرات في صمت حذر. كأنّ كلاً منهما يدرس الآخر ويتفحصه بعناية. كان وجه الفتى محتقناً والغضب في ملامحه يوحي بالتهور. وكان الختيار يتأمله بهدوء عجيب. قال الختيار (في تلك الأيام كان شاباً) وهو يومىء برأسه إلى الفراش الآخر:

- تفضل.

قالها وكأنه يدعوه لدخول بيته الخاص.

كان الختيار يرقد على فراشه ، يتوسد ذراعه، يشبك ساقاً على ساق، يحدق إلى سقف الغرفة ويدخن بهدوء. (أيام العهد البائد كانوا يسمحون للمعتقلين بالتدخين).

راح الفتى يدور في الغرفة بعصبية أسد جائع يدور في قفصه مضطرباً مزمجراً.

كانت ألزنزانة ضيقة، ولا تفصل بين الفراشين سوى خطوات ثلاث. شخص الفتى ببصره نحو النافذة الضيقة العالية. كأنما يراقب الضوء الشحيح الهابط بتثاقل كهل بليد على الجدار.

إنتفض الفتى، والتفت إلى الدكتور مراد وهتف بنبرة خطابية:

- سوف أعلمهم - عندما ينادونني للتحقيق أن كل وسائلهم المتقدمة تكنولوجيا، وأجهزة التعذيب الالكترونية، لن تنال من إيماني ، لن تهزم هذا.

وأشار إلى قلبه. ولم يفهم الدكتور «هذا». لكنه أدرك أن الشاب يتأجج حماسة. سأل الشاب الدكتور عن اسمه، فأجابه دون أن يتحرك عن الفراش. قال الشاب بنزق:

- أنا العبد الفقير يوسف الطويل.

استوى الدكتور جالساً. والتفت إلى يوسف ، حدق إليه بعينين ثابتتين ونصحه

بألا يستفز المحقق. قال: أنا نزيل سجون وصاحب خبرة، أما أنت فغض وطري وبلا تجربة. حين يستدعونك حافظ على أعصابك ولا تتهور.

أطلق يوسف ضحكة ساخرة مجلجلة واتهم الدكتور بالتدجين. دجّنوك، قال بلهجة لا تخلو من ازدراء. وقال إنه يتحرق شوقاً لمقابلة المحقق. ليثبت للعالم أجمع أنه عصي على الانكسار. وأن ايمانه لا ينال منه التعذيب، ولا الكهرباء، ولا أجهزة القمع التكنولوجية المتقدمة.

نفخ الدكتور دخان سيجارته في فضاء الزنزانة وقال بهدوء دون أن يلتفت:

ـ لن يعذبوك بأجهزة تكنولوجية معقدة.. اطمئن.

(في العهد البائد، لم يكن علم الأجهزة قد تطور إلى هذه المرحلة، ولم يصلوا إلى فنون التعذيب التي أبدع في حقلها أصحاب العهد الجديد.. أصحاب الدكتور).

لكن الشاب ظل يدور في الزنزانة الضيقة مثل أسد هائج. الحماسة تتأجج في صدره، والحقد يحوله إلى قنبلة موقوتة. وكان يردد بين الحين والآخر:

ـ لو بتروا يدي، فلن أعترف. إذا استلوا لساني بقابض من الحديد فاستأصلوه.. لن أستنكر.

ابتسم الدكتور بهدوء وقال:

ـ وكيف ستعترف إذا استأصلوا لسانك؟

فلم يستسغ الشاب المتأجج حماسة هذه الدعابة، وقطب.

٥

ظل يوسف أسبوعاً كاملاً يدور في الزنزانة بخطوات توحي بالخيلاء والكبرياء، وهو ينتظر بفارغ الصبر أن ينادوه للتحقيق. لكن أحداً لم يناده.

والدكتور يقرأ ويقرأ ويقرأ، ثم يطوي الكتاب ويلتفت إلى الشاب ويقول ناصحاً: ـ حافظ على أعصابك. قد تطول الضيافة في بيت خالتنا.

كانا نائمين حين أرسل باب الزنزانة صريراً، ثم أطل عسكري ونادى بصوت محايد على يوسف. انتفض يوسف منتصباً. وقال بصوت قوي ثابت:

ـ أنا.

أومأ الجندي أن اتبعني. فاتقدت في عيني يوسف شعلة الفرح والتحدي. ولحق بالعسكري بخطى واثقة ثابتة قوية.

اقتاده العسكري إلى دهليز تحف به الغرف من الجانبين. ثم توقف عند باب غرفة. قرع بابها بلياقة. ثم فتحه ودفع يوسف دفعاً إلى الداخل. كاد يوسف يفقد توازنه ويتعثر، لكنه ترنح ثم تماسك ودخل إلى غرفة المحقق بوجه صارم عنيد، ومشية فيها كبر وخُيلاء وغطرسة. جالت عيناه في الغرفة، فرأى رجلاً يجلس إلى طاولة عادية، عليها أوراق وأضابير ومصباح كهربائي وغبار. أمام الطاولة ثلاثة مقاعد ومنضدة صغيرة. رأى عليها مزهرية ذات أزهار اصطناعية مغبرة، ولم ير صحن سجائر.

حدق المحقق اليه بعينين ذابلتين، وابتسم ابتسامة شاحبة، وسأله:

ـ يوسف الطويل.

هز يوسف رأسه بالإيجاب وتقدم نحو أحد المقاعد وجلس. قال المحقق بصوت يوحي بضجره:

ـ لم أدعك إلى الجلوس. قف رجاء.

انتصب يوسف واقفاً، وجعل يتفحص وجه المحقق وعينيه. كانت عيناه الذابلتان نصف المغمضتين توحيان بأنه غير معني بهذا التحقيق، أو بأنه يشكو من ضجر مرضي. أما وجهه فكان يوحي بلا مبالاة مصطنعة، وهدوء سلبي يبعث على الغيظ.

التفت المحقق إلى العسكري وقال بصوت رفيع وبنبرة من يتثاءب:

ـ مع السلامة..

فخرج العسكري. وما إن أوصد الباب حتى انفجر يوسف في وجه المحقق زاعقاً:

ـ لن أعترف. لن أستنكر. ويوم الحساب قريب.

تطلع المحقق إلى يوسف بعينيه الناعستين الضجرتين وقال بصوت بارد هادىء:

ـ أنت متأكد أن اسمك يوسف الطويل.. لا يوسف الطاووس. لأن مشيتك

توحي بأنك طاووس.

فردد يوسف بصوت ثابت قوي مستفز:

- لن أعترف، ولن استنكر. إنني مؤمن برسالتي السياسية. وأنا فخور بهذا الايمان. تثاءب المحقق تثاؤباً مقصوداً، وغطى فمه بيده. وقال:

- عفواً.

ثم استرخى في مقعده، وشبك ساقاً على ساق. وراح يحدق إلى يوسف بعينين احترفتا صياغة نظرة لامبالاة باردة. مال المحقق بوجهه على كفه وقال بصوت أشبه بتثاؤب رجل مل حديثاً قتله التكرار:

- ومن قال لك أنك متهم بنشاط سياسي؟

جحظت عينا يوسف. وارتبك لأول مرة. تساءل بدهشة عن سبب اعتقاله إذن. حدق المحقق إلى السقف وراح يدور بمقعده دورات كاملة، ثم توقف عن الدوران، وتناول قلم رصاص وراح يعضه. حدق إلى يوسف بعينيه الباردتين اللامباليتين، ولم ينطق بحرف. كان يعذبه بالصمت غموض ابتسامته الهشة. هتف يوسف وقد نفد صبره:

- من حقي إذن أن أعرف سبب اعتقالي. لماذا؟

تجاهل المحقق سؤاله كأنه لم يسمعه. وعاد يدور بمقعده نحو اليمين تارة، ونحو الشمال تارة أخرى. ولكنه لم يرفع عينيه الساخرتين الناعستين عن وجه يوسف. ولم يكف عن قضم قلم الرصاص. بغتة توقف المقعد عن الحركة، ومال المحقق نحو يوسف وقال بصوت سريع مباغت:

- من الذي فعلها معك؟

ارتبك يوسف ولم يفهم. اختلجت عضلة من عضلات وجهه. تساءل بذهول:

- تقصد من الذي نظمني في المجموعة. قلت لك إنني لن أعترف.

هز المحقق رأسه بانتظام وحدج يوسف بنظرة غريبة لو نطقت لقالت:

- على هامان يا فرعون.

لكنه لم يقل على هامان يا فرعون. وإنما قال:

- ما نحن دفناه سوية يا يوسف. آه.. أنت ترغب في أن تلعب دور المناضل الضحية، الشهيد. لا يا سيدي. نحن لا نلعب هنا. لسنا مصنع شهداء وأبطال. أسألك عن الذي فعلها معك.. لا تتغابَ أنت تعرف ما يدور في خلدي.

اضطرب يوسف، وسرت رعشة حادة في جسده. لم يفهم عمّ يتحدث هذا الرجل الذي يتصرف وكأنه يتمنن على الناس باستجوابهم. قال لنفسه وهو يحاول أن يفهم لعبة المحقق: إنه يحاول أنْ يدفعني إلى دائرة غامضة، إلى متاهة الارتباك. قال يوسف بحزم:

- لا أفهم عمّ يتحدث.

خرج المحقق عن هدوئه السلبي المستفز، وقذف قلم الرصاص بوجه يوسف وزعق:

- يعني بالعربي الفصيح من الذي اغتصبك؟ يعني مع من كنت تمارس الشذوذ؟ يعني من الذي كان يفض بكارتك؟ لا.. لا يا سيد يوسف، نحن لم نعتقلك لأسباب سياسية. لا لأنك خطر على أمن المجتمع ولكننا اعتقلناك لأسباب أخلاقية. لأنك خطر على أخلاق المجتمع وقيمه.

وأكد المحقق أن مجتمعنا العربي يتمتع بقيم أخلاقية عريقة، لن نسمح (أي المباحث) بتشويهها.

صعق يوسف. وجد نفسه معقود اللسان، لا ينبس. لم يصدق ما ترامى إلى أذنيه. قرص وجهه ليتأكد أنه لا يرى كابوساً فيما يراه النائم. أُربج عليه فلم يهتد إلى كلمة يقولها.

زعق المحقق:

- ها.. أراك بت أبكم بعد أن كان لسانك لا يكف ولا يستكين.

نظر يوسف بعينين زائغتين خمد الومض فيهما وغمغم:

- غير معقول. غير معقول.

إنتفض المحقق منتصباً وقال:

ـ ما هو غير المعقول.

وأكد له أنه يملك الوثائق والأسماء والمعلومات والاعترافات، التي تؤكد شـذوذ يوسف.

ثم ضغط المحقق على الجرس. فأطل العسكري. أومأ له أن يعيد يوسف إلى الزنزانة. مشى يوسف مشية دجاجة انتزع ريشها. عرق بـارد يتصبب من جبينه ولا يحفل بتجفيفه. ملامح وجهه مسالك الذهول، والألق الشريد فر من عينيه. وحلت في كبريائه رجفة الصدمة فهزته.

عاد إلى الزنزانة محدودب الظهر يهتك الصمت والذهول ملامحه الهالكة.

ابتسم الدكتور وقال في نفسه وهو يتأمل هذا الشاب الذي يوشك أن يتحول إلى حطام:

ـ هؤلاء المتطرفون المتعصبون المبالغون في النزق. يخرجون من الزنزانة والنور في عيونهم. ويعودون من غرفة المحقق مظلمين.

التفت الدكتور إليه وسأله عما جرى . لاذ الفتى بصمت أسود كئيب. رقد على فراشه. فلم يغمض له جفن، وظل يتقلب كأنه على جمر.

٦

عند الفجر استيقظ الختيار مباغتاً. فرأى الشـاب يلكزه لكـزة خفيفة في كتفـه وينتحب. استوى الختيار في فراشه، فـرك عينيه. ثم ربت عـلى رأس يوسـف وقـال مواسياً:

ـ هل عذبوك؟

تهالك يوسف على الأرض وأخذ وجهه بين كفيه. غمغم:

ـ ليتهم فعلوا ذلك؟

عاد الدكتور مراد يربت على رأس الشاب، فانتفض هذا كالملسوع وزعق:

ـ ابتعد عني. ابتعد. .

وواصل نحيبه.

رفع الدكتور مراد يده عن رأس يوسف. وكتم بكفه تثاؤباً ملحاً. سأله بصوت رخيم:

- هل اعترفت؟

نتر الشاب رأسه سلباً. فسأله الدكتور ثانية:

- هل استنكرت؟

غمغم الشاب من بين أصابعه التي تحجب وجهه:

- لا.

حار الدكتور في أمر يوسف. فسأله بنبرة لا تخلو من حدة:

- إذن؟

زعق الشاب الناحب:

- اتهموني بالشذوذ والانحراف الجنسي. سألوني عن...

- ابتسم الدكتور ابتسامة هادئة وقال إنهم يلجأون أحياناً إلى هذه الأساليب لكسر شوكة الشاب المتقد حماسة.

انتفض الشاب واقفاً، لم يكفكف دموعه لكنه صرخ:

- لم يسألوني عن التنظيم.

واندفع نحو جدار الزنزانة كثور هائج وضرب رأسه في الجدار فنفر دم رشق الجدار والأرض وقميص الدكتور. ثم انفتل يوسف واندفع نحو باب الزنزانة وهو يصرخ:

- أريد أن أرى المحقق. أن أعترف.

والتفت إلى الختيار وقال له إنه يبغض قوته، يمقت صلابته، يغبطه ويحبه ويهابه... ويحقد عليه.

أخذوه إلى المحقق. غاب ساعة، ثم عاد يجرجر قدميه. وجهه شاحب صامت صمت الموتى. ألقى عليه الدكتور نظرة جانبية ولكنه لم ينبس. تهالك الشاب على فراشه. وحدق إلى الدكتور. ظلا يتبادلان النظرات ساعة دون أن ينطقا بحرف. بغتة صرخ الشاب:

ـ اعترفت لهم بكل شيء، الأسماء، الخلايـا، القيادات. . لكنهم أصـروا أن تهمتي هي الشذوذ الجنسي.

وعاد يدفن رأسه بين يديه. قال إنهم أخبروه أن الأسماء التي ادعى أن أصحابها هم مسؤولوه في التنظيم هم الذين يفعلون الفعل الشنيـع معه. قـال إنه رجـاهم أن يسألوه أي سؤال عن «المجموعة» وأنه سيعترف بكل شيء. فركلوه بقوة ما بين ساقيه. وقالوا وهم يتغامزون ويتبادلون نظرات مستهترة هازئة إنه شاذ حقير، وأنهم لن يحولوه إلى بطل. قالوا إن وظيفتهم لا علاقة لها بتحويل الشاذ إلى بطل. قـال إنه أخبـرهم والصدمة تقرع جسده ورأسـه فتهزهمـا هزاً، أن مـلاحقة الشـاذين من مهام شـرطة الآداب، لا المباحث. فعادوا إلى ركله ما بين ساقيه. وقالوا إنهم ليسوا بحاجة إلى من يشرح لهم مهامهم.

وقال إنه شعر برغبة في التبول. وأنه أنبأهم عن حاجته هذه. فسألوه بدهشة إن كان يملك عضواً لهـذا الغرض. وضحـك أحدهم. وقبض عـلى ذراعه. وأشـار إلى مرحاض للسيدات. ثم دفعه نحوه. وقال يوسف إنه لم يلحق حاله. وبال في بنطاله. فتقززوا وأمروا العسكري أن يقتاد هذا الولد البوال على عقبيه إلى زنزانته.

وتنهد يوسف. ثم سأل الدكتور إن كان يحمل سيجارة. ناوله الدكتور سيجارة. أخذها يوسف بيد مرتعشة. قال الدكتور وهو يشعل له السيجارة إن هذه الأسـاليب معهودة. ونصحه بأن يصمد. وأن يدرك أنها لعبة لتحطيمه.

وهمس بقوة:

ـ لا تمنحهم هذه الفرصة.

وبدا أن يوسف لا يسمع كلمة واحـدة. كان يـدخن ونظراتـه شاردة. فقبض الدكتور على ذراعية وهزه بعنف. وصرخ في وجهه. لكن وجهه بدا مثل حجر أصم.

ودخل العسكري مرة أخرى. وصفع يوسف وزعق قائلاً إن التدخين ممنـوع. واقتاده إلى غرفة التحقيق. وأخذ منه السيجارة. . ودخنها.

وعاد يوسف متهلل الأسارير. قال للدكتور كأنما يبشره بنبأ عظيم:

ـ أخيراً صدقوا أنني منتم إلى المجموعة.

وقال إنهم بدأوا يسألونـه عن التنظيم، وهـو يؤكد لهم بـالحقائق والأرقـام أنه

مناضل لا شاذاً ولا منحرفاً. وأخيراً، قال وهو يضحك بهستيرية، اقتنعوا. وانصرفوا عن اتهامي بالشذوذ. واعتذروا، قالوا خربطنا في الاسم. ظنناك شخصاً آخر.

وأدرك الدكتور في تلك اللحظة أن هذا الشاب قد استحال إلى قنبلة موقوتة. قد تنفجر في أية لحظة، قد تعطبه وتمزقه، وقد تعطب آخرين وتمزقهم. وحين بدأ الدكتور يكتب بعود ثقاب على مناديل الورق كتيبه السياسي، جحظت عينا يوسف. وزعق قائلاً إنه يمقت قوة الدكتور، ويهابها. ثم غمغم:

- لكنني معجب.. مغرم.. بك. كيف تفسر هذا؟

واصل الدكتور الكتابة. ولم يفسر.

٧

الخميس

المرأة...

جسدان تحت سقف واحد. تجمعهما الجدران، ويُفرق بينهما الوقت. صوت أحمد يناديني إلى الرجع البعيد. إلى ذلك البيت الصغير الذي ولد فيه. إلى رائحة «البودرة» التي كنت أرشها على مؤخرته خوفاً من تقرح الجلد. إلى طاقيته الصوفيّة ومعطفه الأحمر، حين كنت أقتاده إلى الجبال القريبة لنقطف زهرة أو زهرتين. كنت أريده أن يتعرف إلى الكائنات الجميلة في هذا العالم البشع، ليشب محصناً منيعاً.

أشير بيدي إلى فراشة تمر خطفاً، يصفق بيديه الصغيرتين فرحاً. ويقول:

- أريدها.. أريدها.

أقول إنها ذاهبة إلى أبيها وأمها. فيقطّب وتتشرد نظراته. يخفت نبض الفرح في عينيه. ويقول:

- وأنا أريد أن أذهب إلى أبي. أين أبي؟

حلم لا عقل فيه ولا قاعدة. خطفة رؤيا بين رغبة في الكر نحو قبة السماء، وجاذبية تفر بنا نحو هاوية الواقع.

لولا صوته الذي يطرق مسامعنا بين حجر من الزمن وحجر آخر، لحسبت أن

الماضي حلم، ووهم لم يكن. لولا صوته لكان الماضي هشاً كغبار يتهيأ للتلاشي لحظة ارتطامه بجدران هذا اليوم الأبدي وشرنقته. الحاضر حجر ضخم انحدر من سماء حلم مقنع وحط على صدورنا. والمستقبل مهرج سمج يحمل سلماً بالعرض، فلا يدخل بابنا.

بابنا ضيق، والبيت حاضر محنط من الأزل إلى الأبد. لولا صوته، لولا صوته لولا صوته!!

الختيار يراقب المجنونة في الحديقة. إنها تنمو بسرعة، كأنما تتواطأ معنا. يربط الختيار عروقها بقضبان الواجهة الزجاجية لتشكل ساتراً. يا لحبه للحياة.

رفع الختيار رأسه، وانتصب واقفاً. وضع يده على ظهره وتأوه. كان الألم ينغرز في عضلات ظهره. قالت المرأة من وراء النافذة:

ـ لولا صوت أحمد..

لم يسمع.

قال لها من وراء الجهة الأخرى للزجاج:

ـ الصوت الوحيد.. يسكن مع كاتم صوت.

ولم تسمع.

ما كان يريدها أن تسمع.

٨

دلف الملازم إلى غرفته الصغيرة المجاورة لسور الحديقة من الخارج، وراح يقلب صفحات الألبوم،كان يتمعن في كل صورة بفضول ثم سئم فراح يمر ببصره عليها بسرعة. فجأة جمدت يده عند إحدى الصفحات، واقتنصت عينه صورة محددة. فجحظت. كانت الصورة قد التقطت على شاطىء بحر أو بحيرة.

وظهرت في الصورة نساء يلبسن السراويل، وأخريات لا يحجب مفاتنهن سوى ملابس السباحة الرقيقة ذات القطعتين. وتوقفت عينه مبحلقة عند إحدى اللواتي يلبسن لباس السباحة ذا القطعتين. تفحص وجهها، ضيق ما بين عينيه، واتسعت حدقتاه، وبحلق وقد تحلب فمه. والتاث صوابه حين أدرك أنها زوجة أحد السفراء

الأجانب المعروفين. كانت تجلس على الرمال، ساقاها مُمدّدتان، وجذعها مائل يتكىء على مرفقها المغروس في الرمل. كانت تلتفت وقد جاءت بابتسامة على المصور - أو المصورة على الأغلب - ومنحت شعرها لريح عابثة.

خفق قلب الملازم خفقات متلاحقة، ودهمه شعور زاوج بين الخوف واللذة. راح يتأمل هذا الجسد البض، يمسحه مسحاً بعينيه المبحلقتين. بدأ بأصابع القدمين، ثم لحست نظراته النهمة هذا الاتساق الباهر الذاهب نحو الورك، بايقاع يجسد كمال الضراوة الأليفة. حدق إلى الساق المترددة بين الرقود والانحناء. ثم مسحت عيناه البطن، ولمست هشاشة حليبية. ثم مس بنظراته الجائعة نهدين يكادان يفران من غطائهما الضيق. أحسهما يشيحان ويحاولان الفرار. يومئان ويوشكان أن ينفلتا كأنهما يتأهبان، يستنفران، يتواطآن على جاذبية الجسد، ويحاولان فراراً.

وجمدت عينه عند العنق واستدارة الكتفين. عنق عاجي يهتك مقاييس الارتفاع ويرتفع عليها، يشب كما نار سئمت جذورها وثارت نافرة نحو فضاء يناديها. على شفتيها مس رعشة توشك أن تتحول إلى ابتسامة. وسمع كلاماً تتأهب عيناها لتقولاه فتحصده وجوه الآخرين، ويخطفه الصمت، قبل أن يكون.

تنحنح عسكري عند باب الغرفة فانتفض الملازم، ودس الصورة بحركة سريعة في جيب سترته، وانسحبت ألوان الحياة من وجهه، فالتفت شاحباً مربكاً وزعق بانفعال أفزع العسكري وأثار دهشته:

- نعم.. خير..

قال العسكري الواجم متلعثماً:

- الكلبة سيدي.

احتد الملازم واهتز جسده كله وهو يصرخ:

- ما بالها؟

غمغم العسكري:

- عضت أحد العساكر سيدي في ساقه. ودمه ينزف.. و...

اندفع الملازم اندفاعة مقاتل عقد العزم على الكر دون الفر، أحس بلهب ساطع يشتعل في دمه. كان أمامه خياران لا ثالث لهما كي يملك أعصابه، ويستعيد

رشده: أن يستحم بماء بارد أو أن يقتل الكلبة. دلف إلى حديقة البيت. كانت مشمشة تختفي وراء الأشجار المجاورة للسور الغربي. تقدم الملازم منها بخطوات عسكرية ثابتة وشرر غيظ الحرمان المكتوم يتطاير من عينيه. رمقته «مشمشمة» بنظرة جانبية مستطلعة، لكنها لم تحاول الفرار. ظلت ترقد وترمقه بهذه النظرة المستطلعة المطمئنة، كأنها تثق بقدرة الأسرة على حمايتها. أو كأنها تطمئن إلى عقل الملازم الراجح عادة.

وقف الملازم فوق رأسها وكانت قشعريرة حادة تهز جسده كله وتنفض كيانه. سحب مسدسه، وبيد مرتعشة راجفة أطلق بين عينيها كل رصاصات مخزنه. وهو يعض على أسنانه بغيظ، ويتخيل تلك المرأة الشهية، التي خطف الهواء شعرها، وأضرمت عيناها النار في دمائه.

تنفس الملازم الصعداء. واجتاحه ذلك الشعور الحميم الذي يجتاح من انتهى من ممارسة الحب بنجاح وتفوق. ثم عاد يجر ساقية جراً إلى غرفته. كان العسكر قد تحلقوا عند البوابة. وخرج الختيار وزوجته والصغيرة، يتلفتون بذعر ووجوه مستطلعة. أخذ الملازم العسكري الجريح إلى ركن في غرفته. ثم تلفت، ولما تأكد من خلوتهما همس في أذنه:

ـ أنت أعزب؟

قال العسكري الجريح بانضباط:

ـ نعم سيدي.

سأله الملازم هامساً:

ـ ساكن وحدك.

قال الملازم:

ـ نعم سيدي.

ربت الملازم على كتف العسكري، وتكلف ابتسامة وقال:

ـ لقد انتقمت لك من الكلبة ابنة الكلب. أريد خدمة بالمقابل. أريد أن استخدم شقتك لساعة من الزمن لأسباب أمنية.. مهمة أمنية. تهللت أسارير العيسكري، وقال بحماسة:

ـ أنا تحت أمرك سيدي.

ولم يدر العسكري أن المهمة الأمنية هي أن يمارس الملازم الحب مع زوجته دون خوف من جهاز تصوير خفي. ولم يدر العسكري أن قتل مشمشة كان انتقاماً من كمال المرأة العصية، لا ثأراً لجرح بائس في ساق نحيلة.

٩

استيقظ الدكتور مراد والمدينة ما تزال مجللة بثوب الظلام. أحس لأول مرة في حياته بأن الظلام يرتدي قلبه وعينيه. فكر في سيلفيا التي كتب له أحمد عنها مرة. واستحضر ما كتبه «.. من صلب عينيها تخرج نظرات قارئة جارحة تهتك سترة الصمت». سيلفيا التي تبصر الصوت يتشكل مفردة مفردة، سيلفيا التي تسمع الصمت. سيلفيا التي تبصر الصوت، وتسمع الصمت، سيلفيا هذه.. هي التي اتصلت وأنبأته بأن أحمد قد اختفى.. ربما اختطف.

دلف إلى الحمام. أشعل الضوء، غسل وجهه، ثم حدق إلى المرآة. لن يحمل أحد بعد الآن اسمه. انقطع الصوت الأخير الذي كان يربطهم بالحياة وبالمستقبل. الصوت الذي كان يقول متكلفاً التفاؤل «لا تقلق يا أبي، غداً سأتزوج من سلافة وننجب ولداً يحمل اسمك. «نسميه مراد إبراهيم.»

ارتعشت السماعة في يد الختيار. ضحك وسالت دموع من عينيه وهو يقول:

ـ لا. سيعتقلونه في كل مطار، ويستجوبونه في كل ميناء. وإلى أن يكتشفوا أنه ليس أنا «.. يكون السبت قد دخل في مؤخرة اليهودي..».

تلاشى الصوت الأخير. خطفه كاتم الأصوات. لينتزعوا جهاز الهاتف. ما عاد له مبرر بعد الآن. اقترب بوجهه من المرآة، وقال في نفسه. لن يرث أحد هذين الحاجبين العجيبين المائلين كالهمزة. ولن يرث أحد هذا الومض الملعون في العينين. ولن يرث أحد هذا القدر المفجع الذي يمشي في شراييني، ويعشش في خلاياي، ويلون كريات دمي. لو تزوج وأنجبت زوجته حفيداً قبل أن أودع هذا العالم، كي أرحل مطمئناً من أن مراداً الصغير قد ولد. ها هو يحبو الآن، غداً سوف يمشي ويترنح ويتعثر. ثم يقف كالسنديانة.

حلق ذقنه كالعادة. ولم يعد غطاء أنبوب معجون الحلاقة إلى مكانه. ثم فتح

معجون الأسنان. غسل أسنانه، وترك الأنبوب ـ كالعادة ـ مفتوحاً. ولم يغسل فرشاة الحلاقة بعد استعمالها.

جفف وجهه بمنشفة بليلة. لم يمسح وجهه ـ لأول مرة ـ بالكالونيا. عاد إلى الغرفة. إرتدى ملابسه. البنطال والسترة، لكنه ـ لأول مرة ـ لم يتناول ربطة عنق.

وقف عند رأس زوجته. أصغى إلى تنفسها المنتظم.

رآها تبتسم ابتسامة باهتة. قال لنفسه وهو يبتسم ابتسامة حزينة: إنها تحلم. لعلها تحلم بأحمد. أغبطها لأنها لا تعرف. ولن تعرف. ستظل صورة أحمد في ذاكرتها تشدها إلى زوايا الماضي الحميمة.

سعى إلى غرفة الصغيرة. وسادتها لا تزال مبللة بالدموع. تحسسها. فتحت الصغيرة عينيها. همست وهي بين النوم واليقظة:

ـ قتلوا مشمشمة. هل سيقتلونك؟إذا أفرجوا عنا سأذهب مع أحمد إلى السينما لأرى نجلاء فتحي. سيشتري لي ساندويش هامبرغر مع كاتش ـ آب. وأيس كريم.. هو وعدني في الهاتف. وسيشتري لي كلباً آخر.

فوجىء الختيار ببساطة أحلام هذه الفتاة التي تكاد تلج مرحلة المراهقة. مسح بيده المعروفة على جبينها وخرج.

سعى إلى غرفة مكتبه أشعل الضوء الجانبي، تناول الأوراق والأقلام وبدأ يكتب الفصل الأخير. كتب سطرين أو ثلاثة. ثم نهض، وفتح درج مكتبه. تناول المسدس، قلبه بين يديه، كان بارداً محايداً. نظر إلى الواجهة الزجاجية. كانت «المجنونة» تحجبه عن عيون الحرس. تشب كنار مجنونة طائشة، تتسلق القضبان، تتعربش الواجهة الزجاجية، ترتديها. وأزهارها مثل بقع من الدم الطازج تتوهج بدموية حارة جهنمية.

وضع الختيار المسدس على الطولة، ثم تناول من الدرج نفسه علبه سجائر. منذ سنة كاملة أقلع عن التدخين.. ليعيش ويرى القرن الحادي والعشرين.

أطرق طويلاً في صمت مهيب. لا يأتي بحركة ولا بصوت. ثم أعاد المسدس إلى الدرج.

نهض من وراء الطاولة، مشى نحو المطبخ ومشت معه ظلال الصمت

والوحشة. دلف إلى المطبخ ودلف معه الصمت الموحش. أعد ركوة قهوة. راقب سطحها وهو يتململ ويكاد يفور.

بدأ الصباح الفضي يشعل في أحداق البيت المطفأة شعشعات خجولة مترددة. خرج الختيار إلى الحديقة وراح يحتسي قهوته بصمت.

هتف أحد رجال الأمن من وراء السور:

- صباح الخير.

فأومأ الختيار بيده. أطل الملازم بوجه شاحب من فوق الجدار. ثم دلف إلى الحديقة. استأذن الختيار في أن يجلس معه. هز الختيار رأسه بالايجاب. قال الملازم إن سكرتير الجنرال اتصل، وقال إن الجنرال يشعر باللوعة والحزن عندما سمع بنبأ اختطاف أحمد وإنه يدين الأيدي الآثمة التي تقف وراء اختطافه. وهو يود بهذه المناسبة أن يؤكد لك أن أجهزته، أي أجهزتنا، لا علاقة لها بالأمر أبداً. وأنه يعتقد أن جهاز دولة شقيقة معادية هو الذي نفذ العملية، كي يعتقد الملأ الأعظم من الناس أننا فعلناها.

كان الملازم يلهث. عيناه منتفختان، لكن شعره مسرح بعناية فائقة. التفت الختيار اليه وسأل بصوت خافت:

- تشرب قهوة؟

وقام الختيار وسعى إلى المطبخ بخطى وئيدة. ثم عاد وهو يحمل فنجاناً فارغاً. سكب القهوة في الفنجان. فشكره الملازم، وقال بلباقة وصوت خاشع:

- إن شاء الله . . شدة وتزول. لعل القوى السوداء تطلق سراحه.

رشف الختيار من قهوته بصمت. وقال للملازم إنه لا يرغب في أن تعلم زوجته وابنته بالحادث. هز الملازم رأسه في حيرة وقال إنهما ستخمنان إنَّ شيئاً خطيراً قد حدث له. لأنه لن يتصل بالتلفون بعد الآن. لأن صوته انقطع.

رد الدكتور مصححاً:

- لأن صوته انكتم.

سقطت ذقن الملازم على صدره. وحدق إلى الأرض في وجوم. أنفاس صباح

بكر تتردد على وجهيهما المشيحين، أصوات خافتة تستيقظ وتنبثق من مكامن الصمت المظلم.

التفت الختيار نحو الملازم. وسأله عن سبب قتله للكلبة. سأله بهدوء، بصوت استقال من الانفعال إلى الأبد. ظهرت البغتة في وجه الملازم وارتعش فنجان القهوة في يده. غمغم متلعثماً.

- حاولت أن أدربها، أن أتواصل معها فتأبت. أصفر لها كي تأتي فتهرب.

أصرخ فيها أن تغرب عن وجهي فتقبل نحوي كالومض.

قال الختيار وهو يسلط عليه نظرة اخترقت اعماقه:

- أنت تحب التحكم في الكائنات الحية.. اليس كذلك؟ تريدها أن تكون ظلاً وامتداداً لك، وتريد منها أن ترغب في أن تكون هذا الامتداد والظل.

احتقن وجه الملازم. ولم ينبس. وضع فنجان القهوة على منضدة صغيرة تفصل بينه وبين الختيار. واستخرج سيجارة وسأل الختيار إن كان يرغب في التدخين. فنتر الختيار رأسه سلباً. وقال إنه انقطع عن التدخين كي يرى القرن الحادي والعشرين.

أشعل الملازم سيجارته وتململ في مقعده وتنحنح. فتح فمه ليتكلم ثم لم يقل. نفث دخان سيجارته في الفضاء بقوة كأنما يستجمع قواه. قال إن الجنرال قد قرر أن يُسمح للسيدة أم أحمد أن تسافر لحضور جنازة المرحوم أحمد هذا في حالة التأكد من مقتله. ونفث الملازم دخان سيجارته مرة أخرى. وقال إنه يسعده و شرفه نقل هذا النبأ المفرح للختيار. أطرق الختيار ولم يعلق. انبسطت عضلات وجه الملازم المتشنجة واعترف للختيار بأنه ليس وحشاً. قال ذلك بحرج بالغ. وأقام الدليل على طيبته وحبه للحياة والناس بأن قال إنه لا يدخن، مثلاً، في الغرفة التي تلعب فيها طفلته، كي لا يؤثر الدخان على رئتيها.

اعتدل الختيار في جلسته، واتكأ بظهره على مسند المقعد. مد بصره فارتطم بأسوار الحديقة. سأل الملازم إن كان يرغب في فنجان قهوة آخر. فهز الملازم منكبيه، وقال أنه يفضل القهوة المرة، وهذه القهوة وسط. وأكد أنه لا يحب القهوة الوسط.

حدق الختيار إلى السماء وقال مخاطباً الملازم:

- لن تعرف كيف تجتاز الشوارع المزدحمة. ستصدمها سيارة ما.

جحظت عينا الملازم. وأطلت حيرة قلقة فيهما. لم يفهم. سأل:

- من؟

قال الختيار وهو يحدق إلى السماء كأنه يخاطب ملائكة خفية:

- زوجتي.. منذ زمن بعيد بعيد لم تعبر شارعاً. نسيت عبور الشوارع. سكب قهوة في فنجانه، ورفعه إلى شفتيه وقال إنَّ فن عبور الشوارع عادة وليس غريزة. وأكد للملازم الذاهل أن العادة - أية عادة - قد تضمحل وتتلاشى مع الزمن إذا ما انقطعت.

خفض الملازم بصره وشبك أصابعه بحركة عصبية وقال إنه لا خوف على زوجته من عبور الشوارع، لأن سيارة حكومية خاصة سوف تنقلها من بوابة البيت الخارجية إلى المطار. ولكنه يتمنى أن يفرج الخاطفون عن أحمد. فلا تضطر السيدة إلى السفر.. وتركه هنا وحيداً.

تفحص الختيار وجه الملازم الشاب بعينين لم يخب وميضهما لحظة. وقال إنَّه لا يدري ما الحكمة في الافراج المؤقت عن زوجته وحدها، وتساءل:

- هل ستسمحون لابنتي أن تسافر معها؟

تفحص الملازم الأرض كأنما يبحث عن قطعة نقود سقطت من جيبه وضاعت في العشب. هز رأسه كأنما يقول:

- أنت سيد العارفين. ربما نسمح.. ربما لا نسمح. لم يبت أحد «من فوق» بهذا الأمر بعد.

لكنه لاذ بالصمت، ولم يقل. فقال الختيار نيابة عنه:

- تحتفظون بها رهينة؟ الا أكفيكم أنا؟

وهنا احتقن وجه الملازم بغتة، وانتفخت أوداجه. قال إنَّه «سيبط الدمل» وأمره إلى الله. قال إنه سيقول كلاماً لا يقال. لكنه سيقوله. قال بصوت عصبي متوتر فيه نبرة خوف:

هل عدت إلى كتابة مخطوطة ثانية؟

التفت إلى الختيار وانتظر أن يقول له هذا:

ـ نعم.

لكنه لم يقل، ولم يهز رأسه . وظل يسلط عينيه على وجه الملازم. قال الملازم إنّ اللبيب من الاشارة يفهم. ثم تساءل:

ـ ألم نصادر المخطوطة الأولى، الأوراق البيضاء، الأقلام، أشرطة التسجيل؟

ونظر الملازم إلى الختيار مرة أخرى ـ ينتظر هزَّة رأس موافقة.. بلاْ جدوى. فأضاف.

ـ ألم نصادر البوم الصور، والكتب والمراجع؟ ألم نفتش البيت بدقة، وننبشه نبشاً؟

وهنا هز الختيار رأسه موافقاً. فابتسم الملازم وتنفس الصعداء. وقال:

ـ ألم نبق لك على المسدس بكامل عتاده؟

لم يهز الختيار رأسه، ولم يرفع عينيه عن الملازم. رفع الملازم منكبيه، وقلب شفته السفلى. ثم نهض وهو يردد ان اللبيب من الاشارة يفهم.

نهض الختيار بتثاقل، دلف إلى البيت النائم المزدحم بالأحلام والكوابيس. سعى إلى المطبخ . طوق الثلاجة بذراعيه وزحزحها بصعوبة. ثم رفعها قليلاً. انثنى ووضع تحت طرفها صحن سجائر فضيّاً كبيراً. ثم انبطح على الأرض، ومد يده فتناول أوراقاً بيضاء وقلماً. ثم سحب صحن السجائر فعاد طرف الثلاجة السفلي الأمامي يحط على الأرض. حمل الأوراق والقلم وسعى نحو غرفة مكتبه. جلس إلى المكتب وراح يكتب بخط عريض عنوان كتابه الجديد:

«الانحياز إلى الحياة».

ثم مال على الدرج ففتحه. استخرج المسدس، تناوله وسحب مخزنه، ثم مضى إلى الحمام. قذف بالرصاصات إلى المرحاض، ولم يسحب سلسلة السيفون ـ كعادته ـ ثم عاد إلى طاولته وأوراقه وقلمه. وفكر في أنهم سيصادرون مخطوطته الجديدة هذه أيضاً.

فابتسم.

* * *

١٠

اجتازت سيارة الملازم شوارع طينيةً، وأزقة شعبيـة مظلمـة انتشر عليها أولاد يتراشقون بالحجارة. وكان بعضهم يدخن. فاجأتهم السيارة الفخمة نسبياً. فتراكضوا خلفها. توترت أعصاب الملازم، وكـاد يوقف السيارة ويندفع ليلاحق الأولاد. لكنه شكم نفسه في اللحظة المناسبة. وأرسل شتيمة تصف أحد أعضاء الجسـد البشري، غلب زوجته ضحك طارىء، وعندمـا التفت إليها بـوجهه المحتقن، أخفت وجههـا بكفيها، وسألت عن سبب مجيئهما إلى هذا الحي الشعبي.

تلقى الملازم سؤالها بـوجه عـابس، وقال إنـه لا يستطيـع أن يجيبها عـلى هذا السؤال. ثم مال وهمس في أذنها قائلاً إنَّه لا يستبعد وجود جهاز تنصت في سيارتـه. رفعت زوجته حاجبيها فيها يشبه الشك. واستبعدت هذا الاحتمال. وقالت:

- الستم أنتم أنفسكم الذين تركبونهذه الأجهزة.

فقال إنَّ الأجهزة عديدة. وإنَّ كل جهاز يراقب الجهاز الآخر.

وكانت الزوجة تمضغ اللبان وتعبث به بلسانها، مما أصدر صوتاً مزعجاً متصلاً ضاعف من توتر أعصاب زوجها.

توقفت السيارة عند باب بيت العسكري، فتحلق الأولاد حول السيارة.

وتسلقت مجموعة منهم سطحها. وصرخ أحدهم:

- محمود ليس هنا.

شعر الملازم بالحرج وقال إنَّه يعرف أن محموداً ليس هنا. ولكنه من أقاربه، وقد جاء من الريف ليزوره. وقال إن محموداً يعلم بذلـك وإنه ترك له مفتـاح البيت على حافة النافذة.

وثب الولد على صندوق السيارة. وقال إن محموداً لا يترك مفتـاحه عـلى حافـة النافذة أبداً. ولكنه يتركه أحياناً فوق إطار الباب.

دس الملازم يده في جيبه وهو يغالب حنقه، ثم استخرج المفتاح وأخفاه في كفه. ثم تقدم من الباب، وتكلف رفع يده إلى الاطار العلوي. والتفت إلى الصبي وقال:

- صحيح. وجدته فوق.

ربت الصبي على صندوق السيارة. وسأل صبي آخر عن نوع السيارة الفخمة. وقال صبي ثالث إن محموداً لم يترك مفتاحه اليوم فوق إطار الباب، والدليل أنه هو شخصياً، ارتقى كتف صبي آخر، قبل ساعات، ومرر يده على الأطار العلوي فلم يمس سوى الغبار.

داري الملازم تفاقم غيظه بابتسامة واهية. ثم قبض على ذراع زوجته، وفتح الباب. دخل هو أولاً ثم تبعته زوجته. فاستقبل انفاهما رائحة رطوبة وعفن. سألت الزوجة زوجها عن السبب الغامض الذي يكمن وراء مجيئهما إلى هذا البيت ذي الرائحة العفنة والجيران الفضوليين.

لكن الملازم لم يلتفت إليها. وراح يبحث عن زر الكهرباء. تحسس الجدران فعثر عليه وأشعل النور. ثم سارع بضم زوجته إلى صدره، وقال إنه مشتاق إلى تضاريسها وكنوزها. وإنه لا يستطيع أن يمارس معها الحب في البيت، لأن حدسه، وهو صاحب حدس خارق، يقول له إن بيتهم مزروع بالآت تصوير خفية. وعندما طوق زوجته بذراعيه وهم بأن يقبل عنقها، أطلقت زوجته صيحة فزع، وتراجعت كأنما طعنت، ثم أسندت رأسها إلى كفها وأغمضت عينيها. والتفت الزوج ذاهلاً فرأى الأولاد يطلون برؤوسهم من النوافذ. واكتشف أن الستائر ليست سوى صفحات جرائد عتيقة ملصقة دون عناية على النوافذ.

كان الأولاد يطلون من بين مانشيتات الصحف التي تتحدث عن الجنرال، وأخبار استقباله للوفود الرسمية والشعبية، وتلقيه برقيات الولاء، ويبحلقون بعيون تكاد تتهاوى من محاجرها. عيون.. عيون.. عيون.. فوق أخبار الجنرال، تحت أخبار الحروب، من يمين اعلانات الصفحة الأولى، من شمال الافتتاحيات الخطابية.

عاد الزوجان إلى بيتهما صامتين منهكين. رقد الملازم بكامل ملابسه العسكرية على السرير، وراح يدخن وطلب إلى زوجته أن تبدل ملابسها في الحمام. لأن الحمام، عادة، لا يراقب بأجهزة التصوير السرية..

بعد أن نفذت الزوجة تعليماته خرجت من الحمام وهي ترفل في قميص نوم أحمر، يكشف عن معظم كنوز جسدها المهملة. وفكر الملازم في أن الآثار الثمينة والكنوز التي تكشف عنها حفريات الأفراد، هي ملك للدولة بالضرورة.

اضطجعت زوجته إلى جانبه، وهمست في أذنه:

ـ هل تستطيع آلات التصوير هذه أن تصور ما يحدث في الظلام؟

نفث دخان سيجارته بضيق وقال باقتضاب:

- طبعاً.

إمتدت يدها متسللة إلى صدره. قالت بغنج مفتعل:

- وهل تعتقد أن كل الناس لا يمارسون الحب خوفاً من هذه الآلات؟

أحس بنبض الرغبة يخفق في دمه. فسحق سيجارته في صحن سجائر على منضدة مجاورة للسرير. استوى جالساً حائراً متردداً. بغتة ترامى صراخ الطفل من الغرفة الأخرى. فانتشله من حيرته، وحسم أمره. التفت إلى زوجته وأمرها:

- احضريه.

أحضرته الزوجة، وقالت بلهجة ذات مغزى إن الطفل لا يريد أن يرضع. انحنى الملازم، ومد يده نحو المنضدة. تناول علبة السجائر. أشعل سيجارة، ونهض.

سألته المرأة بصوت الفجيعة:

- إلى أين؟

تقدم نحو الباب دون أن يلتفت. وقال إنه لا يستطيع أن يدخن بوجود الطفل في الغرفة نفسها. وقف بباب الغرفة مولياً ظهره لزوجته. وقال إنَّه يحب طفله، وإنه حريص على رئتيه وإنَّه سيدخن السيجارة في الحمام وأنه يؤمن بالمحافظة على صحة أجيال المستقبل لأسباب وطنية وانسانية.

وحين دلف إلى الحمام، أغلق الباب بالمفتاح، ولم يفتح النافذة الصغيرة.

١١

الخميس

الصغيرة...

النهار نوم عميق عار من الأحداث، نسعى بين المطبخ والصالة وغرفة النوم والحمام. أقف في المطبخ لا أدري ماذا أريد. أدور حول نفسي. أفتح الثلاجة. أتناول تفاحة. آكل نصفها بلا شهية، ثم ألقي بالنصف الآخر إلى سلة القمامة.

أنتظر الليل.

أبي يكتب كتابه الذي سيصادر. وأمي تحيك الصوف. وأنا أقول لها ـ هل تسمحين لي باستعارة «النفري»؟

تهز رأسها بالإيجاب، دون أن ترفع عينيها عن الصوف. أحمل الكتاب، وأدلف إلى غرفتي. أقرأ صفحات. ثم أرقد على السرير. أمي تجلس قرب الهاتف، تنتظر الرنين السحري الذي يسبق صوت أحمد. الصوت القادم من البعيد حيث العواصم، والشوارع، والناس، والروائح، وواجهات المحلات. . الحياة.

أحدق إلى السقف أنتظر الليل. ثم تخطفني أحلام اليقظة.

النهار عار من الأحداث. الليل جميل مرعب مزدحم بالأحلام. أحلام تقع فيها حوادث حقيقية. منامات مسكونة بالشخوص الواقعية، والمدن العريقة، وحوارات غريبة مخيفة وطريفة.

النهار خواء. الليل امتلاء. اليقظة ملل، النوم مثير.

المنام محور الأحداث الحقيقية الوحيدة.

كل ما أراه خارج المنام وهم وحلم، الجنود في الخارج أشباح، الأسوار التي تخنق بيتنا سراب، الشمس في الخارج كذبة كبرى.

قرع أبي باب غرفتي. وأطل بوجهه النحيل. قال:

ـ استعدي. . لندرس الفيزياء.

أكره الفيزياء. الأصوات التي تترامى من الخارج إلى مسامعنا صدى كاذب. الأصوات التي أسمعها في المنام، حين أجلس وحدي وأذهب بعيداً في مدارات لا حدود لها. . هي الأصوات الواضحة المفهومة. . فقط.

تقلبت في الفراش حتى استقرت مرة أخرى على ظهرها. ابتسمت ابتسامة باهتة غامضة وقالت لنفسها بصوت خافت:

ـ أحمد ما عاد يتصل. لا لأن الملازم قطع الخط كما تقول أمي. لا . . أحمد لا يتصل لأنه غير موجود. إنه وهم محض. ما كان ولن يكون.

منامات حبيسة

١

استفقت على وقع المطر، وكان الختيار وأمي نائمين.. والمطر شخير الليل. وعيون رجال الأمن قد استحالت إلى كشافات تشع منها أضواء نارية. سحبت غطاء السرير نحو رأسي، وعدت إلى المنام.

الأرض تنبض، أوراق الشجر تخفق، ظلال الأضواء الخارجية تروح وتجيء كاللهاث.

ثلاثتنا نحلم. أبي يحلم بالعصبة. وأمي بالجذور والجبال السبعة، وأنا بتلك الغابات النائية وأصواتها الهامسة.

٢

نتحلق حول مائدة الطعام. أبي يأكل ويحدق إلى الحائط. بصر أمي في الصحن لكنها لا تراه. وأنا أصغي إلى صوت الشوك والسكاكين الرتيب. وقدمي تقرع الأرض بايقاع راقص.. لا يسمعه أحد.

٣

الثلاثة يرقدون على السرير العريض.. ويرون فيما يراه النائم عوالم عصية على عين الملازم التي تبحلق من وراء السور. أوراق شجرة الليمون تبحلق من خلف

الزجاج. لكن العيون والمراصد والأقمار الصناعية، لم تنجح بعد في رصد ما يقع في منام الناس من أحداث ووقائع.

رياح ساخنة تدور حول البيت، كأنما تعرض عضلاتها.

ووقع أقدام الحراس وخطاهم تروح وتجيء.

لكن ما وقع في أحلام النائمين الثلاثة ظل عصياً على الرصد.

سمعت المرأة فيما يسمعه النائم طرقاً على الباب. والساعة ضاربة في مفازة الليل، والعتمة ممعنة في قفار الوقت. أورقت دهشة المرأة قلقاً أخضر كالنعناع في عينيها. ثم لكزت الدكتور مراد فتقلب وتقلب ثم استقر على بطنه، ودفن رأسه تحت الوسادة.

انزلقت من السرير يائسة، ومشت حافية تجر قدميها صوب الباب جراً. والخطى تعاندها، فتتباطأ وتبوز وتحرد ثم تفر راجعة، فتركض المرأة وراء خطاها، وتعيدها بالقوة والجر إلى الباب.

والقبضة الغامضة تطرق الباب طرقاً قوياً منتظماً، كأنها يد بدوية لا تكل من ضرب المهباش، أو نبض قلب طاش صوابه فراح يخفق خفقان أمواج بحر صاخبة رتيبة أزلية عنيفة.

فتحت المرأة الباب بيد مرتعشة، لكنها أبقته موارباً. وقالت بصوت النوم الأجش:

- من؟

ترامى إلى مسامعها صوت الملازم الخشن:

- أنا.

سألته بامتعاض وقد عرفت صوته:

- من تعني بأنا؟

قال بنبرة من نفد صبره:

- أنا الملازم يا أم أحمد.

وسعت من فتحة الباب وأطلت برأسها. فتخطفته ريح طريّـة، ورمت العتمـة منديلها الأسود عليه. قال الملازم:

ـ معي جماعة يـريدون أن يتفـرجوا عـلى البيت. إذا ما في مـانع. لأنهم قـد يستأجرونه. جحظت عينا المرأة. وقالت إنها والدكتور وابنتها يقطنان في البيت.

نفخ الملازم وقال:

ـ اللهم يـطولك يـا روح. الستم أنتم الذين تـطالبـون بـالـرحيـل عن هـذا البيت.. ومغادرته.

قالت المرأة وهي تحدق إليه بنظرة مستريبة:

ـ هل صدر أمر بالافراج عنا؟

شال الملازم رأسه سلباً. ورفعت المرأة عينين مستطلعتين وقـالت إنها لا تفهم إذن لماذا يريد أصحابه أن يستأجروا البيت.. بينما «نحن» نقطن فيه.

نفخ الملازم وأكد لها، وهو يحاول أن يتمالك أعصابه، أن البيت ملك للدولة. وأن الدولة حرة تفعل ما تشاء، متى تشاء، كيفما تشاء.

ثم دفع الباب بيده القوية، فتراجعت المرأة جزعة. دلف الملازم وتبعه البرد ثم الريح والغبار، ثم الأسرة التي قد تستأجر البيت. رجل مديد القامة، وامرأة بدينة، وفتاة شاحبة. قالوا لأم أحمد وهم يبتسمون:

ـ مساء الخير. نأسف للازعاج.

وجدت أم أحمد نفسها ترحب بهم. وتقول:

ـ أبداً، أهلاً وسهلاً. هل أشعل لكم النور؟

فأشار الملازم بيده إشـارة سلبية، وقـال إنّه يحمـل مصباحـاً كشافـاً صغيراً ذا بطارية. سلط الملازم ضوء المصباح على مدخل البيت، وأكد للأسرة الغريبة أن هذا الممر هو مدخل البيت. وأثنى عليه قائلاً إنّه ممر ضيق، وبالتالي فهو مناسب وآمن. لم تفهم أم أحمد منطق المـلازم. لكنها لم تنبس. ثم دلف المـلازم إلى الصالـة، فمشت الأسـرة الغريبـة والريـح والعتمة وأم أحمـد في ظله.. ثم تبعهم الغبار. كـان ضوء المصباح اليدوي يتجلى هنا ثم يختفي ليبعث هناك. ثم يظهر فجأة على الجدار، ليخفق

بعد لحظة على الكنبات فيمسحها بنوره. ثم يثب كبهلوان فإذا به يورق على البساط كعين واسعة من النور تحدق إلى السقف.

ترامى صوت الملازم من ركن ما:

ـ هذه هي الصالة كما هو واضح. وهي صالة مريحة. شعشعة الشمس تكر عليها صباحاً من النوافذ الغربية، وتفر مساء من الأبواب الشرقية وما بين الصباح والمساء يبقى أثاث الصالة يسبح في هذه الشعشعة الدافئة. وتبقى الشعشعة الدافئة هذه متوهجة طوال اليوم، وتظل حبيسة هذه الصالة إلى أن يأتي المساء. ويفتح لها بابه الرمادي، فتخرج الشعشعة شاحبة ممتقعة. وهكذا بوسعكم أن تروا بأم أعينكم كم أن الجو هنا ـ في هذه الصالة ـ صحي وحيوي.

وكانت عين المصباح اليدوي تلعب على الجدران. تنط هنا، لتثب هناك. تكر لتفر، تظهر لتختفي. ثم تتعربش الكنبات، وتتدحرج على البساط. وكادت المرأة تسأل الملازم، إن كان هذا النور المشاغب قد مسح قدميه عند عتبه الباب قبل الدخول والنطنطة على الكنبات والسجاد والستائر. لكنها لم تفعل.

وكان رب العائلة الجديدة يشبك يديه وراء ظهره ويتلفت ملاحقاً بعينيه حزمة ضوء المصباح، وهو يغمغم:

ـ همم.. همم.. لا بأس.

ثم يلتفت إلى زوجته ويسألها رأيها. فلا يبصر وجهها ولا يسمع جوابها. لأن الليل معتم، والعتمة سوداء، ونور المصباح على السقف يحدق مثل عين وقحة.

وانفتل الملازم يسبقه ضوء المصباح، وتتبعه الأسرة والريح والظلال وأم أحمد إلى غرفة الصغيرة. لكن أم أحمد سبقتهم جميعاً، وسبقت الضوء. ووقفت أمام باب غرفة الصغيرة تعترض طريقهم، وتقول إن ابنتها نائمة، وإنها تحلم، وإنها لا ترتدي سوى قميص نوم، ولا يغطيها سوى شرشف شفاف.

أظلم وجه الملازم في وسط الظلام. وقال إنهم يريدون إلقاء نظرة سريعة خاطفة فقط. دفع الملازم أم أحمد بيده دفعة هينة فمالت عن طريقه وكادت تفقد توازنها. لكن الجدار سارع إلى مساندتها.

دلف الملازم والأسرة والهواء إلى غرفة الصغيرة. وكانت الصغيرة تتقلب في عالم المنام الجميل المزدحم بالأحداث والحكايات والعجائب. قال الملازم:

ـ هذه غرفة نوم.

وكانت الصغيرة تتكلم في منامها. فقالت بصوت مرتفع:

ـ وبوسعنا السباحة في أمواج الضوء.

التفت الملازم نحوها وقد جحظت عيناه. وقال:

ـ ماذا؟ آسف لازعاجك.

لكنه عاجز عن إزعاجها، لأنها نائمة، ولا تحكي معه. وتلعب في مدارات عوالم الحلم الرحبة، بينما بقي هو معزولاً منبوذاً طريداً خارج الحلم. وقالت السيدة الغريبة:

ـ يبدو أننا أزعجنا الصغيرة . . لنخرج.

فقالت الصغيرة:

ـ هذه الظلال هنا هي الليل، وتلك الانقاض هناك هي الماضي. هل نلعب في الليل أم في الماضي؟

وقال الملازم متجاهلاً أقوالها العصية على الفهم:

ـ هذه النافذة هنا غربية. وهذه الأرض مفروشة بالموكيت. هل تحبون الموكيت أم تفضلون السجاد. بوسعنا أن ننتزع الموكيت إن شئتم.

قالت الفتاة الصغيرة الغريبة:

ـ أريد أن العب مع الفتاة النائمة بين أنقاض الماضي.

وزجرتها أمها. فبكت وقالت:

ـ لماذا النوافذ عارية بلا ستائر.

قطب الملازم. وأشار بيده إلى الغرفة الأخرى ثم غمغم:

ـ تفضلوا، اتبعوني.

قبل أن يتفضلوا ويتبعوه، هتفت الصغيرة النائمة:

ـ انظروا ماذا وجدت بين الأنقاض.

التفتت الفتاة الأخرى الغريبة وقالت بفضول:

- ماذا؟

قالت الصغيرة النائمة:

- يا أبي لماذا لا تفتح هذه الزجاجة التي قذف بها البحر إلى هذه الأنقاض.. ولم تنكسر.. ربما كان فيها مارد محبوس. ماذا؟ أنت لا تشرب؟ هذه ليست زجاجة خمرة.. ولا بيبسي. إنها زجاجة مسحورة فيها مدن وأحلام وهواء.. أكسجين ملون.

أمسك الرجل الغريب بيد الفتاة وحاول أن يجرها إلى خارج الغرفة، ليتبعا الملازم والضوء وزوجته والمرأة، والهواء البارد. لكن ابنته حررت يدها من قبضته بحركة عنيفة وصرخت في الفتاة النائمة:

- لا تدخلي إلى الزجاجة.

لكن الفتاة النائمة في سريرها تسللت إلى الزجاجة. لأن والدها قال إن الزجاجة تحتوي أكسجيناً ملوناً كالبلالين، وأحلاماً وردية، وخبزاً من العسل. وانزلقت الصغيرة في عنق الزجاجة وانحبست هناك. حدقت إلى الأسفل فإذا الزجاجة تزدحم بمصائد ذباب. حدقت إلى أعلى ورفعت ذراعيها، فإذا بالزجاجة مقفلة بسدادة من الفلين. قرعت بيدها الصغيرة على زجاج الزجاجة. التفت أبوها. وقال إنه لا يستطيع انتزاع السدادة.. لأنه لا يشرب الخمرة. فهتفت الصغيرة يائسة. إن هذه الزجاجة ليست زجاجة خمر، وإنما هي ساعة رملية. وإن الرمل سيئدها مع مرور الزمن. نعم، سيئدها حية. وكان أبوها يبحلق من خلف زجاج عنق الزجاجة الملتوي.

وانهمر الرمل مع الدقائق.. كالمطر. والصغيرة لا تتقن السباحة. والرمل ينبض وقتاً، وقلبها يهرم.

وحين دلف الجميع إلى غرفة النوم الرئيسة. سمعوا شخيراً متصلاً. التفتوا مبحلقين فإذا الختيار نائم يحلم. وقالت المرأة الغريبة بارتباك:

- الرجل نائم.. لنخرج.

ثم التفتت إلى أم أحمد واعتذرت على الازعاج. في تلك اللحظة فتح الختيار عينيه. وقال وكأنه كان يستمع إلى الحديث الدائر:

ـ أبداً . . أبداً . . تفضلوا . . منذ زمن لم يزرنا أحد .

وقال : إن هذه الزيارة حدث فريد أشبه بصرخة في بئر منذورة للصمت. وراح يتفلسف قائلاً إن هذه الزيارة تبعث شهية الدفء في جسد رجل جلس منذ الأزل في الصقيع . . فنسي الحرارة. وقال إنهم يقضون النهار في صمت وانتظار. ينتظرون مكالمة أحمد يوم الخميس. وينتظرون مجيء عامل القمامة كل مساء. قال إن الزبال يصرخ من الخارج عادة متسائلاً إن كان لدينا زبالة. فبادرنا من فورنا إلى مناداته. نقول نحن الثلاثة معاً :

ـ نعم . . عندنا زبالة. تفضل .

وليس عندنا زبالة ولا من يحزنون. ولكننا نريد أن نرى شخصاً ـ أي شخص ـ يدخل علينا. نتوق لسماع قبضة تقرع علينا الباب. ننتظر رنين الجرس يوماً وأسبوعاً وشهراً. لكنّ أحداً لا يأتي .

ونركض، أنا أقذف الصحف الحديثة والقديمة في سلة القمامة الفارغة، وأم أحمد تهرع إلى دولابها فتتناول حذاءها القديم وترميه في سلة الزبالة. والصغيرة ترتبك. تركض إلى الصالة. تبحث عن شيء ترميه في سلة الزبالة بلا جدوى. فتتراجع إلى غرفتها لاهثة مندفعة. تدور عيناها في أنحاء الغرفة. تبصر دميتها ذات الشعر الأشقر الطويل التي تقول «واء» إذا انحنت إلى أمام. تقصف رقبتها، تخلع ذراعها ، تنتزع شعرها. وتسرع نحو المطبخ ، فترمي أشلاء الدمية في سلة القمامة .

وبعد أن أطمئن على اكتمال النصاب القانوني لدخول الزبال. أتوجه إلى الباب. أفتحه وأقول للزبال متهلل الأسارير مشرق الوجه :

ـ أهلاً وسهلاً . . فرصة عزيزة (وهي فعلاً فرصة عزيزة) فرصة طيبة. آنستنا. (وهو فعلاً قد آنسنا بمجيئه) .

يحدق إلي بعين مستريبة ويقول باقتضاب :

ـ أين سلة القمامة؟

أقول وأنا أقوده من ذراعه إلى كنبة في الصالة :

ـ في المطبخ. ولكن لا بد من أن تجلس قليلاً لأحكي لك عن مشكلة الزبالة عندنا. فتجحظ عيناه، ويردد :

ـ مشكلة الزبالة؟

وتأتي أم أحمد بالقهوة وتقول وهي تقسم:

ـ لا يمكن أن تغادر قبل أن تحتسي القهوة.. ما هي أخبار العالم الخارجي؟

ثم تقدم له فنجان القهوة وتسأله:

ـ عندك أولاد.

يشحب وجهه ويقول كالحردان إنها سألته ذات السؤال يوم أمس. ويذكرها أنه أجابها بالايجاب. وأنه أخبرها بوجود عشرة أولاد. وأنها قالت له:

ـ الله يخلي لك إياهم ويحفظهم.

فتقول أم أحمد كأنها لم تسمع اعتراضه:

ـ عشرة أولاد! الله يخلي لك إياهم ويحفظهم.

وتسأله الصغيرة عن بناته. وأسأله أنا عن شبابه الذاوي. نحتفل بوجود إنساني جديد بالأسئلة. نمط ونشد ونوسع زمن مؤانسته لنا بالأسئلة. ينهض بعد احتساء القهوة. يقول:

ـ أين سلة القمامة.

فتقول أم أحمد وهي تضغط على كتفه ليجلس من جديد:

ـ والله لا تقوم إلا بعد تناول الشاي. الشاي صار جاهزاً.. على النار.

يأتي الشاي. فيحتسيه ونحن نثرثر بسعادة خرافية. ثم تفرغ الكأس. ينهض ويسأل عن كيس القمامة؟ وننظر إلى كأسه الفارغة بحسرة، كأننا نود لو كانت الكأس أكبر، كي يستغرق وقت احتسائها زمناً أطول.. والكأس فارغة. والمؤانسة تنضب. ولا بد من حمل كيس الزبالة والخروج. لا يسعنا أن نبقي الرجل معنا في الاقامة الجبرية. ونقبل النهاية المحتومة المحزنة. يحمل الرجل كيس الزبالة، ويخرج. تشيعه عيوننا. هو يخرج من هنا، والوحشة والصمت يدخلان من هناك. لا.. لا يدخلان لأنهما لم يخرجا. يظهران ويتجليان بعد أن تواريا عند دخول الزبال. نتهالك على الكنبات صامتين مطرقين. يترك خروجه فراغاً.. فراغاً أشبه بـ.. أشبه بـ.. أشبه بـ.. بذلك الفراغ الذي يشعر المرء به في فمه بعد خلع ضرس أو سن من أسنانه.

فراغ مؤلم.

نعم، يدخل زائرنا اليومي الوحيد. ويخرج.. فتتضاعف وحشتنا. يبدلنا حدث زيارته. لا نكون نحن حين يدخل، أنفسنا حين يخرج. هل فهمتم؟ أهلاً وسهلاً.

ويقول الملازم محرجاً إن الجماعة.. فتقاطعه أم أحمد:

ـ زوار؟ محكوم عليهم؟ متآمرون؟ أصحاب الملك ويريدون إخلاءه؟ جماعتكم ويبحثون عن بيت للإيجار؟ غير مهم. المهم.. أهلاً وسهلاً. تفضلوا لنجلس في الصالة لأحدثكم عن أحمد.. عندك أولاد شباب في عمر أحمد يا مدام؟

يتأبط الختيار ذراع الرجل الغريب ويقول إنه سيصغي إلى قصة حياته، مقابل أن يروي له ـ الختيار ـ قصة حياته هو بعد ذلك. يقول الرجل الغريب بامتعاض وهو يحدق إلى ساعة يده:

ـ ولكن الوقت متأخر.. لماذا لا ترويها لزوجتك.

ينفخ الختيار ويقول محبطاً:

ـ تعرفها.

يسأل الرجل الغريب مرة أخرى:

ـ لابنتك.

ينفخ الختيار مرة أخرى، ويضيف تنهيدة ويقول:

ـ تعرفها. ولكن أنت لا تعرفها.. تعال اسمعها.. قصة مثيرة ستعجبك.

والصغيرة تجر الفتاة الغريبة من يدها وتقول:

ـ تعالي العبي معي.

تحرر الفتاة الغريبة يدها بحركة لا تخلو من عنف وتقول إنها لا تلعب سوى مع صديقاتها اللواتي تعرفهن. وتقول إنها لا تعرفها. وتقول إنها تلعب في المدرسة كثيراً. وتسأل:

ـ لماذا لا تلعبين أنت مع صديقاتك؟

تقول الصغيرة أن لا صاحبات لديها. لأنها تعيش مع الكبار. . بين جدران هذا البيت. وتضحك الفتاة الغريبة، وتضحك وتضحك. . لأنها تظن أن الصغيرة تقول نكتة «تجنن» و «مش معقولة» و«غريبة».

ويقول الرجل الغريب معلقاً على نكتة الصغيرة: إن خيـال البنت واسع، وإنها ذكية، وتتمتع بروح الدعابة.

وتفتح أم أحمد عينيها حائرة. . فإذا الملازم يقف ويتفرج.

الختيار بحلم حلمين بتذكرة واحدة:

المنام الأول:
الليلة المباركة

منام الختيار. .

الختيار كان يرى مناماً أيضاً:

منذ ثلاثين عاماً وأنا أنتظر هذه الليلة المباركة. فقد كنت في العاشرةِ من عمري عندما أنبأني عراف بنبأ زيارةِ الطيف. قال:

ـ في منتصف ليلة عيد ميلادك الأربعين سوف يُلمُ بكَ طيف نوراني، سيضحك في الظلام، وسيحمل لك رؤيا. تتضمن الرسالة التي اصطفاك القدر لحمل لوائها.

ومنذ ثلاثين عاماً وأنا أنتظرُ هذه الليلة المباركةَ. أجلس على عَقِبَيَّ وانتظر بلهفة وقلق. لا أشتغل، لا أتزوج، لا أسافر، لا أختلط بالناس. . . انتظر، وأنتظر، وانتظر.

وها هي الليلةُ الموعودةُ قد أقبلت. حالكةٌ ماطرةٌ مرعدة. المطر نقر الزجاج، وإبلٌ في البعيد رغت، وبقر في البساتين القريبة خارت، والغنم ثغت، والسماء أرعدت. وليل بارد يلصق وجهَهُ المظلم بالنوافذ ويراقبني بفضول.

أقتعد سريري وأنتظر. عرقي يتصبب من وجهي، وأنفاسي معلقة، حدقتاي ثابتتان، أذناي مرهفتان. قشعريرة الخوف تسري في جسدي. . وأداريها.

بَغتةً ترامت إلى مسمعي ضحكة مجلجلة انفجرت في الظلام. استحوذ علي الاضطراب وجَمُدَ قلبي فما يخفق. والتفت فإذا هالةٌ من نورٍ تَسطَعُ خلفي.

إنتفضْتُ كالملسوع. إنه الطيف.. الطيف.. الطيف. غَمَرني إحساس لاذع بالنشوة. رأيته ملفعاً بالأسرار، مضرجاً بالأحاجي. ها هو الوعد المنتظر الذي سيجلل حياتي بالمعنى، ويَبْسُطُ عليها ضياء الغاية والرسالة. ها هو الطيفُ البليغ صاحبُ الاشارة والعلامة. ساحر المباركين ببيانه، والمهيمن على القلوب بسلطانه. المفوَّه المولعُ بالبديع، الكلف بالغريب. ذو الولاية، وحاملُ أعلام الهداية.

ارتبكت الكواكب لظهورهِ، وارتعشت أغصانُ الشجرِ من تلك القوة المغناطيسية التي تُشع من عينيه. التصق الليل بالنوافذ. وقرع المطر الأبواب.

وأنا أغمغم:

- قل أيها المبارك.. إحك.

وفي عيني اشتعل طموحٌ لا يُحَدُّ، وفرح لا يُصد.

دنا الطيف مني ثم مد يَدَهُ وأشعلَ الضوءَ الجانبيَ وحدق إليَّ. ما إن وقع بصرُهُ عليّ حتى بدت البغتة في وجهه الجميل. فغر فاه دهشة، ارتسمت على وجهه ملامح الصدمة، وبدأ بريق عينيه يخبو. كان وجهُهُ يتخذ بسرعة الومض مَلامِحَ العُتْهْ. انكمش وتقلص ثم انبسط، وعاد لينكمش ويتقلص. وأنا أحدق إليه كمن يراقب معجزة استعصت على فهمه. هتفت:

- ها.. إحك.. قل.. انطق.

ارتفعت زاويةُ فَمه اليسرى، وارتعش خدُّهُ رعشاتٍ متواصلةً وجمدت حدقة عينه كأنما أصابه شلل نصفي. ظل فمُهُ مفتوحاً وهو يحدقُ إلي برعبٍ، كأنه يبصر كائناً خرافياً ألجم لسانُه.

هتفت يائساً أحاولُ التشبث بلحظة خالدة تكادُ تزول، هي التي بزغت من ضمير غيبٍ منتظر:

- قل.. انطق.

أمسكتُه بقبضتيَّ، هززته بشدة. صفعته بصُراخ يائس... لكنَهُ لم يقل. لم يقل. لم...

* * *

المنام الثاني:

الدائرة

كالعادة، ومثل كل ليلة، دلفت إلى حانة «سبأ»؛ وكان الليل قد دخل في عباءته الحالكة وأنا في معطفي الثقيل. وكالعادة شققت طريقي وسعيت نحو الركن القصي الكابي الذي كانت «عصبة التغيير» تجتمع فيه كل ليلة ليناقش أعضاؤها أفضل السبل وأنجح الطرق لتغيير الأوضاع المتردية، وقلب المفاهيم السائدة، وإنجاز الحلم الكبير.

جال بصري في الركن الكابي المهجور من الحانة فوقع على صديقيَّ اللذين يشكلان بالإضافة إليَّ «عصبة التغيير». وكالعادة، ومثل كل ليلة تناقشنا فطال النقاش، وتجادلنا فأمعنا في الجدال واشتجرت آراؤنا، وراح كل منا يبسط حججه وبراهينه وهو ينفث دخان غليونه، ويطرقه بعصبية على المنضدة.

وكعادتنا في كل اجتماع ليلي تهالكنا على الخمرة، فدارت الرؤوس واختلطت الأفكار ودارت الكؤوس وتداخلت المشاريع. وكالعادة نبهتنا الساعة الرملية إلى أن ناقة الوقت قد جاوزت مفازة منتصف الليل. وكالعادة أحسسنا بالإعياء يثقل علينا، وبالخمرة تشوش حواسنا. وكالعادة فزعنا من فورنا إلى وضع مخطط سريع دقيق متفق عليه، وحددنا الخطوات التي ستؤدي إلى التغيير الشامل الذي ننشده، واتفقنا على اللقاء عند الفجر لإنجاز المخطط.

وكعادتنا في كل يوم، استيقظ كل منا بعد أن مالت الشمس عن الهاجرة، وحاولت ـ شأن كل يوم ـ أن أجهد ذاكرتي كي تزودني بتفاصيل ما جرى ليلة أمس في حانة «سبأ». . دون جدوى، إذ كانت قبائل الخمرة قد غزت الذاكرة ونهبت كل عبارة أو صورة اختزنت في خابيتها.

واتصل صديقاي يستفسران عما بحثناه ليلة أمس، ويستقصيان عن القرارات التي اتفقنا عليها. وكالعادة أفغر فمي ولا أنبس وأقابل دهشتهما بدهشة مثلها وأسأل:

- وهل نسيتما أنتما أيضاً؟

وهكذا.. يعود الزمن مرة أخرى ليدخل في عباءة الليل، فأدخل في معطفي الثقيل وأسعى إلى الحانة. فيحدث ما يحدث كل ليلة، وتدور الكؤوس والرؤوس وندور في الحلقة الجهنمية المفرغة.

غير أنني عزمت اليوم على الخروج من هذه الدائرة الجهنمية المفرغة. فقد ضقت من الدوران فيها حتى الغثيان، والسقوط اليومي في هاوية اللاجدوى والعبث كأنني أبدد عمري في حراثة البحر، أو كأنني فارس مغوار يمتطي صهوة حصان خشبي يطارد في مكانه.. يراوح محله.

قصدت طبيباً نفسانياً وبينما كنت أشرح له حالتنا لاحظت رعشة يدي، وتفصد العرق من جبيني، غير أنني لم أجففه بظاهر يدي. ولاحظت أيضاً أن الطبيب أشبه بجاسوس غبي من الجواسيس الذين نراهم على شاشة السينما: حليق الرأس، يضع على عينيه نظارتين سوداوين ويقرأ صحيفة ثقب صفحتها ليراقبني من خلال الثقب.

همهم من وراء الجريدة، ثم تقلقل في مجلسه وقال بلهجة رسمية:

- أرى أن تسجل كل شاردة وواردة تلم بخلدك منذ دخولك إلى الحانة واجتماعك مع صاحبيك. وأن ترصد كل كلمة تقال فتدونها في دفتر تحمله في جيب معطفك. وأن تنقل الأفكار ومضمون النقاش مختزلاً على الورق. وهكذا يصبح بوسعك أن تتذكر في اليوم التالي ساعات المساء التي تنهبها الخمرة من الذاكرة، ثم تعيد إلي كل ذلك، لأتابع قضيتك المبهمة ومشكلتك المعقدة.

وكالعادة دخل الزمن في عباءة الليل، ودخلت في معطفي الثقيل، ودلفت إلى الحانة حاملاً دفتري. وسرعان ما التأم شملنا ورحنا ثلاثتنا نتهالك على الخمرة ونتحاور فنتجادل ثم تشتجر آراؤنا حتى يكاد الإعياءُ يهدنا والخمرة تعبث بعقولنا فنسارع إلى الاتفاق بأي شكل من الأشكال على أية خطة من الخطط.

لكن صاحبيَّ جعلا يرمقانني بنظرات مستريبة كلها شك وفضول ما إن لاحظوا أنني أدون ما يدور من حديث في دفتري.

للوهلة الأولى لم يعلقا ولم ينبسا بكلمة. لكن شواظ نظراتهما المستريبة كاد

يحرق وجهي. وأمعنّا في الجدال، وأسرفنا في التهالك على الخمرة، وأنا أدون. فإذا بأحدهما يخرج عن طوره وقد أوقدت الخمرة نيران الشك في نفسه وعقله فصرخ:

- ماذا تكتب يا أخي؟

قلت محضر الجلسة.

- أدون محضر الجلسة.

انتصب الآخر واقفاً منتفضاً كالملسوع وسأل وقد أعماه الغضب:

- لماذا؟

قلت وأنا أرفع عيني دون رأسي:

- كي لا ننسى.

لكن بذرة الشك نمت في نفسيهما وتضخمت. تناول أحدهما زجاجة الخمرة بحركة مباغتة وضربني على رأسي بقوة فشجه. وحمل الآخر صحن السجائر الثقيل فضربني به صارخاً:

- خائن.

في تلك اللحظة زحف الرمل متهاوياً في الساعة الرملية، فأعلنت الساعة أن ناقة الليل جاوزت خاصرة منتصف مفازته.

في اليوم التالي.. وبعد أن دخل الزمن في عباءة الليل، بلغت مسمعي طرقات قوية على الباب. انسللت من السرير بتثاقل. وسعيت إلى الباب بخطوات بطيئة أقتلعها من الأرض اقتلاعاً. فتحت الباب بقبضة واهنة. فإذا بصاحبيّ يدخلان، وإذا بهما يرمقانني بنظرات كلها دهشة وذهول. صرخ أحدهما:

- ماذا جرى؟ من شج رأسك؟ ما هذه الدماء الجافة التي تضرج وجهك؟

وهتف الثاني برعب:

- هل حاول أحدهم اغتيالك؟ ذهبنا إلى الحانة ولم نجدك. انتظرناك.. ولكن بلا جدوى. ساورتنا المخاوف والشكوك. ماذا حدث؟

رمقتهما بنظرة ذات مغزى. ولم أنبس. ولم أدخل في معطفي الثقيل.

واستيقظ الختيار فأحسّ بدوران في رأسه حاول أن يعود إلى عالم المنام حيث الأحداث والوقائع . . والزمن يمشي بلا جدوى.

انزلق من السرير. التفت فرأى ابنته لا تزال تحلم. إذ كانت تثرثر بكلام غير مفهوم في منامها. إلى جانبها كانت أم أحمد تواصل حلمها. إذ كانت تبتسم.

غبطهما ودلف إلى الحمام. فتح معجون الأسنان. وضع رأسه تحت صنبور المياه. غسل وجهه بالصابون. ثم حدق إلى وجهه في المرآة. فتح فمه ما وسعه ذلك، ألقى نظرة على أسنانه الأمامية. مد لسانه تفحص لونه. ثم رفع يده وتناول معجون الأسنان. اكتشف أنه جاف. ضغط عليه بقوة. فسقطت القطعة الصغيرة اليابسة. ضغط مرة أخرى فانحدر خيط غليظ أخضر على فرشاة الأسنان. نظف أسنانه. ولم يعد الغطاء إلى مكانه. ولم يغسل ما تبقى من المعجون عن الفرشاة.

ثم تأهب ليحلق ذقنه. ويدخل في كامل ملابسه. وقال في نفسه، إنه سيضطر لإيقاظ زوجته بعد قليل، حتى تختار له ربطة عنق مناسبة ثم لتعقدها له.

حين خرج من الحمام، وجد أن الصغيرة لا تزال تحلم كانت تغمغم بضيق:

ـ أخرجني يا أبي من عنق الزجاجة. انتزع سدادة الفلّين.

ضحك الختيار وقال لها من عالم اليقظة مداعباً:

ـ لا أتعاطى الخمرة.

خاطبته من عالم المنام بعتاب:

ـ لكنك قلت: إن الزجاجة تحتوي على أكسجين ملون كالبلالين. . ومدى وردي لا يحد.

لكز الختيار زوجته التي ترتسم على شفتيها ابتسامة مجاملة. ففتحت عينيها نصف فتحة ثم عادت وأغمضتهما وهتفت بذعر:

ـ أهلاً وسهلاً. . الشاي صار خالصاً. لن نترككم تروحون قبل أن تحتسوه. . هل أعجبكم البيت؟

قال الختيار وهو يتناول ربطة من الدولاب:

- هل تعجبك هذه الربطة؟

تجهم وجهها، وغاضت بسمتها. انقلبت على وجهها وقالت إنها ترغب في مزيد من النوم والأحلام.

* * *

ج

من اعترافات الكاتم

١

يوسف. . كاتم الأصوات:

لماذا تحدقين دائماً إلى شفتي؟ لماذا تلحين دائماً على أن أحلق شاربي؟ أطلت تلك النظرة المترددة القلقة من عينيها. ثم ابتسمت إبتسامة باهتة وقالت:

ـ ولماذا لا تحلق شاربك؟ هل ترى فيه رمز الرجولة والكرامة؟

كان يوسف يمسك بطرف شاربه كلما أقسم قسماً. وكانت «سيلفيـا» تحدق إلى شاربه كلما تكلم بنظرة من ينقب عن شفتيه. تـرمقهما بنـظرة مستقصية كـأنما تتـابع حركتهما. ولم تكن هذه المهمة الغريبة يسيرة. إذ كان الشارب الكث يجلل الجزء الأكبر من الشفة العليا.

بدأت تلك النظرات المركزة دائماً على الشفتين تضايق يـوسف. لا لشيء، إلا لأنه لا يفهمها. يضايقنا ما لا نفهمه. هذا طبيعي. أسئلتها تضـايقه أيضـاً. لأنه لا يفهمها. يعترف لها مثلا بأنه هرب حين أطلق كاتم الصوت على أحد. فتقول وهي تبتسم:

ـ كيف؟

لو قالت «لماذا» لفهم السؤال. أما «كيف» فقد استعصت على فهمه. ثم. . ثم لماذا تبتسم؟ ما الذي يبعث على الابتسام عند سماع «اعتراف» كهذا؟

كان يعري جسده ونفسه أمامها. يخلع ثيابه، فيظهر جلده. يخلع جلده فتظهر

أسراره. أمامها كان يكشف عن عوراته الجسدية والروحية. معها وحدها كان يتعرى مرتين. أمام الأخريات كان يتعرى مرة واحدة.. يكتفي بانتزاع ملابسه والكشف عن جلده. ولا يخلع جلده ليكشف عن تلك الحقيقة الفاضحة الحميمة الجوانية التي تدثرها أردية الصمت، وتموهها أقنعة الكلمات المدروسة المتكلفة المراوغة.

أمام سيلفيا فقط كان يفكر بصوت عالٍ. لأنها أجنبية، ولا تعرف من يعرفونَهُ. لأنها تنتمي إلى عالم آخر، لا يشكل خطراً على عالمه. لأنها من محيط آخر لا يلتقي بمحيطه. لأنها أشبه بحلم يراود باله، ثم يتلاشى إلى غير رجعة. فإذا ما استيقظ اختفى الحلم في قعر النسيان.

بعد أيام ستعود إلى فرنسا.. وتموت. فما لا يراه يوسف، ولا يسمعه ولا تطاله يده.. غير موجود. عدم محض.

حتى غسيله المتسخ، ما كان ينشره أمام أحدٍ إلّاها.

ولكن «.. هذا كذب وتزوير. لقد اختار يوسف سيلفيا أذناً تصغي لاعترافاته، لدوافع أخرى.

٢

يوسف...

اعترف لها بأنه كاتم صوت متحرك. كاتم أصوات قال. وحدق إلى صدرها النافر. وكان صوته مكتوماً لا تسمعه لأن عينيها شردتا عبر النافذة. وسيلفيا تسمع الأصوات بعينيها. وقال لها: إنه يتمنى أن تتعرى أمامه. فلم تكذب المرأة خبراً. فتعرت، لكنها أطفأت النور، فغطّى عري الظلام عريها. وخلع هو قميصه فغطاه البرد.

أحاطها بذراعه وشدها إلى صدره. ثم ابتعد عنها عندما تذكر أنه لم يغسل أسنانه، وأن رائحة فمه كريهة. وقام إلى الحمام. وفتح معجون الأسنان. وبقيت هي جالسة على طرف السرير. وقال بصوت مبهم وهو يغسلُ أسنانه: إنَّه ينبغي أن يعترف لشخص ما. ولقد اختارها هي لأنه يرتاح ويطمئن إليها. وسمعت هي صوته المبهم يترامى من الحمام، لكنها لم تر وجهه. ثم سمعته يطلق قهقهة لم تعرف لها سبباً. وظنت أن النكتة التي قالها عن أسباب اختياره لها ليودعها أسراره تقف وراء هذه الضحكة.

وخرج من الحمام بعد أن غسل أسنانه. فدنا منها وقبلها بثقة بعثها في نفسه معجون «كولينوس». عض أذنها، وأخبرها أن أحمد لم يكن شاباً سيئاً.

تحسس صدرها بأصابعه وفكر في أنها إمرأة ناعمة لكنها طويلة. وشعرها طويل أيضاً. أخبرها أنه يحب الشعر القصير. ونصحها أن تقص شعرها. قال إنه يحب الشعر القصير مثل الزمن الذي يفصل بين الضغط على زناد كاتم الصوت وانطلاق الرصاصة. ويحب المرأة القصيرة قصر زمن نظرة الرعب الأخيرة في عين الضحية حين يرى المسدس مصوباً نحوه فجأة.

ولم تخلع المرأة فستانها. وقالت: إنَّ ذراعي كاتم الصوت، أي يوسف، لا توحيان بالقوة والقسوة.. وإنهما ناعمتان، ثم شدت طرف فستانها إلى الأسفل لتحجب ما تحت ركبتيها. فقام يوسف وسألها إن كان أحمد قد مارس الحب معها. ولم ينتظر جواباً. إذ أتبع سؤاله بسؤال آخر عن أسلوب أحمد في ممارسة الحب. لكنها أشاحت بوجهها. وقالت إنها جائعة. رقد كاتم الصوت إلى جانبها وسألها إن كانت تقرأ الصحف.

فأخبرته أنها لا تقرأ سوى الطالع. ثم مسدت بأصابعها النحيلة على شعره. مد يده إلى المنضدة القريبة وتناول زجاجة الويسكي. وقال إنه خلص أحمد من مستقبل لا يخلو من منغصات. وأخبرها أن أحمد كان يدمن الخمرة، وأن أمه ـ فيما لو أفرج عنها ـ ستظل تنق على رأسه، وتخيفه من تشمع الكبد. وضمها إليه، وقال إنه لا يعرف، عادة، عن ضحاياه شيئاً، قبل أن ينفذ عمليات الاغتيال. باستثناء أحمد. الذي اضطر إلى دراسته دراسة دقيقة. وهذا أسوأ ما في عمله. فهو يفضل قتل من لا يعرف عنهم شيئاً.

وخلع بنطاله. وأخذها بين ذراعيه، ثم التصق بها. استقر رأسه على صدرها وسرعان ما راح يرسل شخيراً منتظماً منضبطاً بعد أن أخذته عينه فنام. ظلت عينا المرأة مفتوحتين على اتساعهما، تحدقان إلى السقف.

٣

عندما استيقظ يوسف في الصباح، وجد نفسه عارياً إلا من ملابسه الداخلية. وكانت المرأة تتأمله. استوى جالساً وهو يفرك عينيه وقال إنَّه متأسف.

قالت تواسيه.

ـ كنت مرهقاً.. وجسدك متعب.

فحدق إلى ملابسه الداخلية وقال إنه لم يقصد الاعتذار عن «هذا». لكنه يعتذر عن اتساخ ملابسه الداخلية. إنزلق من السرير وقال:

ـ هكذا حال غير المتزوجين.. من الطبيعي أن تكون ملابس العازب الداخلية متسخة.. إلا إذا كانت عنده خادمة.

وقال إن طبيعة عمله لا تسمح له بتشغيل خادمة. وسعى إلى الحمام وهو يطلب منها أن تعد القهوة. قال:

ـ لتقرئي لي طالعي على الأقل.

فغطت رأسها باللحاف. وأغفت. لكن يوسف عاد فهزها من كتفها، ثم قال إنه ينتظر فنجان قهوة. فقامت بتثاقل وسعت إلى المطبخ. فجلس يوسف على كنبة مواجهة للمطبخ، ليتمكن من رؤيتها وهي تعد القهوة، ثم استخرج علبة دخانه من جيبه وأخذ يدخن بصمت وهو يتأملها.

وحين خرجت من المطبخ وهي تحمل صينية القهوة. فرك يوسف يديه بحماسة وهتف:

ـ عظيم.. نعم.. هكذا أريدك.. أن تصحصحي.

وشرح لها أنه استأجرها كي يحكي لها، لا كي تنام. وضعت صينية القهوة على المنضدة أمامه. وقالت إنها ستغتسل حتى تصحصح. وغابت في الحمام، وتناهى صوت الماء المنهمر من «الدوش» إلى مسامع يوسف. فقام إلى الحمام. ودفع الباب دفعة خفيفة، فاكتشف أنه غير مغلق. وأطل برأسه وراح يتفرج على جسدها الباهر العاري المغطى بالماء. وقال بإعجاب:

ـ يا سلام.

فتضرج وجهها، وولته ظهرها. طلبت أن يغلق الباب حتى لا يدخل البرد. لكن يوسف دخل ودخل معه البرد، ولم يوصد الباب. ووقف هو والبرد في الحمام، والمرأة تغتسل. وكان يوسف يدخن، فابتلت سيجارته.

قذف سيجارته إلى المرحاض، ولم يشد سلسلة السيفون. وقال إنه رجل عصامي ومتعلم. صحيح أنه لم يتخرج من جامعة، إلا أنه قرأ كتباً عديدة. إضافة إلى

كونه خريج جامعة الحياة. وهي أعظم جامعة. وقال لها: إنه تعلم من الحياة أشياء كثيرة. وكرر إن ثلاثة لا يجترىء عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا قليل، وهي صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة. وأخبرها أنه قرأ هذا في كتاب كليلة ودمنة. ومد يده إلى جيبه واستخرج علبة سجائره، دون أن يرفع عينيه عن جسدها الباهر. أشعل سيجارة بينما راحت نظراته تجوس في جسدها وتتلمسه كالأصابع.

ودخل الصابون في عينيها فأغمضتهما، وراحت تفرك شعرها.

قال يوسف إنه يحفظ الكثير من الحكم والمواعظ والحكايات التي لا تخلو من عبر.. والكلام المأثور. وأكد لها أنها تستطيع أن تعتبره مثقفاً. وكانت تدعك إبطيها بليفة من الإسفنج الطري. وقالت إنها تفضل الاسفنج الخشن.

نفث يوسف دخان سيجارته في فضاء الحمام، وابتعد قليلاً عن الحوض، كي لا تناله قطرات الماء المنهمرة على الجسد العاري الباهر. وتأمل شعرها الطويل كالحياة وقال إن أحمد كان مثقفاً أيضاً، وكان شعره طويلاً كالشعراء والفنانين.

وقال:

ـ قيل ثلاثة لا ينبغي أن تكون في الإنسان: الباطنية، والازدواجية، والرغبة الانتحارية. وقد كانت هذه كلها في أحمد.

التفتت المرأة إلى يوسف. وأشارت له أن يناولها المنشفة. فأخبرها أنه خلص أحمد من كآبته وضعفه وآلامه، وناولها المنشفة. ثم عاد وانتزعها من بين يديها. وراح يمررها على ظهرها. لم تبد ممانعة، وقالت:

ـ شعري أولاً.

جعل ينشف شعرها. وكانت المنشفة كبيرة وخضراء. دعك صدرها ثم قال:

ـ وأنا أيضاً باطني. لكن أحمد كان يشعر بأنه تقاعد من الحياة حين استقال من التنظيم، عندما غادر بيروت، بعد الاجتياح، قال لي: إنه يعيش فائض عمر. وقال: إن خروجه من بيروت هو خروج من الحياة. وإن تقاعده من المقاومة هو تقاعد من الحياة.. لا الوظيفة. وأنا أيضاً كنت عضوا في مجموعة أصولية متزمتة.. من زمان أعني. وفصلوني من الجماعة. قالوا إنني أسكر في الحانات وأخوض في أسرارهم. وعندما فصلوني.. أنا أيضاً شعرت أنني فصلت من الحياة كلها. كانت المجموعة

حياتي. لا لم يفصلوني. قالوا: استقل. فشعرت أنني استقلت من الحياة برمتها. ثم انضممت إلى جماعة الدكتور مراد.. ففصلوني لأنني اعترفت واستنكرت. أحمد استقال.. ما الموجع في الاستقالة. الفصل هو الألم الحقيقي.

ودخلت المرأة في رداء أبيض فضفاض وكانت ترتعش من البرد. قال يوسف: إنه لم يجفف لها قدميها بعد. وعندما انحنى ليجففها، لاحظ أن أصابع قدميها غليظة. فقال في نفسه: إمرأة رقيقة ناعمة، لكن أصابع قدميها غليظة. وما كان يوسف يحب النساء ذوات الأصابع الغليظة.

ولاحظت المرأة نظرة يوسف إلى أصابع قدميها، فقالت: إنها ورثت شكل هذه الأصابع عن أمها. فاستقام جذع يوسف وقذف المنشفة جانباً. وقال: إنه لم يستأجرها كي تحكي له قصة حياتها. وأراد أن تفهم تماماً وبوضوح، أنه دفع لها هذا المبلغ الكبير ليستأجر أذنها لا لسانها. واستدرك قائلاً إنه إنسان واضح، ويحب الوضوح. وقال:

ـ حتى تكوني على نور.

وعندما هزت رأسها. أخبرها أنّ الذي أوله شرط آخره رضى. أو شيئاً من هذا القبيل. فهزت رأسها كالموافقة، مرة أخرى. وما كان يوسف يعلم أنها صماء، وتعيش في عالم من الصمت الموحش. وأنها تجد صعوبة في قراءة شفتيه بسبب شاربه الكث. ولم يعرف أن شاربه الكث هذا يمنع التواصل بينهما تماماً. عندما خرجا من الحمام، شعرت سيلفيا أن البرد قد تسلل إلى عظامها. وعندما عادا إلى مجلسهما في الصالة، إكتشفا أن البرد قد تسلل إلى ركوة القهوة.

لكن شعور يوسف بالذنب والاكتئاب لم يتسلل إلى خارجه، على الرغم من اعترافاته التي لم تسمعها المرأة. الاعترافات التي بقيت بين شفتيه ولم تتسلل إلى أذنيها الموصدتين. ويوسف لا يعرف. يوسف يعرف أنه إذا اعترف لها تخلص من هذا البخار الهادر المتنامي الذي يتهيأ للانفجار في دماغه.

إلتقاها لأول مرة في أحد ملاهي «البيغال» في باريس، وكان أحمد معه.

وفتح لها زجاجة شمبانيا على الرغم من معارضة أحمد. قالت ليوسف:

ـ شكلك عربي.

قال لها يوسف:

ـ وأنت شكلك عربي.. أصلك عربي؟

وكانت يد يوسف ترتعش. وأحمد مظلم الوجه مكتئب. وقالت وهي تبتسم ابتسامة عذبة:

- لا. أنا أصلي عربي.

فاستغرب يوسف وقال إنه تنبأ بأنها كذلك. فقالت: إنَّ الموسيقى صاخبة وإنها لا تكاد تسمعه. وأشارت إلى أحمد وقالت بالعربي:

- لماذا صاحبك نكد؟

فضحك يوسف وأخذ يدها بين يديه. وقال: إن صديقه اسمه أحمد.

فابتسمت وسألته عن اسم صاحبه. فدهش يوسف وقال:

- قلت لك: إن اسمه أحمد.. أحمد النكد.

وكانت سيلفيا تقرأ حركات شفتيه بصعوبة. فالأنوار خافتة. وسألها يوسف عن اسمها. فقالت له لم تسألني عن اسمي.

إسمي سيلفيا.. وبالعربي سلافة.

وهم يوسف بأن يقول لها إنه سألها عن اسمها. لكنه لم يفعل. ومد يده إلى ساقها. فقبضت يدها على يده وثبتتها في مكانها. وقالت: إنها تفكر في السفر إلى بيروت للعمل في أحد ملاهيها. فناولها يوسف ورقة كتب عليها رقم هاتف. وقال: إذا جئت إلى بيروت. إتصلي بهذا الرقم واسألي عني.

* * *

في باريس ألم يوسف بطبيب نفساني. كان يجهل الفرنسية، فرافقه أحمد ولعب دور المترجم. ولكن حين بدأ الدكتور يسأل يوسف أسئلة عادية من مثل:

- ماذا تعمل؟ ما هي وظيفتك؟ أين تقطن؟

رفض يوسف الإجابة. قال: إنه يعاني من الأرق والكوابيس ونوبات الحمى والعجز الجنسي، والاضطراب النفسي.. وإنه يريد علاجاً، دون الدخول في تفاصيل حياته. وترجم أحمد ما قاله يوسف. فثارت ثائرة الطبيب الفرنسي. وضرب طاولته بقبضة يده. وقال إنه لا يستطيع مساعدة يوسف إذا امتنع يوسف عن مساعدته هو. وأكد أنه بحاجة إلى معلومات عن حياة يوسف، حتى يستطيع أن يساعده.

نهض يوسف وقال إنه سيفكر في الأمر. وعند الباب قال لأحمد إنَّ الدكتور قد يكون مجنداً في الاستخبارات الفرنسية، وإنه لا يستطيع أن يحكي له عن حياته. ثم

التفت ورمق الدكتور بنظرة مستريبة، فهتف الدكتور بالفرنسية أنه لا يقبل عـادة أن يرافق المريض شخص آخر. لكنه وافق هذه المرة بسبب حاجز اللغة وضرورة وجود جسر للتواصل (أي أحمد). . ولكن أن يرفض يوسف الكشف عن حياته للدكتور. . أوه. . أوه. . هذا كثير.

وترجم أحمد ليـوسف وهما يغـادران العيادة مـا قالـه الطبيب. فـأطلق يوسف ضحكة صاخبة وقال:

ـ يعني أنت جسر. . جسر. أنت جسر. . قد تكون هاوية، قد تكون جـداراً عازلاً. . اما جسر. . هيءهيءهيء.

وفتح أحمد مظلته، ومال يوسف برأسه نحو رأس أحمد. وكـان المطر غـزيراً. والسماء كابية، وأحمد مكتئباً. . والمظلة سوداء.

عرّجا في طريقهما على مقهى. وطلبا زجاجة نبيذ. وبينما كان أحمد يِعـبّ من كأسه بشراهة، ومض في باله خاطر طريف فقال:

ـ لماذا لا تحكي عن حياتك لغانية؟ فالكلام يدخل من أذنها الشمال ويخرج من أذنها اليمـين. أنت بحاجـة للاعتـراف. هذه مشكلتـك. ترغب في أن تتخلص مما يضطرم في صدرك، ويثقل كاهلك. لكنـك ترغب عن نشر اعتـرافاتـك الثقيلة على الملأ. في الغانيات يكمن الحل. إنهن مستمعات جيدات لا يسمعن شيئـاً. يعرنـك آذاناً صاغية لا تسمع.

وأطلق أحمد ضحكة مجلجلة، لم يطلق أختها منذ عهد بعيد. غير أن يوسف لم يضحك. أتى على كأسه بجرعة واحدة. ثم راح يدخن بعصبية وهو يـراقب المطر في صمت. ثم التفت فجأة إلى أحمد وقال:

ـ أنت تسرف في الشراب.

اشتعلت في حدقتي أحمد المطفأتين بسمة مرة. إلتفت بوجهـه الشاحب الـذي ازدحمت في ملامحه المرارة سراً وجهراً وقال:

ـ وأنت تسرف في الغموض.

تدافعت أنفاس يوسف إنفعالاً وقال باقتضاب:

ـ أنا لا أسكر.

قال أحمد بحدة:

ـ حتى لا تحكي عن نفسك. هل تدري أنني لا أكاد أعرف عنك شيئاً؟
أشاح يوسف بوجهه وقال متبرماً:
ـ أحسن.. لك ولي.
سحق أحمد سيجارته في صحن السجائر. وعلق:
ـ إنك تثير ريبتي أحياناً.
والتفت إلى الشارع، وراح يراقب المارة.. النساء منهن بالتحديد.

٤

قد يكون العالم الذي يعيش فيه يوسف مجللاً بالغموض، لكن التعليمات التي تلقاها كانت واضحة:

ـ ينبغي أن تغتال أحمد.
ـ أحمد؟
ـ أحمد.
ـ أحمد ابن الدكتور مراد إبراهيم؟
ـ أحمد ابن الدكتور مراد إبراهيم.
ـ لكنه لا يشكل أي خطر عليكم. إنه لا يؤذي حشرة.
ـ صحيح.
ـ صحيح؟
ـ نعم. صحيح.
ـ إذن؟
ـ نريد أن يعتقد الناس أن الذين زجوا أسرته في الإقامة الجبرية، هم الذين اغتالوه.

ـ ولكنه صديقي.
ـ يوسف يا يوسف.. كم أنت حمار. على هامان يا فرعون؟ أنت لا أصدقاء لك. لا تكن حماراً.

ـ لست حماراً.. أنا كاتم أصوات الكلاب النابحة.
ـ هل أنت متعاطف مع قضية الدكتور مراد؟
ـ لا.. طبعاً لا.

ـ هل أنت متعاطف مع النظام الذي زجه في الإقامة الجبرية؟
ـ لا . . طبعاً لا .
ـ إذن؟
ـ أنتم هنا . . وهم هناك مختلفون في كل شيء وعلى كل شيء، ولا تتفقون إلا على عدائكم للدكتور مراد وما يمثله .

ـ صحيح . أحسنت يا يوسف . أنت شاطر . عشر علامات ليوسف الشاطر النجيب . لنر أصابعك يا شاطر . آه نظيفة جداً جداً جداً . وأظافرك نظيفة أيضاً . عشر علامات إضافية للنظافة . نظافة الأصابع والأظافر . هيء . هيء . هيء . لا تخف يا يوسف . سنسمح لك بأن تمشي في جنازة أحمد . لا تخف . فنحن أيضاً بشر . لكننا بشر ذوو أهداف . ولا بد من تحقيق هذه الأهداف بأي ثمن . خذ مثلاً الزواج . أليست ليلة الدخلة أحلى ليالي العمر . ألا ينتظرها الشاب بحرقة وشوق سنوات وسنوات . ولكن لا بد من أن تنزف أحب الناس إلى قلب العريس قليلاً من الدم تلك الليلة . . لماذا؟ كي تستطيع أن تنجب . قد تصرخ وجعاً . . لكنها تشعر في أعماقها بسعادة بالغة . لماذا؟ لأنها أثبتت لعريسها الحبيب، الذي سبب لها الألم، أنها عذراء . وهو . . قد يشعر بالذنب لأنه سبب لها الألم، وجعلها تنزف قليلاً من الدم . لكنه يشعر في أعماقه بسعادة غامرة، وزهو وخال . لماذا؟ لأنه أثبت أنه رجل فحل .

هل ترغب في الزواج يا يوسف؟ دخن سيجارة يا يوسف . إنها مالبورو سيجارة الرجل الناجح في الحياة . هل فطنت إلى ما أقصد يا يوسف؟

ثم ناول الرجل الغامض مظروفاً إلى يوسف وقال :
ـ مبلغ محترم .
امتقع وجه يوسف وقال إنه سيفكر بالأمر .

حين خرج يوسف من تلك السفارة، ملأ رئتيه بالهواء . شعر فجأة بنشوة غامضة حادة، حلت محل ضيقه بالتعليمات . وومضت في باله سلسلة من الخواطر والصور، فاقشعر بدنه قشعريرة اللذة .

توقف في منتصف الشارع . انقلب على عقبيه . عاد إلى السفارة . وقال للمسؤول صاحب التعليمات، إنه سينفذ المهمة دون مقابل . لكنه سيختار الزمان والمكان .

ثم استخرج المظروف الذي يحتوي على مبلغ ضخم . ومزقه قطعة قطعة أمام

عيني الرجل المبحلقتين دهشة. ثم سعى نحو الباب وخرج، تاركاً الرجل الغامض يتخبط في دوامة من الغموض.

٥

عاد يوسف إلى الشقة فوجد سيلفيا جالسة أمام جهاز التلفاز تشاهد فيلم فيديو. جال بصره في الصالة، فرأى الغبار منتشراً على المناضد الصغيرة، وصحون السجائر طافحة بالرماد وأعقاب السجائر. وضع يديه على خصره وقال بامتعاض:

ـ ألم تعدي طعام الغداء؟

لم تنبس. لم تسمعه وهو يدخل لأنها لم تره. وهو لا يعلم أنها لا تسمعه، ولا يعلم أنها لا تدري بوجوده. ظنها غاضبة. دنا منها ووقف بينها وبين التلفاز، فرفعت عينين دهشتين، ثم رمقته بنظرة باسمة مرحبة. شبك ذراعيه على صدره ليوحي لها بأنه غاضب وقال:

ـ لماذا لم تنظفي الشقة؟ لماذا لم تعدي طعام الغداء؟

شعيرات شاربه الكث المائلة على شفته العليا كجثث تتدلى على صهوة جواد، حالت دونها وقراءة الجملة الأولى. لكنها قرأت سؤاله عن طعام الغداء. فقامت بهدوء وجلست على كنبة أخرى لتتمكن من رؤية شاشة التلفاز. وقالت إنه استأجر أذنيها وسمعها. وانها ليست خادمة.

نفخ بغيظ، وخلع سترته ورماها على كنبة مجاورة. ثم سألها لماذا لا يراها تسمع المذياع أبداً. قرأت شفتيه، ولم تقل له إن الطبيعة تمنعها من الاستمتاع بالمذياع. واكتفت بأن قالت إنها تفضل التلفاز.

سعى يوسف إلى الحمام، وقال لنفسه إنه سيموت من الجوع إن لم تطبخ له. وهو لا يتقن الطبخ. وفكر في أنها تبغضه وتخافه لأنه قاتل. وقال لنفسه إنها لا تفرق بين القاتل المأجور، والقاتل ذي الرسالة. وتساءل أيهما هو، فلم يستطع أن يحدد مكاناً واضحاً له بين المكانتين.

وما كان يعلم أن سيلفيا لا تعرف أنه قاتل محترف، على الرغم من كل اعترافاته. وكم ستكون دهشته هائلة لو عرف ذلك وأدرك أن شاربه الكث هو السبب.

غسل وجهه بالصابون والماء. وقال لنفسه إنه ينبغي أن يغسل يديه منها في أسرع وقت. فيحملها ويضعها على متن طائرة.. لتعود إلى أزقة «البيغال».

لتحمل عذاباتي وترحل، وتدفنها معها في كهوف الملاهي الصاخبة المعتمة. فإذا روت اعترافاتي لزبون فإنه لن يصدقها. ثم إن أمثالها لا يروين اعترافات الزبائن. إنهن يصغين وحسب.

خرج من الحمام، وقف أمامها وقال إنه سيدعوها لتناول الطعام في مطعم إيطالي. فقالت إنها لن تطبخ. دار رأسه وقال إنه لا يفهمها. قال:

ـ أقول لك ثور.. تقولين احلبوه.

وأشار عليها أن تغير ملابسها. ففهمت أنه يود أن يخرجا معاً. هزت رأسها موافقة وقامت. جلس يوسف على الكنبة وأخذ رأسه بين يديه. وتساءل لماذا يعجز عن فهم هذه المرأة. وفكر وهو يشعل سيجارة أنها امرأة غريبة الأطوار. وخرجا دون أن يجفف شعره.

فقالت إنه سيصاب بالبرد.

كانت تأكل بنهم، سألها إن كانت تخافه. سلطت عيناها على شفتيه كعادتها (عادة غريبة لا يفهمها ولا يستسيغها) وقلبت شفتها السفلى وقالت بصوت محايد:

ـ ولماذا أخاف منك؟ هل أنت قاتل محترف؟

كانت تسأله بجدية. لكنه أرسل ضحكة صاخبة. وقال لها إنها سريعة البديهة وصاحبة نكتة ودعابة. كان يصدر صوتاً مزعجاً وهو يمضغ طعامه. لكن سيلفيا لم تسمع، فلم تتقزز. سألها إن كانت تعترف للآخرين عن حياتها. عن تلك الحكايات أو المشاعر التي يتمنى الإنسان أن يئدها وأداً. تنهدت وقالت إن وظيفتها تكمن في الاستماع لثرثرات الناس. وأنها تعيش من عرق أذنها لا لسانها.

ضحك يوسف حتى كاد يختنق. فناولته كأساً من الماء. تنحنح ثم قال وهو يحدق إليها بعينين لاحت فيهما نظرة رعب:

ـ ألا تخافين أن تموتي مجهولة؟

دفعت صحنها جانباً. وقالت:

ـ لا أفهم ماذا تعني؟

ومسحت فمها بمنديل خاص. تأمل يوسف شعرها الطويل مثل لحظات

الانتظار المرهقة. وأخبرها أنه استأجر أذنيها كي يبقى وجوداً حقيقياً حياً في ذاكرة كائن ما، ولو شخص واحد فقط، بعد أن يموت.

جاء النادل بالقهوة. فسألته بعد أن قرأت شفتيه:
ـ وما أدراك أنك ستموت قبلي؟

قال:
ـ أعرف ذلك معرفة يقينية.

مسحت وجهه بعينيها، ثم أطرقت برأسها وأسندت ذراعيها إلى الطاولة.

قالت:

ـ ألا يوجد لديك أصدقاء. . حبيبة. . أقارب. . يذكرونك بعد موتك؟

نبت في ملامح وجهه ظلام مفاجىء. نقر بأصابعه على الطاولة وقال:

ـ جميعهم لا يعرفونني. حياتي سر، وأسمائي مستعارة، ووجوهي أقنعة، وظاهري لا يعكس باطني. جلدي أسوار حصن منيع أمنحك أنت وحدك مفتاح بوابته العصية.

ثارت شهية فضولها. سألته عيناها عن سبب اصطفائها. قال مطرقاً وهو يعبث بسلسلة مفاتيحه بعصبية:

ـ لأنك لا شيء. لا تعنيني. ولأنني رقم لا تأبهين له، ولا يعنيك.

قام بعد أن دفع الحساب وقال:
ـ لأنها وظيفتك. . أن تسمعي وتصغي.

قالت وهي ترتدي معطفها:
ـ وماذا لو بحت أنا باعترافاتك لآخرين؟

علا وجهه الوجوم. فتح باب السيارة لها وقال بثقة:
ـ لن تفعلي ذلك. لأن وجودي أو عدمه لديك سِيّان. ولأني سأعري نفسي كاملة أمامك. ما عدا إسمي الحقيقي، وعنواني، ورقم جواز سفري.

دار حول السيارة، ثم دلف واستقر وراء المقود. التفت إليها وقال:

ـ هل تعرفين أنني أنا نفسي ما عدت أعرف اسمي الحقيقي أو عنواني. أنني

أحمل عشرة جوازات سفر، بعشرة أسماء مختلفة، بعشر جنسيات متباينة. والعلامات الفارقة في كل جواز غير فارقة أبداً.

هـزت سيلفيا كتفيهـا. لم تفهم لماذا يصر عـلى الاعتـراف أمـامهـا. أن يسلط الأضواء على الخبايا المعتمة في أغواره السحيقة. أن يتعرى كاشفاً عن عوراته الروحية والنفسية. ولكن ما لهاولفهم دوافعه. هـذا جزء من وظيفتهـا. والمبلغ الذي قبضتـه مقابل ذلك خيالي. ثم إنه أكثر لياقة من الزبائن السكارى الذين يختلفون إلى الملهى. ليتحدثوا عن مشاكلهم مع زوجاتهم بلغة مقززة.

إنطلقت السيارة في شوارع المدينة. التفتت سيلفيا إلى يـوسف وفكرت: مهـما كانت خطاياه بشعة، فإن الاعتراف بها سيخفف عن كاهله. آه لو يعرف أنني لم أسمع كلمة واحدة عن خطاياه. لو يعرف أن خطاياه ظلت غاره المهجور، لم تطأه نظرة منذ أزمان. ولا حتى نظرتي. آه لو يعرف أنه إذا مات أو قتل، فلن أتذكر من بقاياه سوى هاتين الشفتين اللتين تثرثران ثرثرة يتدخل فيهـا شاربـه، فتتحول الجمـل المفيدة إلى مفردات تعاني من عزلة موحشة. وتفتقر إلى الترابط.

ولكن.. ما هم! ما دام هو يحسب أنني أستمع، ومـا دمت أنا أقبض ثمن مـا يتوهمه... فليكن الطوفان.

قال لها وهو يفتح باب الشقة إنه محشو بالخطر كبندقية، ومسكون بالمرارة كإصبع المخلل. لكنها لم تسمع، لأنه انحنى فغطى شاربهُ الكث فمه كله.

تداعى على كنبة في الصالـة، فاختـارت سيلفيا الكنبـة المقابلة كي تتمكن من قراءة شفتيه. قال إن أحمد كان ازدواجياً توفيقياً ثنائياً. مثلاً كان يحاول أن يجد صيغة توفق بين التراث والمعاصرة، وبين الماركسية والقومية، وبـين الليبراليـة والاشتراكيـة العلمية. أقول لك إنه مصاب بانفصام. نعم كنت أبغضه. أحبـه، ولكني أبغضه. لماذا؟ لأنه كان يقتنص كل امرأة أصطادها. يختطفها من بين يدي. ولا يكتفي بذلك بل يقول بصوت مرتفع وبنبرة زهو وغطرسة:

ـ أنا فحل.

وهذا يعني أنني نقيضه. أي أنني عنين أو مخنث. وما كان يعرف أنه يمس بهذه الكلمة أخطر عصب يتحكم في توازني العقلي. (هـل تتحكم الأعصاب في التـوازن العقلي).. على كل حال. هل ترغبين في كأس من الويسكي؟ أنا سأشرب.

سعى إلى دولاب صغـير. استخرج زجـاجة ويسكي وتنـاول كأسـاً وعـاد إلى

مجلسه. سألته إن كان يرغب في أن تحضر له قطع ثلج. فقال إنه يحتسي الويسكي بلا ماء ولا ثلج. وأومأ لها أن تنهض وتجلس إلى جانبه. فتأبت وقالت إنها ترغب في رؤية المطر من خلال النافذة. وكانت النافذة خلف ظهره. قام هو وجلس إلى جانبها. سكب كأساً، وقال إن أحمد كان يزايد عليه في الجنس والسياسة.

وما عاد بوسع سيلفيا قراءة شفتيه. فشعرت بأنها دخلت شرنقة المجهول الخطر. وأتى على كأسه بجرعة واحدة، ثم وضعها جانباً وقال إن أحمد كان يتاجر بقضية أبيه. نعم يتاجر. كان يعكف على الخمرة أحياناً فلا يتركها إلا بعد أن يغمى عليه. فإذا وبخه أحدهم، نظر إليه نظرة لو نطقت لقالت:

«مر بالظروف التي أمر بها.. ولْنَرَ كيف ستتصرف».

نعم. كان يعلق كل بشاعاته على مشجب قضية أسرته الغامضة. فإذا لم يعلقها على هذا المشجب، علقها على مشجب آخر. كأن يقول: المقاومة رحلت عن بيروت.. ماذا تبقى لنا؟ وتريدني أن لا أسكر؟

كأنه كان يستعذب عذاباته. هل تعرفين أنه نقطة الضعف الوحيدة في حصن أبيه المنيع؟

أطرقت سيلفيا ولم تنبس. فظن يوسف أن حياة أحمد أو موته مسألة لا تعنيها. فغمره فرح منتصر مال نحوها وسألها إن كانت تحب أن تسمع أغنية لفريد الأطرش. قال إنه يملك كل أغانيه مسجلة على كاسيتات. ولما لم تحر سيلفيا جواباً. قال وماذا عن عبد الحليم حافظ. لا تقولي لي إنك لا تحبين سماع عبد الحليم حافظ. لا.. آه.. ربما تفضلين سماع موسيقى كلاسيكية. لا؟. لماذا تصرين على مشاهدة التلفاز؟ لا أستطيع أن أعترف وأنت تتفرجين على التلفاز.

سكب كأساً أخرى وقال:

- يقال في بعض الأمثال إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بأحدى ثلاث: إما بمشقة تناله في نفسه، وإما بخسارة في ماله، أو نقصان في دينه. ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

هذا ما قاله الحكيم بيدبا للملك دبشليم. أما أنا.. فلم أبلغ مرتبتي إلا بالأولى: مشقة نالتني في نفسي. أعرف أنك تحتقرين مهنتي. لكني أنا أيضاً أحتقر مهنتك. فإذا كنت أنت لا تحتقرين مهنتك. وأنا لا أحتقر مهنتي. فالنتيجة المنطقية

لهذه المقدمة هي أن كلينا لا يحتقر مهنة الآخر. أليس المنطق غير منطقي؟

٦

في تلك الليلة احتسى يوسف نصف زجاجة «جوني ووكر».

واستيقظ على صوت آذان الفجر، فاجتاحته نوبة نحيب هستيرية لم يعـرف لها سبباً. ولكز سيلفيا ففتحت عينيها الذابلتين. ولمحت الدموع تنهمر من عينيه، إذ كان ضوء الردهة مشتعلاً. فقالت:

ـ مالك؟

لكنه لم ينبس. ودفن رأسه في الوسادة. وقال إنه يرغب في أن يموت. ولم تسمع ما قاله. وظن أنها سمعت، وأنها أحبته أكثر.

قالت له:

ـ نم.. نم.. الدنيا منتصف الليل..

فقـال إنه يـرغب في أن يموت. وأن يلحق بـأبيه المـرحوم الحـاج محمود (اسم مستعار) قال إنه مشتاق إليه. وإنه الـوحيد الـذي كان يفهمـه. وهو يـريد أن يمـوت ليقابله. وما كانت سيلفيا تعرف أن «الحاج محمود» ليس والده وإنما زوج أمه وأنه كان يتكلم مـع يوسف بـالحذاء. كـان لسانـه حذاءه. وكلمـاته ركـلات، وأذن يـوسف مؤخرته. لم يقل يوسف إنهما كانا يتواصلان بهذه الطريقة. لم تفهم سيلفيا لماذا ينتحب هذا الرجل في منتصف الليل على نحو مباغت. أخذت رأسه بين يديها وقالت:

ـ نم..

وغنت له أغنية «نام يا حبيبي نام، تا اذبح لك طير الحمام».. فاستقر رأسـه على صدرها، وأرسل شخيراً مزعجاً لم تسمعه. لأن الشخير لا تنشره الشفتان. ولأن ضوء الردهة كان خافتاً. لم تعرف سيلفيا سوى أنه انتحب في منتصف الليل، ثم إنه مال برأسه على صدرها. وغفا.

وكانت ناعسة، وأحست أنه شخص معقد وحساس.. فأحبته لأول مرة. على الرغم من أنها لم تقرأ الشخير الذي أرسله صدره.

ثم استيقظ مرة أخرى قبل مطلع الشمس، ودس يده بين فخذي سيلفيا وقال: إنه كان حارس مرمى فريق المدرسة. وإن الجناح الأيمن والجناح الأيسر ضرباه، حين

سجل الفريق المنافس هدفا في شباكه. وقال إنه كان مجرد «جولجي». وأخبرها أن الجناح الأيسر شد بنطاله القصير إلى الأسفل، وأن الجناح الأيمن ركله على مؤخرته. وأخبرها أن هذا ظلم. وأنه ليس مسؤولاً عن همالة خط الدفاع. وأن الجناحين فعلا هذا أمام الجميع.

لكن سيلفيا لم تسمع، لأن الظلام والنعاس وعينيها الذابلتين لم تطالعا شفتيه. فنصحته أن يعاود النوم. فنام، وأطلق شخيراً مزعجاً لم تسمعه.

حين استيقظا في اليوم التالي قالت سيلفيا بصوت ناعس ضجر إن الخمرة تسبب له الأرق. وأمرته أن يقوم ويعد لهما فنجانين من القهوة، فقام.

وحين عاد حاملاً صينية القهوة قال إنه هش من الداخل. وخمن أنها تعاطفت معه. لكنها، ببساطة، لم تسمع ما قال. ولم تحتفل بقراءة شفتيه. واستوت جالسة، وفركت عينيها. ولم ترو له ما رأته من أحلام فيما يراه النائم.

وبينما كان يحتسي القهوة في السرير، إعترف لها أنه شخص تعس، ويرغب في أن يطلق كاتم الصوت بين عينيه. فهزت سيلفيا رأسها مجاملة، ولم تفهم. وقال، بلا مناسبة، إنه ليس غبياً، وإنه يسمع همس النمل، ويلتقط الفجاءة وهي طائرة. لكنه لم يعرف أن سيلفيا صماء. فهزت رأسها وقالت تعلق على ما لم تسمعه بلهجة سؤال:

ـ صحيح؟

ثم قام إلى الحمام وهو يترنح. وضع رأسه تحت صنبور المياه وهتف:

ـ بوسعك أن تنشري اعترافاتي بعد أن أموت.

لكن سيلفيا لم تسمع، لأن شفتيه كانتا بعيدتين وراء الجدار، أمام مرآة الحمام الخفية.

ولاحظت سيلفيا حين حانت منها التفاتة أن وسادة يوسف ما تزال مبللة بالدموع.

حين عاد يوسف من الحمام وقد بلل شعره، وغسل أسنانه قالت له إنها لا تحب فريد الأطرش. فلم يفهم. وقال في نفسه إنها إمرأة غريبة. علماً بأن أغلب المغاربة في باريس يحبون فريد الأطرش. وخلع منامته أمامها (وكان يرتديها بالمقلوب) ثم حدق إليها، وأدرك أنها لغز لا يعرف عنه شيئاً. لكنه لم يسألها، كي لا تختلط الأدوار.

وما كان يوسف يرغب في أن يبدد الوقت. فرقد على السرير وبدأ يعترف

بطريقته العشوائية. وكانت سيلفيا ترى قمة رأسه، ولا ترى شفتيه، فلم تسمع. قال إنه لا يستطيع أن يعترف وجهاً لوجه. وأشار عليها أن تقف وراءه وتستمع. لكنها لا تستمع، لأنها وقفت وراءه، بعيداً عن شفتيه. قال إنه قتل ثلاثة رجال حتى الآن. الأول عميل للموساد، والثاني صحفي ابن كلب لسانه سليط، ولا يفهم المرحلة. والثالث.. آه من الثالث.. الثالث أحمد.

كانت سيلفيا تقف وراءه وتحدق من خلال النافذة إلى الشمس. بدت شمس الصباح هادئة ورزينة. وقالت سيلفيا إن الشمس ستنفعل فجأة عند الظهيرة، وتصهر الأخضر واليابس. وإن كل شيء سيذوب، حتى الحجارة. كل شيء سيتحلل ويصبح بخاراً أبيض. لكن الشمس هادئة الآن، مسالمة، ومزاجها لم تعكره الظهيرة بعد. فالظهيرة ما تزال في ضمير الغيب. في رحم المستقبل. لكنها ستقبل بالضرورة. وهذا التوقع ليس نبوءة.

توسد يوسف ذراعيه وقال إن أحمد كان يتحدث طوال الوقت عن أمه. كان يقول إن والده دفع ثمن مواقفه. هذا مفهوم. ولكن ما ذنب أمي وأختي؟ ولم تفهم سيلفيا أنه يسأل. لكنها علقت على الرغم من ذلك:

ـ أوه..

فشعر يوسف أنها تتعاطف مع اعترافاته. مع أنها قالت «أوه» كما لو كانت تتثاءب. لكن توقيت «الأوه» جاء مناسباً.. صدفة.

أشعل يوسف سيجارة، ونفث دخانها في فضاء الغرفة، وقال إنه لم يعرف شيئاً عن الاثنين اللذين اغتالهما. لكن الثالث: أحمد. آه من أحمد. كم كان كئيباً وراغباً في الموت.

مالت سيلفيا نحوه ومسدت شعره، فانتفض كالملسوع. وأمرها أن تعود إلى مكانها، أن تقف خلفه. قال إنه لا يستطيع أن يعترف ووجهها فوق وجهه. فيممت وجهها صوب النافذة وراحت تتأمل شمس الصباح الباطنية. وفكرت في أن الشمس تلعب دوراً ماكراً، وتضع قناعاً مزيفاً. قرص هادىء خجول، سرعان ما سيتحول إلى سادي صاهر طائش. لكنه ينتظر الوقت المناسب بأعصاب باردة.

وقال يوسف وهو يرقد على الأريكة وقد رفع ساقاً وشبكها بساقه الأخرى، إنه ليس شريراً كما قد تعتقد سيلفيا. وأكد لها أنه أحب عدة نساء في حياته. وأنه بكى

مرات عديدة. أنا إنسان، قال. إنسان وسيم ورشيق وقوي ووضيء، على الرغم من العتمة الداخلية، والهشاشة الجوّانية. وقال: إنه يقتل لأنه هش من الداخل. صحيح إنه رجل رياضي (وقد نال مداليات فضية في سباق الضاحية) لكنه هش من الداخل.

قال: إنَّ أحد معارفه قال له ذات مرة إنه سمع عن إدمانه، وإنه سمع أنه حين يسكر يرفع قدمه ويضرب المناضد. فابتسم ابتسامة غامضة وقال للرجل: إن الحياة لا تستحق إلا احتجاجاً بحذاء. مثلما فعل خروتشوف في الأمم المتحدة. لكنه لا يتذكر أنه ضرب طاولة بحذائه. وأنه لا يتعاطى الخمرة أبداً.

والتفت يوسف إلى سيلفيا فقال إن الجو في الخارج متجهم مثل وجهها. وقال لسيلفيا إنه حين أطلق النار على المتعامل مع العدو، شعر ببرودة قارصة، على الرغم من القيظ اللاهب.

ثم أشعل سيجارة وقال وهو يضيق ما بين عينيه: إنه لم يكن متأكداً من تعامل **المغدور مع العدو. ثم نفث دخان سيجارته وقال: لكن الرجل الغامض أكد ذلك. وقالت له سيلفيا إنها تلعب دور غانية في ملهى لتكتب كتاباً عن اعترافات السكارى. فقال إنه سيموت قبل أن تموت هي. ولا مانع لديه** من **أن تكتب اعترافاته. ثم راح يحدثها عن قضية الشرق الأوسط**، وقال: إنَّ عدم حلها حلاً عادلاً سيدفع الناس إلى يأس جنوني. وكان سحّاب بنطاله مفتوحاً، على الرغم من عطلة نهاية الأسبوع.

حين أشارت إلى «دكانه» المفتوح. امتلأ فمه بالضحك وقال إنه يفتح دكانه في «العطلات» أيضاً. ثم أخذ رأسه بين يديه. وقال: إنه لا يزال يعاني من آثار خمرة أمس.

٧

قال يوسف إنه لا يحبذ الخروج من الشقة، لأن العالم الخارجي مليء بالمخاطر. ووصف الشوارع بأنها حقول ألغام. لكن سيلفيا أعلنت عن ضجرها وبوزت وقطبت. إقترح يوسف عليها أن يلعبا الورق. فقلبت شفتها السفلى وهزت منكبيها. ثم كتفت ذراعيها وشبكتهما على صدرها. قام يوسف ودار في الصالة كأنما يبحث عن وسيلة لتسليتها. وبعد تفكير وبحث لم يجد وسيلة أفضل من متابعة اعترافاته. هذا حقه. ألم يشترِ أذنيها؟

قال إنه لم يشعر بالذنب بعد أن اغتال العميل والصحفي، لأنه ما كان يعرف عنهما شيئاً.

كانت سيلفيا تجلس على أريكة مجاورة لأريكته، فعجزت عن قراءة شفتيه. ورفعت ساقيها وطوتها تحتها وجلست عليها، ثم شدت فستانها إلى الأسفل حتى يحجب ركبتيها عن عيني يوسف. لكن الفستان كان قصيراً، ولم يحجب ركبتيها عن عيني يوسف.

وقال يوسف إنه دلف إلى مكتب الصحفي في قبرص. فسأل السكرتيرة عن غرفة الصحفي. وكانت السكرتيرة ذات شعر قصير مثل حياة الصحفي. وقال: إنه لاحظ أن أظافرها مطلية بلون أحمر فاقع، فشعر بالتقزز، لأنه يعتبر اللون الأحمر الفاقع على الأظافر دليل ابتذال. وأشارت السكرتيرة بإبهامها ذي الظفر الأحمر الفاقع إلى غرفة الصحفي المأجور. وسألت يوسف:

ـ نقول له مين يافندم؟

فأدرك أنها مصرية. وقال إنه سعى نحو الغرفة بخطى واثقة، وقرع الباب بلياقة، ثم فتحه. فرأى رجلين أنيقين يتباحثان ويحتسيان القهوة. وكان كل منهما يجلس وراء طاولة، تزدحم عليها أوراق وصحف.

وأخبر سيلفيا أنه لاحظ أن أحدهما يضع غليوناً في فمه. فتمنى أن يكون هذا هو هدفه. لأنه يكره المثقفين ورائحة تبغ غلايينهم. وقال إن صورة الصحفي التي كان يحملها في جيبه لم تكن واضحة. ورفع الرجلان رأسيهما إليه، وتطلعا بنظرات ترحيبية مستطلعة. قال يوسف إنه وقف بالباب وسأل بأدب أيهما فلان. فوقف فلان من وراء منضدته وابتسم، وكاد يمد يده ليصافح يوسف، وقال أنا فلان. فقال يوسف:

ـ وأنا سعيد شعبان.

فمد فلان يده وصافحه وقال:

ـ فرصة سعيدة. أية خدمة؟

وقال يوسف إنه في تلك اللحظة دس يده في جيبه، وتناول مسدسه الكاتم للصوت، وأطلق رصاصة واحدة استقرت في أذن الصحفي كالهمسة وقال إنه التفت بحركة سريعة نحو الآخر، فرآه يفغر فاه ويهبط ليتوارى تحت طاولته وهو يغمغم بصوت مخنوق:

ـ دخيلك . . دخيل عرضك .

ثم عاد يوسف والتفت إلى الصحفي القتيل، فرآه مائلاً إلى مقعده كنائم يحلم حلماً وديعاً. وكانت ملامح وجهه وديعة وحالمة أيضاً. وقال يوسف إنه تقدم منه، وفتش جيوبه. فعثر على مبلغ كبير من المال في جيبه اليمنى. وحبة شوكولاته في الجيب اليسرى. فأخذ حبة الشوكولاته وترك المبلغ. قال إنه ليس لصاً. . لكنه يحب الحلوى.

ثم انصرف بهدوء، ودون أن يعترضه أحد. لأن الصحفي الثاني استقر تحت الطاولة ولم يخرج. والسكرتيرة لم تسمع صوت الرصاصة. وعندما مر بالسكرتيرة في طريقه إلى الخارج، ناولها منديلاً ورقياً. ولم يقل لها أن تمسح خيط الدم الرفيع الذي سال من أذن الصحفي. فشيعته بنظرة ذاهلة. لأنها لم تفهم لماذا ناولها المنديل.

وأحست سيلفيا بالجوع. فوقف يوسف أمامها ينتظر تعليقاً.

فطنت إلى مأربه فقالت:

ـ أوه . . لقد مررت بمآسٍ هائلة، يا رجلي الحزين.

جحظت عينا يوسف دهشةً. لم يتوقع تعليقاً كهذا. ثم قال لنفسه إنها إمرأة غريبة الأطوار. لكن سيلفيا لم تكن امرأة غريبة الأطوار. إنها إمرأة تحترف سماع ثرثرة السكارى، والذين يعانون من العزلة والوحشة. كانوا يترددون على الحانة التي تعمل فيها. يأمرون لها بكأس ويسكي مغشوش، وفي ظلمة الملهى ذي الأضواء الخافتة الشاحبة، يبدأون بالشكوى، ولوم الحياة. يكشفون أوراق عريهم، وهم يحتسون الويسكي غير المغشوش. وكانت سيلفيا تعلم أنهم يتوقعون منها أن تنطق بكلمات متعاطفة بين الحين والآخر، بعد أن ينشروا كل غسيلهم المتسخ أمامها. كأن تقول:

ـ آه يا عزيزي . . كم تعاني.

أو:

ـ لقد أسرفت الحياة في القسوة عليك.

أو:

ـ أوه . . لا أدري كيف تستطيع أن تحتمل هذه المعاناة كلها. لا شك أنك تملك أعصاباً حديدية.

أو:

ـ أوه . . أيها الحزين . . آلامك تفوق طاقة البشر. ولكن ما العمل؟ اشرب.

اشرب. ودعني أشرب معك كأساً جديدة. نخب غدٍ أفضل.

وكانت تعرف أن غد السكير المعترف الحزين لن يكون أفضل. لأنه أسرف في احتساء الخمرة. وسيشعر حين يستيقظ في الغد، عند الظهيرة، بالغثيان.. وبدوار رهيب في الرأس.

والتفتت سيلفيا لتقرأ حركة شفته السفلى. لكنها لم تفهم سوى مفردات تفصل بينها عزلة غير منطقية، ووحشة ضيقة. وتساءلت في نفسها: يبدو أنه يتحدث طوال الوقت عن أحمد. ذلك الشاب ذي العينين الكثيبتين الذي كان يرافق يوسف حين التقتها لأول مرة. هي أحبت أحمد.. ترى هل يحبه إلى هذه الدرجة؟ لكنها لم تسأل. ولم تقل إنها أقامت علاقة معه. وأنه ينتظرها بعد أن تنطوي عطلة نهاية الأسبوع في عمان.

تحاول قراءة حركة شفتيه، فيحول شاربه دونها، ويحاول يوسف أن يقرأ عينيها ليكتشف ردود فعلها على اعترافاته، فتحول تلك النظرة الباردة الميتة دونه، يجوس بعينيه خلال صفحة وجهها، فتحول الملامح الجامدة دونه.

لماذا لا تحكي عيناها؟ لماذا لا تحكي ملامحها؟ تساءل يوسف وهو يتناول كأساً من الويسكي. أي قناع يجلل وجهها، تساءل وهو يرفع الكأس إلى شفتيه. ولكنها مستمعة من طراز رفيع، قال لنفسه وهو يرتشف من الكأس.

إنحنت سيلفيا بجذعها إلى أمام، وتناولت علبة السجائر عن المنضدة. قالت إن يوسف يسرف في معاقرة الخمرة. وبعد أن أشعلت السيجارة ونفثت دخانها في الهواء. قالت بلهجة من يؤدي واجبه باتقان:

ـ أيوه.. وماذا حصل بعد ذلك؟

ولم تكن سيلفيا تعرف ما الذي حصل قبل ذلك، لا.. ولا تعرف ما هو «ذلك». لكنها كانت، ببساطة، تؤدي واجبها.

وظل يوسف يثرثر، وهي تفكر في يوم الاثنين، وفي عمان.. حيث ستلتقي بأحمد ذي العينين الكثيبتين.

٨

لا، أنا لا أشعر بـالذنب. قـال يوسف لسيلفيـا التي كانت تسمـع اعترافـاته بعينيها. لأن أحمد كان يرغب في الموت ولا يجرؤ على قرع بابه. كان يقول كلاماً مبهماً وينتحر ببطء. يدخن ثمانين سيجارة يومياً، ويأتي على لتر عرق كل ليلة.

هـل تـذكـرين كيف كـان يجلس أمـامـك في الملهى؟ كـان يجلس جلسـة من يستهزىء بالعالم. . وبنفسه.

قرأت سيلفيا حركة شفتي يوسف، ونجحت أخيـراً في فهم مـا يقول. كـانت تجلس في مكان مناسب مقابله وتسمع بعينيها. وتذكرت فعلاً كيف كان أحمد يقـول كلاماً واضحاً غريباً. كلمات واضحة تشكلها شفتاه، لأنه لا يطلق شاربه. سألته عن عمره، فقال إنه يعيش الآن فائض عمـر. عاش حيـاة غنية حتى بلغ الثـلاثين. ثم استقال من الحزب. . أي من الحياة. ثم خرج مع من خرجوا من بيروت. فكان هذا الخروج هو القشة التي قصمت ظهر البعير.

وهكذا فإنه يعيش الآن عمراً فائضاً. لا يمكن أن تنسى تينك العينين الحزينتين. لم تر سيلفيا عينين حزينتين كعيني أحمد. اللهم سوى عيني يوسف.

أتى يوسف على كأسه الرابعة. فقالت سيلفيا إنه يسرف في تناول الخمرة. رفع نحوها عينين جمريتين وقال إنها هي أيضاً تسرف في شرب النسكافيه. . والصمت.

بغتة، ضرب قبضته على زجاج المنضدة بقوة. تحطم لوح الزجاج ونفر الدم من يد يوسف. همت سيلفيا بأن تنهض، فأمرها بالجلوس. أخذ رأسه بين كفيه وغمغم:

ـ كان هشاً وينتحر ببطء. وفكرت بأن قتله أشبه ما يكون بانتزاع تلك الأجهزة التي تبث حياة مصطنعة في جسد رجل ميت ـ حي. رجل نباتي صدمته سيارة ففقـد وعيه. ماذا يعني الإنسان بلا وعي؟

ستقولين إنني أبحث عن مبررات ليستريح ضميري. ربما؟ لكنه كان يسيء إلى نفسـه وإلى قضيته. يلم بـالحانـات ويقـول لمن هب ودب إنـه فصـل من التنـظيم. ويصرخ. . يعني فصلت من الحياة. لكنه استقال، ولم يفصل. أنا الذي فُصلت. مرة أشرت عليه بأن يقدم طلب انتسـاب جديداً، ويكتب نقداً ذاتيـاً. فأرسـل ضحكة مجلجلة مريرة. وهتف:

ـ المؤسسة لم تعد مؤسسة، مثلما لم تعد بيروت التي نعرفها بيروت.

ورفض فكرة العودة إلى ما لم يعد ذاته. فإذا حاولت أن أثنيه عن المبالغة في معاقرة الخمرة قال:

ـ ألا يسأم الزمن من وظيفته؟ ألا تضجره مسيرته الرتيبة؟ الزمن لا يعرف الضجر لأنه لا يعرف وجهه.

وكنت أجلس إلى جانبه في الحانات، أنفخ ضجراً، أكتم غيظي.. وأحاول أن أحميه من السكارى الذين قد يستفزهم.

ذات مرة اعترف لي أنه مل التشرد والتجوال في عواصم العالم. وأنه يرغب في العودة إلى مسقط رأسه. كم فرحت حين سمعته يقول ذلك. وفعلاً عاد إلى مسقط رأسه. ولكن ما إن استقر هناك سنة، حتى عاد إلى بيروت، عودة من يهرب من نار تكاد تمسك بتلابيبه. لماذا؟ قال لأنه انضم مرة إلى مجموعة إعتزمت القيام بمظاهرة ضد السفارة الأمريكية بعد إحدى الغارات على إحدى الدول العربية. أية غارة يا ترى؟ لا أذكر بالضبط. ربما الغارة الاسرائيلية على تونس، أو الغارة الاسرائيلية على المفاعل النووي العراقي، أو الغارة على طرابلس أو صيدا أو الغارة الأمريكية على ليبيا، أو غارة البوارج الأمريكية على جبل لبنان.. لا أذكر بدقة. على أية حال. قال إنهم قضوا الليل كله وهم يخيطون علماً أمريكياً ليضرموا فيه النيران أمام السفارة.. في اليوم التالي.

قال إنهم توافدوا من الأزقة المجاورة للسفارة، وتسللوا من كل حارة ضيقة، وهرعوا من كل منطقة، حتى إذا اجتمع لفيفهم، وتألف جمعهم اكتشفوا أن عددهم لا يتجاوز الخمسين. لكن هذا الاكتشاف البائس لم يحبطهم. فتقدموا إلى السفارة مجتمعين، وأنشأوا يهتفون ضد أمريكا. وعندما عزموا على إحراق العلم، لم يعثروا على علبة ثقاب. فارتبكوا. وكان رجال الشرطة يتأملونهم بصبر وهم يلوحون بهراواتهم دون أن يستعملوها. مين معه قداحة؟ مين معه كبريت؟ مين معه ولعة؟ صاروا يسألون.

ووقف المارة يتفرجون على هذا المشهد المثير. في هذه الأثناء لمح أحمد فتاة ذات شعر طويل وحقيبة صغيرة سوداء تقف بقربه وتتفرج. ولمح بقدرة قادر آثار نيكوتين على أصابعها، فأدرك أنها مدمنة تدخين، وأنها تحمل في حقيبتها ولاعة.

إندفع نحوها اندفاعة ثور هائج (تذكري أن الوضع كله متوتر ومثير للأعصاب) وصرخ في وجهها:

ـ هاتي ولعة.

فجزعت الفتاة. ولم تفهم. وتراجعت خطوات إلى وراء وقد جحظت عيناها. لكن أحمد (المتوتر المرتبك) حاول أن ينتزع حقيبتها من يدها بحركة عنيفة. غير أن الفتاة تشبثت بحقيبتها. صفعها أحمد ورماها بالعمالة والخيانة العظمى، ثم عضها من ذراعها العارية، إذ كانت ترتدي (بلوزة جابونيز) أي قميصاً محفوراً عند الكتفين. فما كان من الفتاة سوى أن قبضت على ياقة قميصه ودفعته دفعة أفقدته توازنه، فترنح وسقط أرضاً. ووقعت من جيب قميصه هويته الشخصية، لكنه لم يرها. إذ انشغل في محاولة التملص من بين أقدام المتظاهرين، وأحذية رجال الشرطة التي بدأت تتدافع وتتراكض ولم يدرك أحمد أن شاباً من المتظاهرين أفلح في العثور على عود ثقاب وأنه أضرم النيران في العلم ـ الذي قضى أحمد وآخرون ساعات طويلة وهم يخيطونه ـ واحترق العلم في ثوانٍ. لكن أحمد لم ير هذا المشهد المثير. إذ كان يحاول أن يتجنب الأقدام المتدافعة. ثم إنه نجح في القبض على ساق شرطي، فاعتمد عليها ليقف منتصباً. إلتفت إليه الشرطي ذو الوجه الشاحب، وسأله إن كان من المتظاهرين. ثم نصحه أن ينصح المتظاهرين بالتفرق. لكن المتظاهرين أصروا على أن يسعوا إلى السفارة البريطانية أيضاً ليشتموا الاستعمار القديم، بعد أن شتموا الاستعمار الحديث. وتنشق أحمد رائحة دخان العلم الأمريكي. كانت رائحة كريهة.

قال ضابط من الشرطة بقلق ظاهر إن المتظاهرين عطلوا السير. وأنهم إذا أصروا على المضي نحو السفارة البريطانية.. فلن يحصل خير ونصحهم بأن يكتفوا بما فعلوه أمام السفارة الأمريكية. لكن المتظاهرين أصروا.. فلم يحصل خيرٌ.

هذا ما قاله أحمد لي. وقال إنه أكل «عصايتين» على مؤخرته.. ونفذ بجلده. لكن القصة لا تنتهي هنا، فقد مر به شرطي في اليوم التالي وقال له إنه مطلوب. ظن أحمد أنه مطلوب بسبب المظاهرة. فأكد للشرطي أنه صحفي. وأن وجوده في المظاهرة كان وجوداً مهنياً. وأخبره إنه محرر الصفحة الاجتماعية في إحدى الصحف.

قلب الشرطي شفته السفلى، وبدا أنه لم يسمع كلمة واحدة مما قاله أحمد. أو أن التبرير لا يعنيه. إنقلب الشرطي على عقبيه ومشى، فمشى أحمد في ظله، ومشت الحيرة مع أحمد.

حين قال رئيس المخفر إن امرأة تقدمت بشكوى ضده، ظن أنها الفتاة التي عض ذراعها بحقد كمن يعض ذراع الاستعمار. لكن الضابط أكد له أن المسألة لا

تتعلق بـالاستعمار، قـال إن المشتكي يتهمـه بنشر صـور معينـة تستهـدف التشهير بزوجته. وأن الزوج ينتمي إلى عشيرة ذات سطوة وبأس، وقوة ومراس.

فغر أحمد فاه وردد كالأبله:

ـ تشهير؟

قال الضابط وهو يطرد ذبابة عن عينيه: إن الصحيفة التي يراسلها أحمد نشرت تحقيقاً عن مسابح البلد. تضمن التحقيق صورة زوجة هذا الـرجل الـوجيه وهي في ملابس السباحة. وقد أقامت العشيرة الدنيا ولم تقعدها. وقد أقسم أحد أفرادها على الانتقام من أسرة أحمد، وقتل أكبر رأس في عشيرته، وتصفية وجه السحارة في أسرته. لكن أحمد كان مقطوعاً من شجـرة. وشجرة أسـرته مـزروعة في بيت بـلاستيكي أو زجاجي في عاصمة أخرى. وقال أحمد للضابط عندما نصحه هذا بصلح عشائري، إن عشيرته لا تتجاوز «القردين والحارس» هنا.

وهذا صحيح، يا سيلفيا، لأن أحمد حمار. لم يفعل مثلما فعل ابن المقفع. هل تدرين ماذا فعل ابن المقفع يا سيلفيا؟ عاش ابن المقفع مولى لآل الأهتم، وكان هؤلاء ممن اشتهروا بفصاحة اللفظ، وحلاوة المنطق ـ كما جاء في كتاب كليلة ودمنـة ـ وكان من عادة الأعاجم أن يولوا وجوههم شطر قبيلة عـربية أو عـائلة كريمـة، يصلون بها حسبهم، ويفيدون منها منعة وحرمة، برابطة الولاء، فكـان أن اختار ابن المقفـع آل الأهتم، وكان أن قبل هؤلاء ولاءه ، وأنزلوه عندهم خير منزلة. . .

أحمد الحمار لم يفعل ذلك. فقد كان خارج دائرة الأمان ـ لا عشيرة ولا منظمة ولا مؤسسـة ـ لكن مسقط رأس أحمد وأمـه ـ لحسن حظه ـ مـدينة ظلت العـلاقـات الشخصية والإنسانية بين الناس فيها قوية، ولا تخلو من النخوة والشهامـة. وأواصر الصداقات والوساطات فيها ظلت فعالة محافظة على قوتها. برغم اتساع المدينة، بعد ارتفاع أسعار النفط.

وهكذا بدأ أحمد يسأل عن شخص أو أشخاص يمونون على زوج المـرأة، ولهم دالة عليه. وبعد البحث والتقصي اكتشف أحمد أن الـرجل الملتـزم ـ صديق والـده ـ الذي جاء إلى المخفر وكفله، كان زميلاً للزوج. فلجأ أحمد إلى الرجل الملتزم ـ وهو ذو تاريخ عريق في النضال ـ فاتصل هذا بزوج المرأة، وحاول أن يقنعه بأن الصلح سيد الأحكام. وأن جرجرة أحمد وجرجرته. . وربما جرجرة زوجته إلى المخافروالمحاكم فيها إساءة للجميع. لكن زوج المرأة رفض الصلح بإباء وشمم.

واحتج أحمد فتساءل: أي إثم يكمن في ظهور امرأة ترتدي ملابس السباحة في صورة؟ لكن زوج المرأة أكد أنه لا يسمح لها بالسباحة إلا في الأيام المخصصة للنساء فقط.

فسأله الرجل الملتزم العريق:
ـ كيف دخل المصور وأحمد إذن إلى المسبح؟

وأكد أن الشرطة ستجري تحقيقاً في الأمر. وإذا ثبت أن الزوجة كانت تسبح في يوم غير مخصص للنساء فقط، فإن شقيقها، وهو عربيد متعصب غليظ، سوف يحاسب الزوج أولاً.

وهنا أطرق الزوج على الجانب الآخر من خط الهاتف، كأنما يقلب الرأي. ثم قال إنه من أجل لحية الرجل العريق (وهو غير ملتح ويحلق يومياً) ومن أجل قيمته في قلب الزوج، ومن أجل خاطره.. سوف يوافق على إسقاط الدعوى. لكن هذا التصرف الكريم يقتضي تشكيل جاهة لتطييب الخواطر وتهدئتها.

وافق الرجل العريق من فوره. وفطن إلى ما يدور في خلد الزوج. شكره، ثم أعاد السماعة إلى مكانها. ورمق أحمد بنظرة لو نطقت لقالت:

ـ أي ورطة هذه؟ ونحن ما علاقتنا بك وبمشاكلك؟
لكنه لم يقل. فقد كان يكن احتراماً خاصاً وتقديراً متميزاً لوالد أحمد.

* * *

٩

في الموعد المحدد، مضت جاهة كريمة تضم نصف أعضاء قيادة الفصيل الوطني، ـ الذي يمثله الرجل المناضل ـ إلى بيت الزوج، فاستقبلهم الزوج ووجهاء عشيرته وشيوخها. وبدأت إجراءات الصلح ـ التي لم تكن تقليدية ـ بين الطرفين. وبعد أن تحدث كبير الملتزمين عن طمع الجاهة الكريمة في حلم الزوج وفي نخوته وشهامته، وبعد أن أكد أن شهرة هذه العشيرة بالذات في الكرم والعفو عند المقدرة قد جابت الآفاق، طلب من الزوج أن يصفح عن هذا الولد الطائش. ورجاه أن يعتبره مثل إبنه. وتساءل:

«ألا يخطىء الابن ويرتكب أعمالاً صبيانية، فيغض والده الحليم الطرف

أحياناً؟» لكن الزوج أصر وألح على معاقبة أحمد باعتباره محرر صفحة شؤون المجتمع، ومراسل مجلات أخرى تصدر في باريس ولندن. وقال إنه لا يدري إن كان هذا الولد قد أرسل صور زوجته إلى تلك المجلات. لأنه لا يقرأ أبداً. ولولا الصدفة لما رأى صورة زوجته في الصحيفة. إذ لفت انتباهه إليها موظف من موظفيه. وأضاف أن أحمد والمصور أيضاً يشكلان خطراً حقيقياً على هذا المجتمع المعروف بمحافظته. وأكد أن ظهور زوجته في الصورة بهذا الوضوح يحمله على الاعتقاد بأن أحمد والمصور إختارا زوجته بالذات، من بين جميع النساء السابحات، للإساءة إلى سمعته ومكانته الاجتماعية والاقتصادية. خاصة وأنه يعد نفسه لخوض معركة الانتخابات القادمة. وبالتالي فهو لا يستبعد وجود مؤامرة سياسية وراء هذه الصورة. وقال إنَّ الصورة ليست بريئة.

وعندما ناشده آخرون وألحوا عليه أن يعفو عن أحمد لما عُرف عنه من نخوة وحلم. هز رأسه بأسى، وأقسم أنه يقدر للفصيل ما تجشمه من عناء تقديراً عالياً. وأنه لن يردهم خائبين. وبالتحديد لأن الفصيل أرسل أعضاء الصف الأول في وفد الجاهة، ولم يرسل كوادر الصف الثاني أو الثالث. مما يدل على تقدير الفصيل للعشيرة.

ثم دارت فناجين القهوة المرة. وتبادل القوم القبلات.
وقال الرجل الملتزم ـ صديق والد أحمد ـ لزوج الضحية:
ـ بارك الله بك، لن ننسى لك هذا الموقف الكريم أبداً.

ولم ينس أحمد هذا الموقف أبداً.

* * *

حين خرج وفد الجاهة من بيت الزوج الكريم، التفت الرجل الملتزم ووبّخ أحمد. قال له إن الفصيل لا يتدخل عادة إلا لحماية أعضائه. وأن الفصيل لن يفزع له مرة أخرى. ونصحه بتجنب المشاكل، وأشار عليه بالانصراف عن صفحة المجتمع بالذات، خاصة وأنه لا ينتمي إلى عصبة قادرة على حمايته. وضرب مثلاً على ذلك فقال إنه يعرف قاصاً محلياً كاد يُقتل عندما كتب قصة هاجم فيها الإقطاع في منطقة معينة. وأكد أن قائمة إقطاعيي تلك المنطقة قامت ولم تقعد. وظن كل منهم أن القاص يقصده هو دون غيره.

قال أحمد إنه شعر بالعري. وبأنه غريب ومقطوع من شجرة. وقال إنَّ كلام

الملتزم العريق صحيح. فليس من المعقول أن يفزع فصيل سياسي لشاب لا ينتمي إليه. ولماذا يفزع في هذا الحالة؟ لا.. لن يفزع له أحد من أجل سواد عينيه. قال.

وقال يوسف لسيلفيا إن الغريب في الأمر، أن عيني أحمد ليستا سوداوين على الإطلاق.

* * *

١٠

قالت سيلفيا إنها ستغسل الملابس والستائر والشراشف، لا خدمة ليوسف، لأن الغسيل غير منصوص عليه في عقدهما الشفهي ـ وإنما لتقتل الوقت.

وكانت آلة الغسيل معطبة. فتناولت سيلفيا وعاء معدنياً كبيراً وبدأت تلقي فيه ما تجمعه يداها من الغرف. وراح يوسف يتقفى أثرها، ويتبعها من غرفة إلى أخرى، والكأس في يده.

قال لها إنه عاجز عن فهم أسباب استيائها. وأكد على حقه في انتزاع إعجابها، لأنه لم يحاول أن يضاجعها ولو مرة واحدة، ولأنه لا يعاملها كامرأة.

إنحنت سيلفيا وتناولت أغطية السرير. ثم سعت إلى الخزانة حيث الملابس المتسخة ترقد في قعرها. وقف يوسف بباب الغرفة، ورمق جسدها المقوس المنثني نحو قعر الخزانة، فومض في عينيه بريق نشوة خرافية. كانت سيلفيا ترتدي بنطالاً من الجينز. وبدا ليوسف أن انحناءة جذعها مثيرة. وقال لنفسه إن عدم ممارسة الحب معها، سيثير حنقها وحنقه، وهذا ما يستعذبه يوسف.

بدأ العرق يتصبب من جبينه، لكنه لم يحفل بتجفيفه. سألها إن كانت تخافه. فلم تلتفت ولم تنبس.. ولم تسمع. إنقلبت سحنته وأظلمت، وبدت ملامحها متجهمة عابسة. زعق بعصبية ونزق:

ـ ينبغي أن لا تخافيني. أنا لا أتحرش بالنساء. الزنى أكبر الخطايا. أحمد كان يطارد النساء، ويصطاد بعضهن أما أنا.

سكت فجأة ودنا من سيلفيا في صمت. ثم جلس على السرير المجاور للخزانة. وراح يحدق إلى مؤخرتها ويرتشف من كأسه. قال إن أحمد كان ضعيفاً أمام النساء. أما هو ـ يوسف ـ فقد كان يفرض عليهن سيطرة كاملة. لماذا؟ لأنه لا

يطالبهن بممارسة الحب معه. لأنه متحرر من إلحاح ضرورات الطبيعة.

نهضت سيلفيا منتصبة، وحملت ملاءات السرير وبعض القمصان، وسعت إلى الحمام. قذفت بها إلى الوعاء المعدني. ومسحت بذراعها على جبينها. لحق يوسف بها وقال لها إنه سيطر على أحمد تماماً بعد أن عاد هذا من بلده. وقال لسيلفيا إن تعليماته كانت واضحة: أقتل أحمد لإلصاق التهمة بالجهة التي لن يختلف اثنان بأنها تقف وراء الجريمة. وفكرت في المسألة طويلاً. كنت أكن لذلك الرجل الذي أصدر لي الأوامر احتراماً كبيراً. أقف بين يديه بخشوع. أتدرين لماذا؟ لأنه قوي وصلب. أحمد كان هشّاً. حين التقيت به في بيروت أقنعته بأنه مستهدف، وأنني على استعداد لحمايته. ومرافقته ٢٤ ساعة. كان يجب علي أن أسيطر عليه تماماً. أن أحوله إلى شيء من أشيائي، إلى مقتنى من مقتنياتي.

وقامت سيلفيا وراحت تبحث عن مسحوق الغسيل. ودلفت إلى المطبخ، فدلف يوسف خلفها. وفتحت خزانة من خزانات المطبخ، وبحثت بعينيها عن المسحوق فلم تعثر له على أثر. فقال يوسف إنه لم يوافق على قتل أحمد إلا بعد أن أدار قداح رأيه، وقلب وجوه الأمر طويلاً. قال:

ـ ثم أنبأت الرجل القوي الصلب الذي أحترمه وأرتعش بين يديه أنني موافق.

فتحت سيلفيا خزانة أخرى من خزائن المطبخ. وقالت ليوسف:

ـ أكمل.. كلي آذان صاغية.

لكنها تسمع بعينيها، وعيناها ليست عليه. وبدأ يوسف يبحث معها عن مسحوق الغسيل. ففتح دواليب أخرى. وقال إنه سيطر على أحمد في بيروت تماماً. واقتنع أحمد بضرورة وجودي إلى جانبه لحمايته من الخطر. إذ كان يعرف أنني مدرب ومقاتل محترف. كان قلقاً مرتبكاً، فلما عرضت عليه الحماية اطمأن وطلب مني أن أنتقل وأقيم معه في شقته. ومنذ تلك اللحظة وأنا أتحكم بتفاصيل حياته ومصيره. أما ...شراء فقد تكفلت بها سيارة ملغومة.

وهنا اشتعل وجه يوسف بلذة جارفة أشبه بلذة الرعشة الجنسية. وفي تلك ...لة أيضاً هتفت سيلفيا بفرح:

ـ وجدته.. وجدته.

وحملت مسحوق الغسيل بين يديها، بحرص من يحمل خابية طافحة بالكنوز.

خرجت من المطبخ وانفتلت إلى الحمام. فتبعها يوسف وقال إنه بات يحدد الأماكن التي يتردد عليها أحمد. فإذا قال أحمد إنه يرغب في أن يتناول طعام العشاء في المطعم الفلاني، اعترضت لأسباب أمنية. وقلت إن لهذا المطعم ثلاثة أبواب. واحداً أمامياً وواحداً خلفياً وواحداً جانبياً، وإننا لا نستطيع مراقبة كل الأبواب في وقت واحد. فيضيق أحمد ما بين حاجبيه ويتمتم بصوت خفيض ذاهل:

- إذن.. ماذا تقترح؟

فأقترح عليه مطعماً آخر بباب واحد. آه كم كنت أستمتع بهذه اللعبة. لماذا لا تستقرين على الكنبة وتسمعين. هذا ليس وقت الغسيل!

لم تلتفت سيلفيا، ولم تنبس. فقبض على ذراعها بقوة وزعق أنه لا يحب النسوة «النماريد». وقال إنه فكر في استدعاء صحفية مثقفة للإدلاء لها بهذه الاعترافات. لكنه عدل عن رأيه لأنه لا يستطيع التحكم بإمرأة مثقفة. وأكد أن النساء المثقفات «نماريد» وأنه يتمنى لهن الموت. وزعق مرة أخرى في وجه سيلفيا وقال إنه من الأفضل لها أن تفعل ما يأمرها به. فتركت وعاء الغسيل، ومضت إلى الصالة وجلست مثل تلميذ مؤدب على أحدى الكنبات. قال يوسف إنَّ هذا أفضل، وإنه لا يحب أن يكرر أوامره مرتين. ومضى إلى المنضدة وسكب من زجاجة الويسكي كأساً أخرى. جفف عرقه بكفه، ثم مسح عرق يده على المنضدة المغبرة فترك مساحة نظيفة عليها.

قال يوسف لسيلفيا إنها شيء من أشيائه. ألا يدفع لها ثمن الإصغاء؟ وراح يذرع الصالة حاملاً كأسه بيده. وقال إن تلك الفترة التي قضاها مع أحمد، كانت من أجمل فترات حياته. كان أحمد أشبه بطفل صغير، وكنت أسيطر عليه تماماً. لا تذهب إلى هناك. إذهب إلى هنا. لا تفعل ذلك إفعل ذاك. فإذا أحسست منه بادرة تمرد وضيق، أخبرته أنني أفعل ذلك لحمايته، وحرصاً على مصلحته. وأنه حر.

وبوسعه أن يرميني إلى الشارع متى شاء. لكن أحمد الطفل بدأ يضيق فعلاً من سيطرتي. وبدأ يكبر.. وتكبر إرادته وتستقل. وقال لي ذات مرة إنه لا يستطيع أن يعيش هكذا. في كابوس وهاجس الاغتيال. وقال إنه لن يموت إلا مرة واحدة. فإن شاءت جهة أن تقتله.. فلتفعل. أما أن يعيش هكذا، حذراً، فزعاً، متحوطاً حد الهوس.. فلا.

وأدركت أن رغبا‍ت   طاق سيطرتي المحكمة. فقر قراري على اغتياله. قلت: آن الأوا‍ن

دعوته ذات ليلة إلى مطعم صغير يقع في شارع شبه مقفر. قلت دعنا نتناول عشاءنا هناك الليلة. فرحب بالفكرة. وكانت أضواء الشموع تمنح المطعم جواً سحرياً. جلسنا إلى طاولة وطلبنا زجاجة نبيذ. رفعت كأسي، وأنا أسمع عزفاً عذباً على البزق، وقلت:

ـ بصحة الدكتور مراد الذي لا تلين له قناة.

ابتسم أحمد ببلاهة، كمن فوجىء بهذا النخب. ثم رفع كأسه وقال:

ـ بصحتك.

كان المطعم شبه مقفر. والموسيقى اليونانية هادئة خافتة كأضواء الشموع. أتينا على زجاجة النبيذ الأولى ونحن نتبادل النكات. ثم طلبنا زجاجة ثانية. كان مزاج أحمد رائقاً على غير عادته. مما أغاظني. كل شيء في هذا العالم يدعو إلى الاكتئاب، فما الذي يفرحه؟ الفرح قوة. وأنا أخاف الأقوياء. ينبغي لضحيتي أن تكون ضعيفة هشة، كي لا ترتعش يدي حين أطلق النار. ينبغي أن أحس إحساساً داخلياً أشبه بالحدس والإيمان بأنني أقوى منها.

قاطعته سيلفيا وناشدته أن يسمح لها بأن تغسل ملاءات السرير على الأقل. فهز رأسه موافقاً. وسكبت سيلفيا الماء في الوعاء، وجلست القرفصاء ثم راحت تدعك الشراشف بالماء ومسحوق الغسيل.

وقف يوسف بالباب، وأخذت نظراته تلتهم مؤخرتها وظهرها، لكنه كان يخشى جهنم وبئس المصير. الزنى مصعد سريع إلى جهنم. أما القتل فهو حرفة. فما بالك إن كانت الضحايا عميلة أو فاسدة أو شريرة. وتذكر يوسف بارتياح أن أول ضحاياه كان عميلاً للموساد.

مال يوسف على الباب وقال إنه بدأ يتحدث عن معاناة أسرة أحمد، بعد أن فتحت الزجاجة الثانية. فأخذ وجه أحمد يشحب، وراحت عضلات وجهه ترتعش. ثم سالت دموعه فجأة وقال:

ـ لو كان أعداؤه هم الذين اعتقلوه لفهمنا.. أما جماعته..

دموع أحمد أثارت أحاسيس غريبة في أعماقي. أحسست بلذة أشبه بلذة النشوة الحسية. وأحسَسْتُ بضعفه وهشاشته. وبأنني قوي ومسيطر. ناولته منديلاً ليكفكف دموعه، وقلت له إن والده قوي وصلب ولا تلين له قناة. لكن أنت ثغرته الوحيدة.

ضعفك مقتله. هشاشتك مفتاح سر مركز الضعف الخفي فيه. مقتلك مثلاً سيدمره. سيحني ظهره المستقيم. ويقوس هامته الفارعة.

نظر إلي أحمد من بين دموعه نظرة حائرة، كأنما استعصت كلماتي على فهمه. أتيت على الكأس الأخيرة من الزجاجة الثانية، وصفقت للنادل، وأمرته بإحضار ثالثة.

ملت نحو أحمد وهمست وأنا أتفرس في وجهه لأرى كيف ستتجلى آيات الرعب والدهشة في محياه. قلت:

ـ أنا مكلف بقتلك.

فإذا به يطلق ضحكة مجلجلة.. بكى لها فرحاً. قلت بصوت جهدت في محاولة الحفاظ على هدوئه:

ـ إنني لا أمزح. ولكن علي أن أحاكمك أولاً.. كما يفعل أي قاض.. ثم أحكم عليك بالإعدام. أتعرف لماذا؟ لأنني لا أريدك أن تموت دون أن تعرف السبب. أريد أن أمنحك المبرر. أن أعطيك ثمناً أو موقفاً يجعلك تطمئن إلى أنك لم تمت ميتة مجانية.

وأقبل النادل حاملاً زجاجة نبيذ ثالثة. وحين أطلق سراح فلينة الزجاجة. أطلق أحمد ضحكة هستيرية.

١١

استيقظ يوسف على صوت المكنسة الكهربائية. دهمه فرح مباغت. لقد اقتنعت سيلفيا أخيراً بضرورة تنظيف الشقة. إن يوسف يحب أن تكون الشقق التي يلم بها نظيفة مرتبة. لأنها توحي إليه بأنه مسيطر على المكان. الفوضى في الشقة ـ أية شقة يلم بها ـ تسلب منه هذا الشعور الممتع بالسيطرة على المكان. وهو يحافظ على دقة مواعيده أيضاً. لأن المحافظة على دقة المواعيد، تمنحه بدورها إحساساً لذيذاً بالسيطرة على الزمن. إنه يحب أن يتمتع بنشوة التحكم في الآخرين. الناس، والأزمنة، والأمكنة. وبالتالي فإنه يحافظ دائماً على أناقته بحرص شديد. لأن الأناقة أسلوب من أساليب التعامل مع العالم الخارجي المرعب. أناقته تمنحه إحساساً بالمناعة. بأنه يستطيع أن يتواصل مع العالم الخارجي، تواصل الند بالند.

إنزلق من فراشه، وحك شعره المنفوش، ثم أطل من الباب. فرأى سيلفيا تجر

المكنسة الكهربائية. وسرعان ما لاحظ أنها قد صففت شعرها بطريقة جديدة تختلف عما عهده من قبل. . فامتعض. إنه يكره الجديد. لأن الجديد يحمل في طياته مفاجأة. الجديد يثير فيه إحساساً بالشك لأنه غير محدد، مجهول غير واضح. ويوسف يفضل أن يتعامل مع الأشياء والأحداث والناس برتابة. لأن الرتابة هي الأسود والأبيض. هي جوهر النمط والنموذج. الجديد «يلخمه»، يباغته. يرعبه لأنه لا يعرف كيف سيكون رد فعله المباغت والعفوي عليه. لذلك، يرغب يوسف عن التعرف إلى أشخاص جدد. لأنهم يجسدون أمام عينيه عوالم مجهولة، لا يمكن التنبؤ مسبقاً بأفعالها وردود أفعالها.

دنا من سيلفيا بخطى وئيدة مترنحة وقال إنه يخاف الحياة. رأته فرفعت رأسها. شعر يوسف بالحرج. كان يعلم أنه ينبغي التعليق على تسريحتها الجديدة. ولكنه لم يستعد لهذا الموقف مسبقاً. لقد فاجأته. . وهو يبغض المفاجآت. أشار إلى شعرها وقال بصوت ناعس:

ـ تسريحة جميلة. لكنها أخذتني على غرة.

رمقته بنظرة طويلة متفكرة. ثم عادت إلى جر المكنسة الكهربائية وهي تقول:

ـ منافق. أنت تحب الشعر الأسود القصير. إنك تظهر ما لا تبطن.

دس يديه في جيبيه، قطب، وقال وهو يعود إلى غرفته:

ـ الباطنية إحدى سلبياتي. .

ثم مستدركاً:

ـ أو إيجابياتي.

* * *

١٢

يوسف. . .

كنت أقول له: حسن، طيب. فهمنا. أنت تشعر بالحرية المطلقة التي تعني اليأس في كماله. مع أني لا أفهم ماذا يعني هذا الكلام الفارغ. فستق فاضي. لا يطعمني خبزاً. ومع ذلك. مع ذلك. . آمنّا. لكن لماذا لا نعمل بعض الاتصالات. . أعني لماذا لا نتحرك. . أقصد لماذا لا. . نوافق على العروض المطروحة علينا.

كان أحمد غاطساً في مقعده. ساقاه ترتفعان إلى أعلى وتحطان ـ دون أن يخلع

حذاءه ـ على طاولة الطعام . . التي نأكل عليها «سم الهاري». لم يحرك ساكناً. نظر إلي بعينيه دون أن يرفع رأسه. قال بلهجة رجل مسترخ يقضي إجازة على شاطىء إحدى الجزر اليونانية ـ تخيلته مسترخياً على مقعد من تلك المقاعد المائلة التي يجدها المرء على شواطىء البحر، وقد طلى جسده بالزيت، ووضع قبعة من القش على رأسه، وأغمض عينيه مستمتعاً بلذة الهواء الطري، وشعشعة الشمس المدغدغة.

ـ نعم. . قال بلامبالاة.

ـ ماذا تعني؟

تنحنحت وتقلقلت في مجلس. ثم قلت بحسم: إن عشرات السفارات وعشرات الصحف والمجلات تتمنى كلمة واحدة مني. وقلت له إنني تسلمت عروضا مغرية مقابل إقناعه بإجراء مقابلات تلفزيونية أو صحفية للحديث عن القمع الذي تعرضت له الأسرة. عن المصير المفجع الذي لاقته. قلت:

ـ لا تقل سوى قناعاتك. حقيقة ما جرى.

لم يحرك ساكناً. ظل يحدق إلى الجدار كأنه يحدق إلى أفق بعيد رحب.

غمغم:

ـ إنزل اشتر لنا بطحة.

ضربت قدمي في الأرض غضباً وقلت:

ـ ينبغي أن توافق. كي يتحرك الضمير العالمي على الأقل. . لإنقاذ. . أو التدخل. . أو. .

زعق في وجهي بغتة، خارجاً عن برودته البركانية المألوفة:

ـ إذا سمحوا لي بالحديث عن القمع في الدولة التي سأظهر على شاشة تلفزيونها ـ بالإضافة إلى القمع في الدول الأخرى ـ فأنا جاهز. أما أن أتحول إلى بهلوان يلعب على حبال تناقضات الأنظمة. . فلا. ذهلت. ألم يقل إنه ما عاد يأبه لشيء. كيف يتخذ موقفاً إذاً؟ أخبرته أن إحدى السفارات عرضت علينا مبلغاً خيالياً مقابل الظهور على شاشة تلفزيون دولتها. والحديث عما جرى «هناك». . وأن صحيفة شهيرة عرضت. . قاطعني «بلا» حاسمة. وزعق:

ـ لن أدعهم يتسلقون على جراحنا.

الحرية قضية لا تقاس بمقياسين مختلفين، ولا بمكيالين متباينين.

ابن الـ . . . إنه يتخذ موقفاً. هو الذي قال إنه بـات لا يبالي. سنمـوت من الجوع. ولم يكن في جيوبنا ما يكفي لشراء العرق.

* * *

١٣

في ذلك المطعم اليوناني الصغـير، بدأت محـاكمة أحمـد. لكن الندل والـزبائن السكارى الذين انتشروا هنا وهناك، لم يلعبوا دور المحلفين أو الشهود. لأن المحاكمة كانت سرية، على الرغم من انعقادها في مطعم ذي زبائن وندل، وأمام أعينهم.

جلست سيلفيا في مواجهته لتقرأ شفتيه. أو شفته السفلى على الأقل. المنضدة وركوة القهوة والفناجين وعدم التفاهم التام يفصل بينهما.

قال يوسف إنه نظر في عيني أحمد مباشرة. فسألته سيلفيا وهي تسكب القهـوة من الركوة:

ـ ماذا تناولتما في المطعم اليوناني؟

جحظت عينا يوسف. ثم رمى نظره إلى البخار المتصاعد من ركوة القهوة وقال باستسلام:

ـ ملوخية. . على ما أظن. . أو بامية.

إبتسمت سيلفيا إبتسامة ساخرة، أثارت نقمة يوسف وقـالت إن الذهـاب إلى مطعم يوناني لتناول البامية، مسألة لا تخلو من غباء.

أظلم وجه يوسف. لكنه غالب حنقه وقال:

ـ قلت له إن مقتله سوف يجعـل كل أصـابع الاتهـام توجـه إلى الذين اعتقلوا أسرته. وهذا بمصلحته ومصلحتهم. لأن العالم سيضج. والناس سيقولون «الله أكبر» كمان لاحقين الولد. ألا يكفي ما فعلوه بأبيه. فهمت علي؟

إتكأت سيلفيا بذقنها على كفها وهي لا تنزع عينيها عن شفة يوسف السفلى. لكن الشفة العليا كانت تحتجب وراء الشارب الكث. نظر يوسف إليها نظرة من ينتظر تعليقاً على منطقه. ففطنت إلى ما يدور بذهنه. وعلقت قائلة:

ـ أوه. .

لم ينل التعليق المقتضب رضى يوسف، فقد أحس أنه مختصر اختصـاراً مخلاً.

لكنه تابع قائلاً:

ـ ثم قلت له ونحن نحتسي الخمرة إنَّ . .
فقاطعته سيلفيا متسائلة:

ـ وما نوع النبيذ الذي كنتما تشربانه؛ النبيذ لا يحتسى مع الملوخية. اربدّ وجه يوسف، لكنه غالب غيظه فغلبه. قال متجاهلاً سؤالها:

ـ ثم إنني بصراحة أود أن أرى أو أسمع هذا الرجل الذي لا تلين له قناة وهو يصرخ ويتألم. صراخك أنت يثير في أعماقي نشوة تختلف عن صراخ أبيك الذي لا يصرخ. إنني لا أستطيع اغتياله. لا لأن الحراسة مشددة عليه. بل لأنه قوي . . مخيف. أستطيع أن أقتنص من عينيه دمعة بعد اغتيالك.

قال أحمد وهو يغمض مقلتيه كأنما يحاول أن يتأكد من أنه لا يرى كابوساً فيما يراه النائم:

ـ لا شك في أنك تمزح.
قالت سيلفيا وهي ترشف من قهوتها:

ـ وهل كنت تمزح؟
تدافعت أنفاس يوسف انفعالاً وهو ينفي تهمة المزاح. وادعى أنه رجل جاد لا يمزح أبداً. وزعم بأن المزاح أدى ببعض السياسيين إلى المشانق. لأن الجنرالات ذوي هيبة، ويفتقرون ـ مثله ـ إلى روح النكتة.

وقال يوسف إن أحمد قلب شفته السفلى، وهز منكبيه كأن الأمر لا يعنيه. ثم غمغم:

ـ لن يحدث سوى المقدر. لكن أرني مسدسك الكاتم.
هزت سيلفيا رأسها بانتظام، كأنها توافق على كل ما يقوله يوسف.

ثم سألته بفضول:
ـ هل كنت تحمل كاتم صوت؟
ظهرت البغتة في وجه يوسف. وقال مستنكراً سؤالها:
ـ طبعاً . . ماذا كنا نحكي من الصبح؟ ألا تعرفين العربية؟

أكدت له سيلفيا أنها تفهم العربية، لكنها لا تفهم لماذا كان يوسف يحمل كاتم صوت.

طار صواب يوسف، وثارت ثائرته. وزعق في وجه سيلفيا واتهمها بأنها لا تركز سمعها على كلامه. وإلا لما سألته هذه الأسئلة. إعتذرت سيلفيا بلباقة عن تصرفها غير اللائق. وبدت حيرة قلقة في وجهها. وتساءلت عيناها أي إثم ارتكبته لتستحق هذا الزعيق. ثم أي رجل هذا الذي يحتسي النبيذ مع الملوخية ويحمل مسدساً ويمازح صديقه في آن واحد. واجتاحتها رغبة عارمة فضولية في معرفة تفاصيل الحديث المرح الذي دار بين يوسف وأحمد في تلك الليلة. لكنها لم تسأل.

وقام يوسف إلى زجاجة الويسكي، فملأ كأسه. وانتظر اعتراض سيلفيا. لكن سيلفيا لاذت بالصمت. ولم تقل له إنه يفرط في تناول الخمرة. ظل واقفاً ينتظر اعتراضها على طريقة شربه. لكنها لم تعترض. أقلقه الانتظار الطويل. فقال بنبرة عصبية:

ـ لا أستطيع الاعتراف دون الويسكي. هل تستطيعين أنت أن تدخني دون رئتين؟ الاعتراف متلازم مع الخمرة. مثلما التدخين متلازم مع الرئتين. وتمادى في التبرير، راداً على اعتراض لم يرد:

ـ وهل تستطيعين أن تديري قرص الهاتف، دون أن تنظري إلى الرقم في دليل الهاتف ؟ وهل تستطيعين أن تغني في صالة ضخمة دون ميكروفون؟

قالت سيلفيا:

ـ صب لي كأساً لو سمحت. ولكن النبيذ لا ينسجم مع الملوخية. بوسعك أن تأكل الملوخية دون نبيذ. أو أن تحتسي النبيذ دون ملوخية.

وصب يوسف لها كأساً وسألها إن كانت ترغب في قطعتين من الثلج. فهزت رأسها بالإيجاب. فضحك يوسف وقال:

ـ إذهبي إلى المطبخ وأحضري الثلج بنفسك.

ولاحظت سيلفيا أن شفتيه رخوتان وأن عينيه ثلجيتان. وقامت سيلفيا إلى [illegible] تحمل قطعاً من الثلج في صحن صغير. ووضعت ثلاث قطع [illegible]ف بوجهها المتعب المتهالك، وسألته إن كان يرغب في [illegible]ـز رأسه بالايجاب. إنفلتت منها ضحكة سريعة،

ـ إذن مد يدك واخدم نفسك بنفسك.

رفع يوسف كأسه وأتى عليها بجرعة واحدة. ثم أنشأ يذرع الصالة بخطوات تفتقر إلى التوازن. لم يترنح.. لكنه كاد. ثم وقف بباب الصالة ووضع كأسه على منضدة قريبة، وعقد كفيه وراء ظهره. وكانت سيلفيا تتابعه بنظراتها القلقة. وعاد يذرع الصالة لا يستكين في موضع. ثم تناول المصباح الجانبي الفخم وقذف به إلى الجدار. فتحطم وتناثر إلى عشرات القطع الصغيرة. نقلت سيلفيا عينيها الجزعتين بين الحُطام ويوسف. فخُيِّل لها أنها ترى شبحاً مبهماً بينهما.

زعق يوسف:

ـ قلت له إنني سأطلق عليك النار من كاتم الصوت، ولن يحسَّ ألماً! وقال إن أحمد حدق إليه بعينين ذابلتين وسأله إن كان يرغب في قتل ميت! ثم سأله إن «كانوا» يدفعون له كثيراً مقابل اغتيال الجثث! واتقدت عيناه، واحتسى النبيذ بهدوء. لكن الكأس ارتعشت في يده حين قال إنه انتحر نصف انتحار حين استقال من العصبة، ثم وضع حداً نهائياً لحياته بعد الخروج من بيروت! وقال إن هذه الحياة التي يحياها الآن ليست حياته، إنها عمر فائض بوسعه أن يعيره لمن قد يستفيد منه، تماماً مثلما يفعل الذي يتبرع بدمه أو بكليته لمريض بحاجة لهما! ثم أطرق طويلاً وهو يداعب الكأس بين يديه، ثم رفع عينيه وحدق إلى وجه يوسف الذاهل وقرأ الصدمة في عينيه، فقال:
ـ لقد فات الأوان يا يوسف! فات الأوان.

ثم نهض بهدوء، وغمغم قائلاً إنه سيوليه ظهره ويغادر المطعم، ويمم وجهه صوب المخرج ولم يدفع الحساب. وقال يوسف إنه ارتبك وحار في أمر أحمد. تصوري أنه لم يدفع الحساب، على الرغم من أنه صاحب الدعوة، وتصوري أنه يريد أن يحرمني من متعة قتله! وقال إنه تناول مسدسه الكاتم للصوت، ولحق بأحمد كالسائر في منامه وهرع نحو الباب، فتحه فإذا بأحمد يقف تحت المطر في منتصف الشارع متدثراً بالبرد وضوء الشارع الخافت!

وكان يصوب مسدساً نحوي! لكنه لم يكن محترفاً مثلي. لا أدري من الذي بدأ بإطلاق النار. رأيته ينثني، ثم يتكوم تحت عمود المصباح. كان وجهه متشنجاً، وعيناه تائهتين. ولمحت بسمة غامضة ساخرة على شفتيه.

واصطكت ركبتاي وسرت في جسدي قشعريرة الرهبة. قلت في نفسي ورأسي يدور ذاهلاً:

ـ لقد دافع عن نفسه. كان يرغب إذن في الحياة.

ودهمتني نوبة نشيج هستيرية. ثم أطلقت ساقي للريح المولولة.

تناول يوسف كأساً أخرى بيد مرتعشة، رفعها إلى شفتيه وأتى عليها بجرعة واحدة. وكانت سيلفيا تراقب ذلك التغيير الغريب الذي طرأ على وجهه برعب. فتكومت على نفسها وانكمشت في الكنبة. كان شعر يوسف مشعثاً، وعيناه تومضان ببريق وحشي بدائي مجنون. وجسده يرتعش كما لو مسه تيار كهربائي.. ينتفض وينتفض ويغمغم:

ـ لقد دافع عن نفسه.. آه كم شعرت بالرعب والعبث والدهشة.

ثم جعل يجوب الشقة ويحطم كل ما فيها من زجاج وتحف ومقاعد. فلاذت سيلفيا بغرفتها. وأوصدت الباب وأدارت مفتاحه. ثم هوى قلبها. بينما ارتفع نشيج يوسف وهو يصيح: لماذا لم يهرب.. لماذا؟

رقدت سيلفيا على فراشها، ورفعت أصابعها وتلمست عنقها الشاهق. كانت تشعر بوخز مؤلم بين الكتفين. لعل السبب يكمن في جلساتها الطويلة المملة مع يوسف. إنه يعاملها على أنها آلة تسجيل. مسجلة يملكها. مقتنى من مقتنياته. ينظر إليها كما ينظر إلى الأشياء التي يسيطر عليها. إنها في عينيه «شيء».. لا بشر.

قال لها إنه احتسى مع أحمد النبيذ، وأكلا بامية أو ملوخية، وإنه كان يواري تحت سترته مسدساً كاتماً للصوت. وإن أحمد أخبره، حين علم إنه يخفي كاتم صوت، أنه يستطيع الآن استحضار صوت أمه. وأنه يعتقد أن أمه تتفرج في هذه اللحظة على ألبوم الصور. وترى صورته وهو طفل عار، يبتسم ويصفق بيديه. فتضحك وتخرج من لحظة الحاضر الجامدة الصقيعية إلى الماضي. تمضي إلى الماضي. ولكن لماذا يحمل يوسف كاتماً للصوت؟ ولماذا لا يحاول أن يراودني عن نفسي، ويتحرش بي؟ إنني لا أفهمه. لا أدري لماذا رغب في أن يمنح أحمد كاتماً للصوت. أحمد ليس في خطر. ويحب أصوات المغنيات والباعة والرعد.. فلماذا كاتم الصوت إذن؟ إنني لا أفهم. ثم لماذا اعتقد أحمد أن أمه تتفرج على ألبوم الصور، في تلك اللحظة بالذات؟

أطلت سيلفيا من النافذة، فباغتها عالم أبكم لا أصوات فيه. حتى الحفارة الضخمة التي تحفر الأرض هناك بكماء. كان يوسف يتذمر من هديرها. يحتج على بناء عمارة جديدة. إنه ضد الأصوات وضد الجديد. الجديد يحمل نذيراً غامضاً مباغتاً.

والأصوات في الخارج تهديد مباشر لسكينته. إنه يرغب في الصمت المرعب.

قال لها إنه اعتقد في البداية أنها تحسن الاصغاء. ولهذا استأجر أذنها ودفع تكاليف باهظة مقابل إصغائها. لكنه اكتشف أنها لا تصغي. لأن جسدها كله يجب أن ينصت. قال. وقال إنه استأجر أذنها لأنه ما عاد يطيق وحشته.

وتساءلت سيلفيا عن عدم رغبة يوسف في جسدها. وأجابت نفسها إجابة افتراضية لا تسندها الحجج والبراهين. إذ خمنت أنه سادي أو مازوشي. وأنه يرغب عن جسدها لإذلالها، كي تشعر أن جسدها لا يعنيه أبداً. أو ليعاقب نفسه، لسبب أو لآخر، ويقول لها: ها هو الجسد الباهر أمامك أيتها النفس، لكني سأمنع عنك إنجاز الرغائب الطبيعية. أو لعله يعرف عن العلاقة بينها وبين أحمد. **فيشيح عنها إخلاصاً لصديقه. ألم يقل لها إنه يرغب في أذنها لا جسدها. ثم تساءلت ببراءة:**

ـ لعله متعصب دينياً؟

إنها لا تفهمه. يتحدث طوال الوقت عن أحمد الذي يحاول قتله. لكن المسدس كان مع يوسف. . فكيف يستطيع أحمد أن يقتله؟

صحيح أنه حاول مرة أن يمارس معها الحب. لكن الظروف كانت غير مؤاتية. كان قد صفعها بقوة حين رفضت أن تنظف البيت. فانفجرت بالبكاء، وانهمرت دموعها. وحين رأى يوسف دموعها الغزيرة، وسمع أنفاسها المختنقة. اجتاحته رغبة جارفة في ممارسة الحب معها. لكنها صدته وقالت بلهجتها العربية الفريدة:

ـ مش وقته.

كانت سيلفيا تفهم اللغة العربية. لكنها تجد صعوبة في نطقها. فإذا ما اضطرت للحديث بالعربية استخدمت الفصحى حيناً، ولهجات متداخلة متباينة أحياناً أخرى.

لم تفهم ما قاله بالضبط عما جرى في المطعم اليوناني. فهمت أنهما احتسيا النبيذ وأكلا ملوخية. ولكن ما الذي أزعج يوسف.؟ ربما غضب لأنها لم تحسن الإصغاء إلى قصته. كانت في شوق إلى أحمد. غداً سوف تلتقي به في عمان.

كانت تعد حقيبتها للرحيل. أخرجت برقية من جيب فستانها إنها برقية من أحمد يخبرها أنه سيكون في عمان يوم الاثنين القادم: (أي غداً) وأنه سيكون في انتظارها في المطار.

ولكن أين اختفى يوسف. أية وحشة تدفع المرء إلى استئجار من يصغي إليه؛

وأية ملهاة مأساوية تدفعه إلى اختيار فتاة صماء. لتسمع ما لا يستطيع أن يقوله للعالم؟

فهمت نصف كلامه. سمعت بعيني ربع اعترافاته. لكن صوته كان ينقبض وينبسط، ونبراته تنساب وتتلوى، وشفتيه تتواصل وتتقاطع. وشعيرات شاربه تتواثب وتتراجع.

ماذا قال عن أحمد؟ هل قال إنه صمد في السجن بينما انهار هو؟ لا، لعله كان يحكي عن والد أحمد. أظن أنه قال إنَّ وجه والد أحمد وعينيه تذكرانه بضعفه بعجزه.

وردة وحشة تنمو في فضاء الصمت.

هرب من التنظيم حين استنكر. وفصل. ولجأ لجوءاً سياسياً. وعمل كاتم صوت. ما ألذ الشعور بالقوة والسلطة والنفوذ.. بعد طول اضطهاد.

* * *

١٥

أصبحت سيلفيا في اليوم التالي، فانزلقت من السرير، ودخلت في ملاءة طويلة ثم فتحت باب غرفتها في حذر وأطلت. دارت عيناها في أنحاء الصالة، فلم تعثر ليوسف على أثر. غادرت غرفتها حافية وطافت بالشقة بحثاً عن يوسف.. بلا جدوى.

هزت منكبيها، وقلبت شفتها السفلى، كأنما تعبر عن دهشة، أو توحي بأن الأمر لا يعنيها في أية حال. ثم عادت إلى غرفتها، وراحت تعد حقيبتها للرحيل. كان يوسف قد إتفق معها على استئجار أذنيها ليومين فقط: السبت والأحد. وها هو صباح الاثنين يطل.

جلست على حافة سريرها، وفتحت حقيبتها الصغيرة وتناولت برقية أحمد وقرأتها للمرة العاشرة:

«عزيزتي سيلفيا يا وردة الوحشة النامية في غابة الصمت. سأنتظرك في مطار عمان يوم الاثنين القادم».

حملت حقيبتها بيد، جواز سفرها وتذكرة سفرها بيدها الأخرى. أوقفت سيارة أجرة. وأمرت السائق أن يحملها إلى المطار. ثم التَفَتَتْ التفاتة أخيرة كأنما تودع يوسف واعترافاته التي لم تسمعها. فوجدتها صامتة صمتاً موحشاً. كأن الأصوات لم تتردد فيها منذ الأزل.

سأل السائق دون أن يلتفت:
- إلى أين؟
لم تر شفتيه. قالت:
- الأجرة مش مشكلة. سأعطيك ما تريد.
جحظت عينا السائق فالتفت وقال نافخاً:
- يا سيدتي. على فين؟
قرأت شفتيه. قالت:
- المطار.
قال إن المطار بعيد. وإنه يريد الأجرة مقدماً. قالت كاليائسة:
- المطار..
تجهم وجه السائق وقال إنه لن يتحرك قبل أن تناوله الأجرة مقدماً. لم تقرأ شفتيه لأنه لم يلتفت. قالت بغيظ:
- قلت لك على المطار.. ألا تفهم العربية؟
أصر السائق وقال بعناد:
- الأجرة أولاً.
تاهت عيناها بنظراتها اليائسة.. ولم تتحرك السيارة. وهي لا تفهم.
وما كان أحمد في انتظارها.. لا في مطار عمان، ولا في أي مكان من الدنيا.

* * *

١٦

دلف الملازم إلى البيت بعد أن فتحت له المرأة الباب. كان وجهه مهيباً حين قال إنه يرغب في رؤية الختيار فوراً. قالت المرأة بنبرة لا تخلو من عتاب.
- صباح الخير أولاً. الختيار نائم ثانياً.
إندفع الملازم إلى الصالة بمشية عسكرية جنائزية. وقال بصوت خاشع متجهم:
ملح.
. هل تفرح أم تضع يدها على قلبها. أمر ملح. منذ سبع
.ت عجاف وهم لا يسمعون خبراً ملحاً. هل «قرروا» الافراج عنهم؟ هل قرر

الجنرال نقلهم إلى بيت آخر؟ اتقدت عيناها بنظرة ساطعة بالفضول وقالت كأنما ترجوه:

ـ بوسعك أن تخبرني أنا. نام الختيار متأخراً ليلة أمس.

أشاح الملازم بوجهه وقال إنه لا يستطيع أن يخبرها هي. وإن ما سيقوله ينبغي أن يقوله للختيار. احتجت. قرأت بتجهم وجهه. اجتاحها قلق، ثم تمالكت نفسها وقالت في نفسها:

ـ قيل للقرد إنه سيُمسخ فضحك وقال أكثر من مؤخرتي حمراء؟

بغتة راودها خاطر أرسل قشعريرة الرهبة في جسدها. ماذا لو قرر الجنرال لسبب غامض (كل شيء هنا غامض) أن يحكم على الختيار بالإعدام؟

ضربت قدمها في الأرض وقالت باحتجاج للملازم:

ـ ولماذا تمتنع عن الحديث إليّ؟

قال الملازم دون أن يلتفت إليها:

ـ التعليمات.

تضاعف قلقها. هتفت:

ـ أرجوك. قل لي ما. لماذا لا تحكي لي ما ستحكيه للختيار. الختيار لا يخفي عني شيئاً. لماذا تخفي عني ما ستقوله لـ...

نفد صبر الملازم وصاح:

ـ لأنك إمرأة.

هوى قلبها في أغوار توقع متوتر. تراجعت مرتبكة ثم هرعت إلى غرفة النوم. هزّت الختيار في كتفه. غمغم دون أن يفتح عينيه:

ـ ماذا؟

اغتصبت ابتسامة. وقالت لنفسها: لعله خير. وقالت له إن الملازم يحمل خبراً يبدو أنه خطير. لعلهم يريدون الإفراج عنا.

قالت ذلك لتطمئن نفسها وتطمئنه. لتتمسك بخيط التفاؤل الواهي. فرك الختيار عينيه. ونهض بتثاقل. وهمَّ بالدخول إلى الحمام. فقبضت المرأة على ذراعه وجرته نحو الصالة، وقد اقتنص الفضول والقلق والأمل رصانتها.

دلف الختيار يجر خطوات ناعسة وئيدة. تثاءب. لم يقل صباح الخير. قال بصوت خشن كذقنه:

ـ خير يا طير؟

رمق الملازم المرأة بنظرة قاتمة وطلب منها بأدب مبالغ فيه أن تتركهما في خلوة. قال الختيار مستنكراً:

ـ يا صباح يا عليم يا رزاق يا. .

قاطعه الملازم بصوت حاسم لا يحتمل التأويل والجدال:

ـ أرجوك سيدي.

أومأ لها الختيار أن تتركهما. فتراجعت، وتوارت خلف الباب وراحت تتنصت. توجه الملازم نحو الباب فأوصده. ثم انقلب على عقبيه ودنا من الختيار. دس يده في جيب سترته، تناول علبة سجائره. ومدها نحو الختيار. لوح الختيار بيده وقال إنه انقطع عن التدخين، لأنه يرغب في رؤية القرن الحادي والعشرين.

وكان وجه الملازم متجهماً مظلماً. . وفي عينيه لمع ومض الارتباك. تناول هو سيجارة، وأشعلها بيد مرتعشة ثم نفخ دخانها وغمغم:

ـ أرجو أن تجلس يا سيدي.

في تلك اللحظة أدرك الختيار بحدس قبلي مفاجىء أشبه بالكشف أن أحمد قد اغتيل! فتح الملازم فمه ليقول. . فبادره الختيار بصوت خافت:

ـ ماذا. . . هل انتحر؟ ارتبك الملازم. . وغمغم: البقية في حياتك! قتله كاتم صوت. . . ! سأل الختيار بصوت فيه رعشة خفية:

ـ أنتم؟!

بوغت الملازم وامتقع وجهه. . وحشرج بصوت مختنق:

ـ معاذ الله سيدي! قتلته الأجهزة المعادية لنا. . لحلمنا. . . لحلمك. . معادية لعصبتك. . . أقصد عصبتنا! نحن نعتبره شهيد العصبة و. . . لم يعذبوه. . . لم يختطفوه. . . قتلوه بكاتم صوت ثم أخفوا جثته . . عامل القمامة اكتشفها أمس!

تناهض الختيار بتثاقل. . شردت نظراته عبر الواجهة الزجاجية، فارتطمت بأزهار «المجنونة» القانية كبقع دم تتفتح على الزجاج. . ! رمقه الملازم بنظرة جانبية متفحصة تنقب في وجه الختيار عن دمعة. . فلم يجد لها أثراً!

قال الختيار:

ـ ما اسمك أيها الملازم؟

قال الملازم بصوت متحشرج:

ـ تلميذك محمود عباس سيدي.

غمغم الختيار:

ـ حلوة «سيدي» هذه! أتعرف أنني أعرفك بالاسم لأول مرة منذ سنين؟ اجلس يا محمود.. اجلس! كانت جدتي تقول لي وأنا طفل: «إن أجدادها كانوا يجلسون قرب النهر يلعبون النرد أو الورق أو لعبة ما بالحصى.. وأطفالهم يلعبون حولهم.. فإذا ما سقط ابن أحدهم في النهر.. ظل الأب جامداً في مكانه لا يزول ولا يقول ولا يومىء... بل يواصل ما كان فيه..! فيقفز رفاق الأب إلى النهر وينقذون الطفل من الغرق».! أتعرف لماذا؟

لاذ الملازم بالصمت وأطرق برأسه طويلًا!

عقد الختيار يديه وواراهما خلف ظهره. تقدم نحو الواجهة الزجاجية. وأطلق سراح بصره، عبر الفجوات التي تركتها «المجنونة».

كانت عيناه جافتين. أطرق طويلًا ثم قال دون أن يلتفت:

ـ سنقول لأمه إنه استشهد برصاص أجهزة الموساد الإسرائيلية. لا بد من أن نمنح مقتله معنى. لا بد أن نعطيها ترف المبرر المنطقي.

كان الملازم يرغب في أن يسأله لماذا لا يقفز الرجل إلى النهر لإنقاذ ابنه. فتح فمه ليسأله، لكنه لم يسأل. ظل واقفاً كعمود قُد من الحرج.

تقدم من الختيار. وتنحنح. التفت الرجل الجاف العينين. همس الملازم:

ـ القيادة تبلغك أسفها. وهي مستعدة لتنفيذ ما تراه مناسباً.

وقد أبدى الجنرال استعداده لإقامة جنازة رسمية للشهيد، ودفنه في مقابر شهدائنا.

خفض الختيار بصره، كأنما يتفحص الأرض. غمغم:

ـ **اشكر القيادة بالنيابة عني. هل عرفتم من يقف وراء اغتياله؟**

قال الملازم: إنَّ الذين اغتالوا أحمد لا بد أن يكونوا أعداء للثورة. علق الختيار بهدوء ساخر:

- وما أكثرهم.

أحس الملازم برعدة تمشي في أعضائه، وهو يراقب وجه الختيار. كان يشع بمرارة قاسية لا حزن فيها. كأنه يقف خارج الحزن أو فوقه. كأنه مصفح ضد مخالب النوائب والأهوال. أحس أنه يبغض هذه القوة الجبارة القاسية.

أحس أن هذا الرجل ناء، مضاد للزلازل. هم بأن يصافحه ويقبله معزياً مواسياً، لكن قناع الصفيح الذي وضعه الختيار على وجهه، رده رداً.

أشاح بوجه وقال بصوت رسمي:

- هل ترغب في أن أنقل أي طلب محدد إلى القيادة؟

لاحظ الملازم أن الختيار يكور قبضتيه. لاحظ أنهما مضمومتان. راح الختيار يجوس الصالة بخطى وئيدة هادئة. ثم توقف وتطلع إلى الملازم بنظرة ثابتة وقال:

- هات سيجارة..

ناوله الملازم علبة دخانه. والدهشة تطل من عينيه. قال الختيار إنه لا يدخن هذا النوع من السجائر. لأنه ثقيل. ونصح الملازم أن يغير هذا النوع. ثم قال بصوت واضح:

- هات ولعة.

ناوله الملازم علبة كبريت. فابتسم الختيار وقال:

- ألا تحمل قداحة رونسون؟

ثم هز رأسه وأضاف:

- توكل على الله.

تنفس الملازم الصعداء. وغادر المنزل كأنه يغادر منزلاً مسكوناً بوباء خطير.

تناول الختيار سيجارة. أشعل عود الثقاب. أطرق طويلاً قبل أن يشعل السيجارة. ثم نفخ على نار العود التي سارعت نحو أصابعه. وقذف بالسيجارة إلى سلة قمامة.

سعى إلى الحمام المتفرع عن الصالة. يداه مضمومتان مكورتان، كأنما يقبض على جوهرتين ثمينتين. كأنه يخفي في كفيه سراً خطيراً.

أوصد باب الحمام وأغلق المزلاج بالمفتاح. حدق إلى وجهه في المرآة. بغتة أحس انفراجاً مباغتاً. وعندئذ فقط انهار قناع الصفيح، وتداعى ستار المشاعر المضاد للعيون. وبكى.. بكى بصمت وهو يتفرج على دموعه في المرآة. لم يقع بصر على دموعه سوى بصره.

بسط كفيه. كأنه كان يخفي حزنه فيهما. كأنه كان يقبض على الصدمة ويحاول السيطرة عليها بأصابعه المضمومة. كأنه كان يواري فيهما جمرة الفجيعة.

احتقنت عيناه،، ولمع دمع فيهما، دمع خفي، بدا أنه توهج دم ينفر من شرايينهما الدقيقة. فكر بأنه يؤمن بالمشاعية، لكنه يستثني المشاعر. لا يستطيع. غيمة سوداء كالقبضة إعترضت قلبه حتى كادت تعتصره. إنبسطت الغيمة الداكنة فانهمر مطر كان حبيساً في عينيه. نافذة الحمام مفتوحة. دخلت هبة هواء لاهبة، توجهت صوب شعره لتركض فيه. ثم توقفت مباغتة. وانسحبت بلا صوت كأنها شبح شعر أنه دلف إلى المكان الخطأ في لحظة غير مناسبة.

قبل أن تبدأ زوجته بطرق باب الحمام بقوة، كان يشعر بأن دماغه داخل في خوذة من الصمت. وهالة مشعة من حديد وصلب تحلق حول رأسه، لا تشبه تلك الهالة المحلقة حول رأس المسيح في الصور.

بدأ الطرق، فرت دمعة من عينيه، حين انهمرت واراها في كفه كما كان يواري جمرة حزنه. كان قد خلع قناع الحديد والصلب كما يخلع طقم أسنانه. عاد ولبسه، أدخل رأسه في خوذة المناعة الخادعة المموهة الهشة.. وفتح الباب.

كان قد طهر نفسه بدموع لم يرها أحد. فخرج نظيفاً لامعاً. استقبلته زوجته بعينين تتأرجحان بين القلق والأمل كبندول ساعة. أخذها بين ذراعيه وخبأ وجهها في صدره. كان يبغض رؤية أحزان الآخرين. أحزان الآخرين تحرجه. أحزان.. كل الأحزان ينبغي أن تظل خفية، متوارية في غابة الكبرياء، وأدغال منفى العزلة الرهيبة. في تلك الجزر الداخلية التي لم يكتشفها كولومبوس، ولا فرويد، ولا طير.

قبلها في قمة رأسها. وأراح خده على شعرها الأسود. قال بلهجة اعتزاز متكلف:

- العمر لك. أحمد أعطاك عمره. استشهد وهو يقاتل.

كان رد فعلها الأولي خرافياً، واقعياً، مفاجئاً كالحقيقة العادية. سألته:

ـ هل يعيدون لك الاعتبار إذن؟ سيردون لك الاعتبار. . ها؟

لم يكن الخبر قد انتقل من بين شفتيه إلى وعيها. لأن الكلمات تتلكأ أحياناً في طريقها من الأذن إلى الوعي. تصل صدى يثير ردود أفعال مربكة وغباراً مشوشاً. ثم تدخل الوعي في موكب الوضوح الجليل. ويتبدد ذلك الغبار الأولي الهش كدرع واقٍ مزقته قذيفة مباشرة.

صاحت فجأة:

ـ يعني قُتل؟

وضم الختيار رعشة جسدها. إحتوى تلك القشعريرة التي تمس الجسد بإصبع الخوف وإصبع البرد وإصبع الصدمة وإصبع الفرح وإصبع النشوة. خمس أصابع. . يد العالم الخارجي تمس العصب بإحدى أصابعها، فيهتز الداخل اهتزاز طقوس رقص بدائي، أو اهتزاز زلزال. احتضن الختيار رعشتها. وحاصر شفتيها والصرخة المعلقة، بصمت شفتيه.

ظل يحتضن رعشتها المتصلة. القشعريرة التي تحول جسدها إلى ورقة تخفق في تيار هوائي جبار، يتواطأ معه تيار كهربائي صاعق.

ظل يحتوي دمارها، يضم تداعيها، يرمم الانهيارات الداخلية الجارفة، يسند ما يوشك أن يتساقط أنقاضاً. . . إلى أن دلفت الصغيرة، وسألت ببراءة أجنبية استعصت عليها لغة المشهد:

ـ ماذا حصل؟

فنفرت المرأة مثل جواد اكتشف ثعباناً بين قوائمه على نحو مفاجىء. ورمت بنفسها في قفار الفجيعة التي لا باب لمتاهاتها ولا مخرج ولا طريق. وطاردت في ظلام لا تخرج منه. ظلام أشبه بضباب موبوء. سرعان ما تسلل إلى ذاكرتها، وخلع عليها هبته السنية: نعمة النسيان.

وتداعت الصغيرة على كنبة. لم تدر لماذا أحست بوجهها يتقلب في الريح، فلا ترى ما بين أيديها وما خلفها. واكتسحتها رغبة في البكاء. . فاستعصى. وأحست بأن دموعها خذلت أمها. شعرت بالذنب. أمها تنتظر دموع الصغيرة، كي لا تعاني دموعها هي وحشة.

لكن دموع الصغيرة لم تسعفها. فتطلعت بعينين ثابتتين إلى شعشعة الشمس

اللاهبة، لا تطرف. . وانهمر دمع أثاره غبار الشعشعة الـذهبي. ثم لاذت بالقـرآن الكريم.

* * *

كفكف الملازم دمعة نفرت في الخفاء. ثم التفت إلى رجاله وغمغم:

- لم يذرف الرجل دمعة واحدة.

هتف شاويش:

- الخونة لا أحاسيس لهم.

زعق الملازم في وجهه بصوت صدر عن حلق جاف:

- إتق الله يا رجل.

وانتحب شاويش لا يعرف أحد.

* * *

د

اعترافات فتاة في عنق زجاجة

١

سمحوا لي ولوالدتي بالسفر. أصرت أمي على دفن أحمد في عمان. قالت إنه كان يعشق ترابها. وسافرنا بلا أبي، بلا جوازات سفر، بلا معرفة بكيفية اجتياز الشوارع المزدحمة، بلا معرفة بأسعار الخضار، بلا معرفة بتعاليم المرور، ورموز المساومة في الدكاكين، وشيفرة المجاملات، ومواثيق ردود الفعل عند اللحظة الحرجة.

مضينا بلا حقائب ولا حواس، ولا غرائز، ولا معارف قبلية مسبقة. وهبطت بنا الطائرة، في عمان. كنا عاريتين.. بلا أسلحة ولا أردية سوداء تليق بالحداد.

تركنا وراءنا أبي وحملنا جهلنا بالحياة. نسينا أبي هناك، مدفوناً تحت «المجنونة» ومتخفياً وراء واجهات زجاجية عارية. ونسينا في عزلتنا الأزلية رموز التعامل بين البشر. العزلة ابتلعت معارفنا. والنسيان نثر غباره على غرائزنا، والوحشة وأدت أسلحتنا الاجتماعية. ووراء الواجهات الزجاجية العارية توارى ما تعارف عليه الناس.

هبطت في مطار عمان كمولود هبط لتوه من رحم أمه. يا للرعب. ضمني رجل، قالت أمي إنه خالي. وكان ينتحبّ وينتحب. عيناي جافتان تبحلقان بحلقة رجل ولد في الغاب (ونشأ في عزلة الغاب).. ثم تاه ذات مرة، وخرج، فإذا به في «نيويورك».

ومضت في ذهني قصة أهل الكهف. ثم ضمني شاب لا ينتحب، قالت أمي إنه

مراد الصغير، ابن خالي. ثم اندفعت نحونا زوبعة من أذرع تطوقنا، ووجوه تمسح دموعها بوجوهنا، وقبلات بليلة على الخدود.

وكانت عيناي الوحشيتان البدائيتان.. غائمتين جافتين.

وقال أحدهم:

ـ أين الحقائب؟

وقالت أمي:

ـ أريد ثوب حداد. لا. ثوبين. واحد لي وآخر للصغيرة.

وقالت امرأة:

ـ الصغيرة لا يلزمها ثوب حداد. قميص أبيض و «تنورة» سوداء.. هذي هي العادة. الصبايا لا يتشحن بالسواد كلياً. هذا نذير شؤم.

وسألت أمي عن أحمد، وبدأت تبكي. فقال لها خالي وهو يأخذها من ذراعها. إنهم دفنوه، لأن جثته وصلت منذ ثلاثة أيام. وقال إن إكرام الميت دفنه.

ولولت أمي وقالت إن الحبيب قد راح، لا يمكن أن يواروهُ التراب دون أن أودعه بنظرة أخيرة. وركبنا في سيارة خالي، وكان ابن خالي يقودها. وقال خالي لا بد أنكما جائعتان، لأن طعام الطائرات رديء. وقال إن «أم يوسف» ـ وهي شغالة وليست شغالة ـ أعدت لنا منسفاً.

وكان ابن خالي، طوال الطريق، صامتاً لا ينبس.

* * *

في دار العزاء، في بيت خالي، كنا نجلس صامتين. نستمع إلى الآيات تتلى. وكانت أمي تقاطع عبد الباسط وتقول بين الحين والآخر:

ـ كانوا يعاملوننا معاملة رائعة.

كان الرعب، الذي جاء معنا متخفياً تحت جلودنا، هو الذي يتكلم. أمي دخلت في دائرته المخيفة المغناطيسية. وكنت أعرف معرفة يقينية أن إحدى زميلات كاتم الصوت، تجلس بين النسوة، مجللة بالسواد المعتم مثلهن.

إذ عرفنا منذ وصولنا أن أحمد لم يستشهد وهو يقاتل العدو، وأنهم (؟) اغتالوه بكاتم صوت في بيروت. وحزنت أمي. قالت ليته استشهد على يد العدو ليكون لموته طعم. ولم أفهم كيف يكون للموت طعم.

تضاعف حزنها حين علمت أن مجهولاً عربياً اغتاله . . وتضاعف رعبي . كنت أعلم علم اليقين، «أنهم» سيصفوننا جميعاً.

وكنت أشك في أن تلك المناسف بالرز والمناسف بالفريكة التي بعث بها «جبري» بتوصية من الأقارب والمعارف . . مسمومة.

فلم أتذوق لقمة. ولم أحتس فنجان قهوة مرة. وتحججت بالحزن والشعور بالغثيان.

٢

العتمة آتية لا ريب فيها، بعد أن ينطوي هذا النهار. أدعوها فتستجيب لي، وأدعوها أن لا تزول، فلا تستجيب لي. يأتي النهار مبصراً عجولاً مثل قدر حتمي. يأتي النهار حاملاً في عيونه الرعب. أصداؤه حبلى بالخطر.

كان الجدار بصيراً، فخفت أن أخلع ثيابي أمامه. لم أخلع ثيابي. في مدينة أمي هذه. . حيث سقط رأسي. أبحث عن وجه يدلني على شجرة لا تزول، وحصن لا يقتحم، ومناعة لا تبلى، وجنة مهجورة موحشة لا بشر فيها ولا أصوات ولا صدى. غرفة لا تجوع نفسي فيها، ولا تعرى. غرفة بلا نافذة ولا باب ولا حجر في الجدار.

من يُمَكِّن لي حرماً آمناً؟ من يؤمن لي صوتاً عصياً على الكتمان؟ من يمنحني بالاً لا تنتهك هواجسه العيون؟ لا يبحلق فيه الفضول السري؟ . . مَنْ؟ مَنْ بعد اغتيال أخي، ووفاة أمي وغياب أبي يمنحني ترف النسيان. نعمة النسيان. . النسيان؟ إنه كان غفوراً رحيماً. ليتهم أبقونا مع والدي. ليتني لم أتخذ هذا الدرب، وهذه المدينة الجديدة، دليلاً.

جعل لنا الليل لنسكن فيه، والنهار مبصراً لجوجاً.

درب موحش أضلني عن السلام الداخلي، وكان لي ضيقاً مفجعاً مهجوراً. أُحل لي الأرق يصطادني متاعاً لبياضه اللانهائي، وحُرم علي صيد النسيان. سأخرج الآن من غرفتي. لن أعرف ماذا يخفي لي القدر وراء الباب. «أم يوسف»؟ أثاث صامت. . أم كاتمٌ للصوت؟

فوجئت بمراد الصغير يكاد يطرق الباب. صافحني، شد على يدي. قال بصوت قاتم إنه التقى بأحمد في بيروت. وقال إن الاحساس بالعبث كان يسحق أحمد سحقاً.

قال: [إن أحمد أخبره أنه بات يشعر الآن بالحرية. كأنه كان في منطاد يحلق على ارتفاع منخفض. فلما وقعت الواقعة (زج الأسرة في الإقامة الجبرية) أحس **بحرية التخلص من الجاذبية تماماً. وراح يلقي أكياس الرمل، ليرتفع المنطاد أكثر. ثم رمى المؤن والأكياس التي تحتوي على الطعام، ثم رمى ملابسه قطعة قطعة، ثم رمى علب سجائره وزجاجات الخمرة والماء وساعة يده. لكنه ظل يتطلع إلى الشمس اللاهبة،** تشده إليها بنداء ساحر، تستجيب له كل خلية في جسده. وفي سبيل أن يرتفع أكثر فأكثر. ألقى بذكرياته ليخفف من ثقل منطاده ويتخلص من قيد الجاذبية. ثم ألقى يديه، ثم قدميه، ثم أحشاءه، ثم مشاعره، ثم آماله، ثم تشاؤمه، ثم تفاؤله، ثم حساباته، ثم آلامه، لكن المنطاد ظل بعيداً عن ذلك اللهب الجوهري.. قال أحمد.. لم يبق لي سوى ما تبقى من حياتي. وهذا ما سأقذفه ليدخل المنطاد المدار الباهر. لقد قذف بحياته.. ليشتعل!

نكش مراد أذنه، ثم قطب. أضاف:
ـ قلت له إننا نشعر أيضاً بأن تلك الكارثة ستساعدنا على الحسم. والتخلص من التردد. نحن أيضاً نشعر بالحرية المفجعة الآن، لأن آخر خيط من خيوط آمالنا قد انقطع. لكن حريتنا ليست حرية الانتحار. إنها حرية الاختيار والحسم].

وقد إخترنا الانتقال إلى مواقع أكثر جذرية، إخترنا تبني المادية الجدلية، لا الانفتاح عليها وحسب. لقد حسمنا.. وأسقطنا شعار إصلاح المؤسسة من الداخل. نحن بحاجة إليك. بحاجة ماسة إليك.

رمقني بعينين ناعستين بليدتين وقال إننا بحاجة إلى اسمه لا لشخصه. قال بلهجة الثمل: خذوا اسمي.. ها أنا أرميه من المنطاد أيضاً. أنتم بحاجة ماسة إليّ. لكنني لست بحاجة إليكم. فاغربوا عن وجهي. ومد يده نحو كأس العرق.

٣

قتلوا أمي.
كانت تجتاز شارعاً مزدحماً فصدمتها سيارة. وتجمع الناس وقالوا إن هذه المرأة بدت وكأنها لم تعبر شارعاً واحداً في حياتها. كانت مضطربة وسط الشارع اضطراب من لا يجيد السباحة في منتصف بحر لجي متلاطم الأمواج، بعيد الشواطىء.

وكنت أعلم علم اليقين «أنهم» قتلوها عن سابق تصور وتصميم.

كان أبي يتنفس برئتي أحمد . . فقتلوه. وأنا أمي مظلتي . . فخطفوها، وبت عارية تحت ضربات السماء الكاوية.

بت الآن وحيدة في هذه البناية المحتشدة بالأقارب. أنا و «أم يوسف» في الشقة الصغيرة. خالي وزوجته ومراد الصغير في الشقة المجاورة. خالتي وزوجها وجدتي في الطابق الأول ذي الحديقة. مستأجرون غرباء في شقتي الطابق الثالث والعمارة ملك لخالي.

الطابق الأول شقة واحدة كبيرة. في الصالة الواسعة كانت الأسرة الكبيرة تجتمع كل مساء. وكانوا ينادون عليّ. أتكلف الصمم. أنا أرقد على فراشي أقرأ «كتاب المواقف» و «كتاب المخاطبات»، ألوذ إلى كتاب المواقف. تطرق أم يوسف بابي. ثم تضغط على يد الباب من الخارج لتفتحه. لكنه مقفل. أقفله مثلما أقفل حواسي أحياناً. وتقول من وراء الباب إنها «هلكت» وهي طالعة نازلة على الدرج. وإنهم تحت يريدون أن أنضم إليهم لأشاهد المسلسل المصري. وأقول لا. فتقول إنها ستظل واقفة وراء الباب حتى أفتح أو تموت من تعب الوقوف.

أفتح الباب، فتجرني من يدي. وتخبرني أن جدتي تقول إني تغيرت كثيراً. وتشد منديلها على رأسها بيدها الأخرى. وأشم من فمها رائحة دخان. إنها تدخن في السر. ولكن ما أقبل السر للفرار إلى الفضيحة في هذه العمارة. أنا لا أستطيع أن أفكر بالسر هنا.

إنهم يقرأون أفكاري.

ونهبط على الدرج. رأسي مقسوم إلى قسمين. كل الخواطر تحتشد في القسم الخلفي من بالي. إنهم يرون أفكاري . . وأنا لا أراها. يا للفضيحة. قلت ألبس منديلاً يغطي رأسي. فقالت خالتي إن شعري جميل، وينبغي أن لا أخفيه تحت منديل. أعرف أن السبب الحقيقي وراء اعتراضها يكمن في أنها - وهم جميعاً - تريد أن يبقى الجزء الخلفي من رأسي ظاهراً. كي يقرأوا أفكاري وخواطري وهواجسي . . ثم يتضاحكوا.

دلفت إلى بيت جدتي. جدتي انتقدت عزلتي. وقالت إنني ما كنت أميل إلى العزلة، وإنني تغيرت. لكن جدتي لا تعرف ماذا كنت. فكيف تعرف أنني تغيرت. فارقتها مع أمي لننضم إلى أبي (الذي خرج من السجن) وأنا في الثانية من عمري. صحيح أننا كنا نزورها في الإجازات، لكنها لا تعرفني. فكيف تعرف أني تغيرت. إنها

تقرأ أفكاري. لعلي أفكر بأني تغيرت، فتقرأ ماأفكر به. لأن أفكاري تتجلى للعيان من الجزء الخلفي لرأسي. . أنا لا أرى أفكاري، لأن عيني في الواجهة.

قال خالي أهلاً أهلاً تعالي اجلسي إلى جانبي، أنا مثل أبيك. لكنني لا أحب أن أجلس إلى جانبه. أرغب في الجلوس على كنبة مستقلة وحدي. بل أرغب في العودة إلى غرفتي، إلى كهف «النفري». . فأختفي فيه عن الأنظار. وكانت خالتي تحسو الشاي بلا سكر. وكانت تضم ابنتها بذراعها. ولا تضمني. واقترحت دون أن تنتزع عينيها عن شاشة التلفاز أن يصطحبني مراد الصغير وابنتها إلى السينما. لكنني لا أحب أن أذهب إلى السينما. لأن صالاتها مظلمة، والناس فيها يتسترون بالظلام. ولأن حملة كواتم الصوت يعتبرون صالات السينما أمكنة مثالية لتنفيذ عملياتهم. وكررت خالتي للمرة الألف طلبها في أن أنزل وأسكن معهم، وقالت ـ كالعادة ـ إن العزلة «تضرني»؟ وقال خالي وهو يشبك ساقاً بساقٍ إنه ما كان ليسمح لي بالانتقال إلى الشقة الصغيرة مع «أم يوسف» لولا بكائي وإلحاحي المتصل.

وعندما قلت إنني كنت أقيم في غرفة مستقلة في منزل الإقامة الجبرية. وإنني تعودت هذه الاستقلالية. قال خالي إن كلامي فارغ. وإنني ما كنت أعيش في غرفة مستقلة هناك. وإن ذاكرتي تختلط بالخيال. وإن أبي ما كان يسمح لي بالاعتزال في غرفة مستقلة، ربما كان يسمح لي بالنوم في غرفة مستقلة، أما أن أحيا في غرفة مستقلة ذات حمام وتلفاز ومذياع وفيديو. منفصلة عن أهل البيت فهذا من رابع المستحيلات. قال إنه متأكد من ذلك. . كأنه كان يعيش معنا هناك. قال إنه كان يعيش معنا هناك بعقله وفكره.

وكنت أتحرق شوقاً للصعود إلى غرفتي. والاستجارة بكهف «النفري». فقرأوا أفكاري هذه. قالت جدتي إن العزلة تضرني. قالت ذلك وكأنها ترد على الخاطر الذي ألم ببالي وحثني على الصعود إلى غرفتي.

وحين خطر لي اللجوء إلى كهف «النفري» قال خالي إن قراءة «النفري» بالذات ذات آثار جانبية مضرة. لأنها تشجعني على العزلة.

أرأيتم كيف يقرأون أفكاري؟ قمت من مكاني وجلست على أريكة ظهرها إلى الجدار. كي يعجزوا عن رؤية مؤخرة رأسي.

مالت خالتي نحو جدتي، وهمست في أذنها كلمة أو كلمتين. فأطلقتا ضحكة مجلجلة. ثم نظرتا إليّ إنهن يعتقدن أنني مضحكة. خالي أيضاً التفت إلى زوج خالتي

وغمز بعينه، فابتسما. وعندما لاحظا أنني رصدت غمزتهما، وفهمت أنها تعنيني مباشرة. تضرج وجه خالي، وقال مؤولاً مستدركاً:

ـ هذا مسلسل ينبغي أن لا تراه السيدات.

يريد أن يوهمني أن الغمز واللمز بينه وبين زوج خالتي لا يخصني، وإنما يتعلق بالمسلسل.

أنا أعلم أنهم يتهمونني بالتجرد من العاطفة. يتهامسون بهذا وراء ظهري. لكن خالتي قالت لي بوضوح وصراحة حين قتلت والدتي.. ولم تنهمر دموعي:

ـ كم أغبط قوة أعصابك.. وبرودتها.

قالتها بلهجة ذات مغزى فهمته. وعندما رفضت في العيد أن أخرج معهم لزيارة مقبرة العائلة. جحظت عيونهم جميعاً، وفغرت أفواههم دهشة واستنكاراً.

أنا لا أحب زيارة الأموات. لا أدري لماذا؟ لكنني لا أحب زيارة الأموات. إنني لا أستطيع تفسير وتبرير كل مشاعري. لأن أفكاري تتجلى في الجزء الخلفي من رأسي. وعيناي في الجزء الأمامي. أنا لا أرى أفكاري. هم يرونها. لعلها بشعة فعلاً، وتبعث على الدهشة والاستنكار.

خواطري السرية مشاع للعيون.. يا لهول الحرج. أشعر بالخزي. وبالتحديد حين يُراود خلدي خاطر أثيم.

مرة اعتقدت أن مراد الصغير يمارس الحب مع «أم يوسف» الخادمة. جهدت في طرد هذا الخاطر، لكنه ظل مزروعاً في رأسي كشجرة. ضربت جذوره في أرض رأسي حتى الصدر. مرت «أم يوسف» كالشبح من ورائي. ثم توقفت وقرأت هذا الخاطر المخزي وقالت إن مراد الصغير شاب طيب، وغمزت بعينها. لقد أبصرت الخاطر. وأسرعت إلى غرفتي وانتحبت خجلاً وخزياً. إذ تراءى لي مراد الصغير في ذلك الخاطر عارياً. ودهمني رعب شلني شللاً كاملاً. وحسبت أن «أم يوسف» ستشكوني إلى خالي أو جدتي، وتقول إني أتخيل مراد الصغير عارياً. وإنني أتصور مشاهد إباحية آثمة. لكن أم يوسف لم تفتح فمها.

وفي غرفتي الموصدة الباب، خطر لي أن أقتل «أم يوسف» كي لا تبتزني. توقعت أن تأتي إلى غرفتي وتحادثني على انفراد. فتقول:

ـ إما أن تدفعي لي خمسة دنانير، أو أفشي سر ما رآه خيالك إلى خالك. لكنها لم

تفعل. وكنت أنتظر أن تفعل ذلك. وطوال الأسبوع كنت أقضم أظافري بعصبية وأفكر بقتلها. أفكر بقتلها حين يكون رأسي مستنداً إلى جدار أو وسادة. أي عصيّاً على العيون.

التفتت خالتي إلي وسألتني حين انتهى المسلسل إن كنت أحب «نجلاء فتحي» فقلت إنني أفضل «النفري» فضجوا جميعاً بالضحك. باستثناء مراد الصغير الذي لم يكن صغيراً. كانت ضحكة مشتركة جماعية، فيها تواطؤ واضح. كان خالي يضحك ضُحكة صاخبة، لم أر ما المضحك في «النفري».. أنا لا أفهمهم. لا، لم أر ما المضحك في الأمر. لكنني رأيت - حين حانت مني التفاتة - أن «دكان» خالي مفتوح. وأن أحداً لم يلاحظ ذلك. وسرت في بدني قشعريرة رعب بارد. قلت لنفسي بحزم: ينبغي أن لا تفكري في أزرار البنطال المفككة، لأنهم سيبصرون أفكاري، ويظنون بي الظنون. يممت وجهي صوب ستارة النافذة الزرقاء، وركزت تفكيري عليها. وقلت لنفسي: كان ينبغي أن تكون خضراء.. خضراء.. خضراء.. ورحت أكرر كلمة خضراء إلى ما لا نهاية حتى تلاشت صورة الأزرار المفككة نهائياً.

فراودتني طمأنينة لذيذة، مثل نسمة هواء منعشة.

* * *

٤

غادرت البيت متخفية. منديل أزرق يغطي رأسي، وثوب طويل يجلل جسدي كله.. ونظارة سوداء. كان علي أن أغادر البيت لأرى المحامي أو لأمر بمخفر الشرطة. ولولا هذه الضرورة الملحة، لما غادرت بيت خالي أبداً. ما إن مشيت في الشارع المزدحم، حتى بدأوا بمزاحمتي، ودفعي بمناكبهم. من؟ «هم». «هم». أعضاء تلك المنظمة التي اغتالت أحمد. الموساد، الماسونية، جمعية حماية البيئة.. لا أدري. إنها منظمة غامضة ترمز إلى نفسها بـ «ميم - ألف». لاحظوا أن هذين الحرفين يؤلفان جزءاً لا يتجزأ من كلمة موساد - ماسونية جمعية حماية البيئة.. الخ.

كيف عرفت بأن منظمة (م. أ) هي التي تلاحقني؟

كنت أقرأ صحيفة يوم الجمعة، حين حمل لي خالي رسالة، قال إنها وصلت إلى صندوق بريده، وعليها اسمي. فضضت الرسالة، فإذا هي أسطر حب وغرام وكلام فارغ. وفي السطر الخطير من الرسالة كتبت المنظمة ما يلي: «الحب قتال».. بيني وبينك - من طرفي على الأقل غرام وانتقام. لاحظوا كلمة «قتال». ثم كلمة «إنتقام».

وهبطت عيناي الفزعتان تنقبان عن التوقيع فإذا هو: «م. أ». وهذا قد يعني «أم» ـ وبالتالي التهديد صادر عن المنظمة «الأم»، وليس الفرع. أو يعني «ما» وهو رمز أشبه بالسؤال. وكأن كاتب الرسالة يرغب في أن يقول لي إنهم سيتصرفون بناء على «ما» أفعله.

عرضت الرسالة من فوري على خالي، فأطلق ضحكة مجلجلة. وقال وهو يوصد نافذة الصالة أن كاتب هذه الرسالة لا يمكن إلا أن يكون مراهقاً أحمق من أبناء الجيران.

ولكن لماذا أوصد خالي النافذة؟ لا بد أنه يحس بالخطر الذي يحدق بي. لم يقنعني جوابه فسألته لماذا أغلق النافذة إذن. فحدق إلي بعينين تتكلفان الدهشة وغمغم ممتقع الوجه:

ـ لأنني أرغب في أن أستحم. ولا أريد أن يلفحني تيار الهواء حين أخرج من الحمام.

إنه يستغفلني.

ها هم يدفعونني بالمناكب، لكنني أشق طريقي بتحد وحزم نحو مخفر الشرطة. سأطالب المسؤول بملاحقة هؤلاء الأوغاد. ولكن ماذا لو كان قائد المخفر نفسه متورطاً معهم. عنّ لي أن أمر بالمحامي أولاً، لأنه موثوق وصديق لمراد.

دلفت إلى مكتب المحامي. وأخبرته بقصتي كلها. تناولت الصحيفة وفردتها أمامه، وأشرت بأصبعي إلى المقال الموقع بحرفي (أ. م) ثم إلى عنوانه: «إن غداً لناظره قريب»، ولوّحت في وجهه وقلت إن هذا العنوان ما هو سوى رسالة تهديد ثانية موجهة إليّ.

«إنني أبغض الكاميرات.. وكل أدوات التصوير».

قلت للمحامي إنهم يلاحقونني. يلتقطون لي الصور. قبل قليل، حين كنت أمشي في الشارع المزدحم، رأيت أحدهم متخفياً بهيئة سائح، وكان يلتقط الصور. صوري. إنني أبغض الكاميرات.. وكل أدوات التصوير.

ورحت أنتحب حاول الشاب أن يهدّىء من روعي. ثم طلب لي كأساً من الماء. ونهض إلى الغرفة الأخرى. لعله أجرى مكالمة هاتفية مع مراد الصغير. عاد وقال إن كل شيء سيكون على ما يرام. واحتسيت كأس الماء. لكن وقع أقدام حاملي كواتم

الصوت تدوي في أذني. تخفق، تدوي، تخفق. وأمس اكتشفت أني فقدت خصلة من شعري وزراً من أزرار قميصي. منْ يا أستاذ؟ يرغب في أن يعمل لي عملاً.. حجاباً يقذف بي إلى هاوية مظلمة؟ منْ؟

ليتني أمتلك طاقية الإخفاء. قلت للمحامي إن أسرة أمي هنا ـ أخوالي أقصد ـ يتلصصون على هواجسي وخواطري الحميمة. وقلت إني أرى وجه أمي مظلماً، والأرق أبيض، والليل باهراً وعينها معتمة. ترقد إلى جانبي على السرير، لكنها خفية، لأنها تضع طاقية الإخفاء على رأسها، كذلك يفعل أبي، وأحمد، وحملة كواتم الصوت، والملازم المسؤول عن حراستنا في البلد الشقيق. كلهم يضعون قبعات الإخفاء.. إلا أنا. لا أحد يراهم سوى الصمت. لا أحد يسمع أنفاسهم سوى العتمة. والساعة المعطوبة تفتح فمها الواسع، تلتفت بوجهها المدور نحو البارحة، كميناء يرسو عند مركب صيد صغير.

الوجوه التي تحاصرني، يا أستاذ، تبحث عن ملامح. تريدني أن أمنحها ملامح من عندي. ولكن وجهي نفسه بلا ملامح. كل يوم أمنحه ملمحاً جديداً كي لا يعرفوني. وأصواتهم، أستاذ، أصواتهم تبحث عن نبرات. ولكن هل ثمة ملامح لا تزور؟ هل ثمة أوتار صوتية لا ترسل سوى نغم واحد. مستحيل.

وأسأله إن كان يحمل منديلاً كي أكفكف دموعي.. فيدخل مراد كالمباغتة، ويأخذني برفق إلى البيت. حيث العيون الراصدة.. وكهف «النفري».

٥

السبت...

قال خالي إنه دعا أفراد العائلة المقربين لتناول العشاء عنده. وقال إنه يريدني أن أتعرف على أبناء العائلة وبناتها.. كي أندمج في الأسرة الكبيرة من جديد. ورجاني أن أخرج عن صمتي المألوف، فأتجاذب معهم أطراف الحديث.

أحسست بالرعب. أدركت فجأة وبوضوح كامل ساطع أنهم يريدون أن يصوغوني من جديد. يريدون من هذه الفتاة المتوحشة البدائية التي لم تختلط بالناس أن تتعلم رموز السلوك المناسب، وشيفرة الأقوال المقبولة. إذ نصحتني خالتي أن لا أحكي للمدعوّين عن أحلامي في إشادة قلعة في غابات الأمازون، أو صومعة في صحراء الربع الخالي. وأشار علي زوج خالتي أنْ لا أهز رأسي بالإيجاب بمناسبة وبغير مناسبة.

وكان زوج خالتي يقول لي ذلك وهو يعقد ربطة عنقه. قلت لنفسي إنَّ هـذا الرجـل يعرف كيف يعقد ربطة العنق دون مساعدة زوجته.. لأنه موظف في شركة. لكن أبي ما كان يعرف كيف يعقـدها دون مساعـدة أمي. وفكرت في أن أبي يجلس الآن إلى مكتبه بكامل ملابسه ـ كالعادة ـ باستثنـاء ربطة العنق. لأن أمي ليست إلى جـانبه. ولكن كيف يستطيع أن يكتب وهو لا يضع ربطة عنق؟

كم أتمنى أن أحصل على ما يكتبه. لو أضع طاقية إخفـاء على رأسي، وأسـافر إليه. أتناول مخطوطته الجـديدة، ودفـتر مذكـراتي، ورسائـلي.. وأعود. أي طمـوح مستحيـل هذا؟ مخـطوطة، ودفـتر يوميات طفلة، ورسائلهـا.. هذا خـطر على أمن الدولة. مستحيل. خيانة. لكن دفتر مذكراتي هو أنا. غيابه يعني غيابي.

وقال زوج خالتي بعد أن انتهى من عقد ربطة عنقه. إنه يتكلم معي وكأنه أبي. من موقع الحرص يعني.

ومضى إلى المطبخ وجاء صوته دون وجهه ليقول إنه يتمنى أن أتقبل كلامه كما لو كنت ابنته. ثم عاد وهو يحمل طلاء الأحذية. إنحنى ورفع قـدمه. حـطها عـلى مقعد خشبي وفرش صحيفة تحتها ثم قال إنه لاحظ أنني أهز رأسي موافقة دائماً، مثل «حج مـوافق» «معهم معهم، عليهم عليهم»، ممـا يسيء لسمعتي. فـالمفـروض أنني فتـاة ناضجة في السادسة عشرة من عمرها. والمفروض أن يكون لي رأي مستقل.

ترجل حذاؤه عن المقعد. ثم رفع حذاءه الآخر. وقال إنه سيضرب لي مثـالاً على ما يقـول. قال إنـه سألني أمس عن رأيي في فيلم السهـرة الذي شـاهدنـاه على التلفـاز. فـلاحظ أن عيني دارتا في الـوجوه كـأنها تستنجد بهـا لتشير إلى جـواب صحيح. ثم لاحظ أنني ارتبكت وقلت:

ـ سخيف. لكن عموماً ليس سيئاً. بوسعي أن أقـول إنه لا يخلو من جـودة. نعم.. جيد

تصوري، قال وهو يطلي حـذاءه، تنقلت من سخيف إلى جيد، لأنـك كنت تقرأين ردود الفعل في الـوجوه بعـد كل كلمـة تنطقينهـا. سقطت بقعـة طلاء عـلى الأرض، فلم ينتبه. وأنا كنت أنظر إلى ربطة عنقه، وأفكر في أبي: كيف سيكتب بلا ربطة عنق. رفع الحذاء وقربه من عينيه وتفحصه بنظرة من يتراجع إلى الوراء خطوتين ليتأمل إنجازاً عظيماً انتهى منه لتوه. قال بصوت مرح:

ـ ينبغي أن تثقي بنفسك. وأنا سأعلمك كيف.

ألقى نظرة زهو وإعجاب على حذائه، كما لو كان فناناً يتأمل لوحة انتهى منها لتوه. وأشار علي أن أردد بيني وبين نفسي كلما جلست إلى أحد:

ـ أنا أهم منه، أنا أقوى منه. إنه ضعيف. إنه حشرة.

لماذا يتشابه أقربائي إلى درجة تدفعني إلى الخلط بينهم؟ (باستثناء مراد الصغير، طبعاً).

في تلك اللحظة دخل مراد الصغير. رمق زوج خالته بنظرة قاتمة.

ثم قال:
ـ هل تسمحين لي بكلمة على انفراد.

مشى أمامي إلى الحديقة فتبعته. قال ونحن نقف تحت شجرة سرو أن لا أعير هؤلاء ـ ضغط على حروف هذه الكلمة ـ آذاناً صاغية. قال إنهم لا يريدون أن يقروا بوجودي كما هو. وإنهم يرغبون في ممارسة دور المعلم لأن معلميهم في مؤسساتهم يمارسون هذه الأدوار معهم. وقال إنهم وجدوا فيّ ضحية سهلة. وكان يدخن بإفراط. وقال إنهم جميعاً ـ ووالده منهم ـ يحاولون أن يحققوا حلم كل إنسان على الأرض: صياغة البشر. ونفث دخان سيجارته في الفضاء وقال متفكراً:

ـ كأن الإنسان يرغب في أن يلعب دور الخالق.

يحسبونك مادة خامة ـ أية فرصة نادرة ـ ويريدون تفصيلك.. كل على مزاجه.

لأول مرة تفتّح في نفسي، بحذر وتؤدة، إحساس بالثقة. وتوارى الرعب للحظات. سألته هامسة يائسة:

ـ ماذا أفعل؟

إبتسم ونفث دخان سيجارته في الفضاء. قال ببساطة:

ـ ما تشائين..

أحسست مثل شخص هوى من قمة شاهقه، فرأى وهو يهوي رجلاً يحمل شبكة. لكنه لا يعرف إن كان سيحط عليها فتنقذه، أم سيهوي بعيداً عنها.. فينتشر اشلاء على الصخور. ثم هل ستصمد ذراعا حامل الشبكة لاحتواء السقطة؟

سقط ذقني على صدري. أشحت حتى لا تلتقي عيوننا. قلت إنني خائفة.

خائفة من كل جديد، من العائلة الكبيرة، من تلك الأجهزة أو المنظمات الغامضة التي قتلت أخي وأمي.

ربت على كتفي، فانتفضت كالملسوعة. قال:

ـ إطمئني.. هذه المدينة ليست بيروت.

ثم ودعني، قال إنه سيعود.

كان الأفق كئيباً ممعناً في الرماد. والجبال السبعة ـ التي تضاعفت وتكاثرت ـ تتدثر بمعاطف كابية.

تناهى إلى مسمعي صوت ناءٍ مؤنس يقول:

«أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء».

وتلفت فلم أر أحداً.

٦

دعاني مراد ابن خالي لتناول فنجان قهوة في «الفاروقي». شلت رأسي وقلت ما لي مزاج. ضحك وهدد بأنه سيجرني من ثوبي جراً، كما كان يجر الجرذ من ذيله جراً ليخرجه من جحره. قال هل تذكرين؟ وما كنت أذكر. والغرفة كئيبة وعيناه تومضان. قال إنه يرغب في التعرف عليَّ. ضحكت في صمت، وقطبت. وقلت إنه يعرفني منذ مولدي. عقد كفيه وراء ظهره وقال:

ـ كنت بحجم ساق السرير.

بسط كفه وانثنى، باتت فوق سطح الأرض بشبرين. قال: كنت بهذا الحجم. وكانت النافذة مشرعة، والهواء ينفخ بضجر. وافقت على مضض خوفاً من أن يجرني. وقال ونحن في الطريق إنه يلم بمقهى الفاروقي بين الحين والحين، كي يحس بما يحس به المواطنون السياح، الذين يرون هذا البلد بازاراً.

رفعت حاجبي دهشة، ولم أفهم ماذا يعني بالمواطنين السياح. ودلفنا إلى المقهى، وكنت مرتبكة، قلبي يخفق، وأخشى أن أخفق في امتحان الجلوس في مكان مزدحم. وبصعوبة عثرنا على طاولة شاغرة. وقال مراد إنه لن يستطيع أن يطلب لي

سوى فنجان واحد من القهوة. لأنه شبه مفلس، وقال:

- أرجو أن لا تكوني من مدمني الإكسبرسو.

وأطرقت، وشردت عيناي. شبكت أصابعي على الطاولة، ثم فردتها. وبغتة وجدتني أرفع رأسي، وأسلط عيني عليه وأقول بصوت لا يرتعش:

- أنت الحل الوحيد.

أبرقت عيناه، وتساءلتا. فقلت:

- هل تسافر وتحضر مخطوطة أبي.. ودفتر مذكراتي؟

قال:

- طبعاً.

وأطلق ضحكة مجلجلة أربكتني. قال إنه على استعداد للسفر إلى هناك، والعودة بناطحة سحاب. قال إنه شاطر في التهريب. ولكن كيف يدلف إلى الدار وهي مسورة برجال الأمن، وأجهزة التصوير؟ وجاءت القهوة، وتأملت رغوتها. كان الجميع يثرثرون ويرغون رغياً متصلاً. حين رشفت الرشفة الأولى، ترددت، ثم سألته أن ينسى ما قلت. لأن السفر إلى هناك مجازفة. دس يده في جيبه، واستخرج علبة سجائره. وضعها على الطاولة ولم يستخرج سيجارة. نقر باصابعه على الطاولة ثم قال إنه سيتدبر أمر الدخول إلى البيت ومقابلة الختيار بطريقة أو بأخرى. المهم أنه مستعد للمجازفة. ولم أصدق أذني. وحدثتني نفسي بأنه يخاتل، ليراودني عن نفسي. ثم استبعدت هذا الخاطر بتقزز. وذكرت نفسي بأنه مراد الصغير، ابن خالي الذي كان يجرّ الجرذان من ذيولها ليخرجها من جحورها.

هز كتفيه وقال إنه لا يدري كيف سيتدبر أمر دخول البيت. قال:

- ربما أجد طريقة لرشوة أحد الحراس؟

ثم صمت مطرقاً. وعادت عيناه تومضان على نحو مباغت. قال:

- سأقول لهم إن جدة الختيار توفاها الله، وقد جئت لانبئه بالنبأ الفاجع. هل تذكرين كيف كنت أهرب من المدرسة بحجة وفاة جدتي. ومرة قال لي المدير وهو يشد أذني، كم جدة لديك؟

قلت:

- لماذا؟

قال:

- هل جدتك قطة؟

قلت:

- لماذا؟

ولم أصرخ. وكان يشد أذني. ثم زعق:

- سبع مرات تغيبت بحجة وفاة جدتك.. هل لها سبعة أرواح؟

وأدركت حين لم يضحك. أنه يعني جدياً ما يقول. وأنه مستعد للسفر إلى تلك المدينة. حذرته. قلت:

- من دخلها من أقارب أبي مفقود، ومن خرج منها مولود.

لم يبتسم، ولم يقطب وقال إن اسم أسرته يختلف عن اسم أسرة أبي، وانهم لن يكتشفوا الصلة. ودهمني شعور أشبه بشعور يأس هائج يتأهب لينطح جداراً، فإذا الجدار ينفتح أمامه كباب. ولكن كيف يشعر اليأس المندفع نحو جدار يتحول إلى باب مفتوح؛ لا أدري.

وأتينا على فنجانينا. وهم مراد بأن يطلب الحساب. رفع يده ليشير للنادل. حين أقبل النادل، بادرت إلى طلب فنجانين آخرين.

امتقع وجه مراد.. فقلت: على حسابي.

كنت فرحة، وأود أن أقبله. لكن الناس والعيون وشفتي اليابستين والمنضدة التي تفصل بيننا.. وقلة العادة.. و...

وحين خرجنا أشار إلى الشارع وقال:

- يسمونه الحمراء.. تيمناً بشارع الحمرا في بيروت.

ثم تنهد وابتسم ابتسامة ساخرة.

تمشينا في «ظل الحمراء» وهو يعقد يده خلف ظهره، وأنا أعقد لساني خلف

الصمت. . وأتفرج. بغتة هتف بصوت ارتفع على هدير دراجة نارية لمراهق:

ـ وجدتها. . وجدتها.

سألته:

ـ ماذا وجدت.

التفت إليَّ وأوقفني. قال إنه سيأخذ وكالة رسمية مني تفوضه باستلام إرث أمي. وهكذا سيذهب إلى السلطات هناك، ويعلن عن حقه في وراثة أشياء أمي وسيدس بينها دفتر مذكراتي والمخطوطة. . أي صيغة قانونية من هذا القبيل.

حسبته يداعبني. ولكني لم أضحك. مشيت والأضواء تخطف عيني. قال:

ـ سندعي أن المرحومة الوالدة هي التي كتبت الجزء الثاني من المخطوطة. وأعلمهم بحقي في امتلاك المخطوطة بالنيابة عنك. كذلك بالنسبة لدفتر مذكراتك

انطلقت ضحكة خافتة من بين شفتي اليابستين وقلت إنه لا يعرفهم.

فقال إنه سيتدبر الأمر. ومشينا، استخرج سيجارة من علبة سجائره ولم يشعلها. وقال إن هذه المنطقة لا تنسجم مع شكل المدينة. وضع السيجارة بين شفتيه ولم يشعلها. قال متفكراً إذا كان الانسان في العالم الرأسمالي يشعر أنه آلة. فماذا يشعر الناس في دولنا النامية. آلات تسليم مفتاح؟ لا تعرف شيئاً عن نفسها، عن تركيبها؟ تأكلي «بشار»؟ يعني «بوب كورن». . معك فلوس؟ ثم شال السيجارة عن فمه ووضعها فوق أذنه كما يضع بعض النجارين اقلامهم. هززت رأسي بالايجاب. وقلت إن هذه المنطقة تبدو لي وكأنها:

فقاطعني قائلاً:

ـ مثل إرسال هواء من المؤخرة. . بلا ميعاد. كما يقولون بلا مؤاخذة.

وأعجبته الفكرة فأمعن قائلاً:

ـ أو كأنها. .

ثم التفت إلي وسأل:

ـ ولكن. . هل المخطوطة ودفتر مذكراتك مهمان إلى هذه الدرجة؟

فأظلم وجهي، ولم تفلح أضواء الشارع الباهر في إعادة الإشراقة إليـه. لا.. ولا استدراكات مراد، ومحاولات تأويل سؤاله على أنه ليس تردداً.

اشترى كيسين من البشار، فرفضت تناول أحدهما منه في البداية. قال كأنما يهددني:

ـ أنا جائع.. آكل ما في الكيسين.

جـزعت، ورأيت يدي تمتـد، تبـاغتني وتبـاغتـه وتخـطف الكيس الأبيض من يده... ورحت أتناول «البشار» وأمشي بصمت وعيونه تلاحقني بصمت..! قال إنه لا يعرفني وإن زمناً طويلاً وأمكنة نائية فصلت بيننا..! نتعارف من جديـد، فأنا مـا عدت أجر الجرذان من ذيولها.. نحاول أن يفهم كلٌّ منا الآخر. نهدم الجدار القائم بيننا... وكان يسير إلى جانبي والحيرة تنبعث من أعماقه.. ويقول، كم أنتِ بعيدة ومبهمة!

وفكرت.. أنا لا أعرفه أيضاً.. على الرغم من الطفولة المشتـركة التي غلّفهـا النسيان! ولكنني لن أعرف نفسي.. لن أتمكن من سبر أعماقها إذا صادرت العيـون الغريبة المتطفلة دفتر مذكراتي... لن أعرف ماضيَّ... فعيـون الغربـاء تكون قـد جعلتني أغتـرب عني... سيتحول هـذا الماضي إلى المجهـول... وسأبـدأ أنـا من الصف... بلا ماضٍ... بلا ذاكرة!!

الحرد.. لم يزايلني... ظل معي مثل قدري!!

في اليوم التالي أقبل مراد حاملاً حقيبة صغيرة، وجواز سفر وتذكرة طائرة!

طرت من الفرح.. ضممتـه إلى صدري بعفـوية. وشممت رائحـة سجائـره القوية تنبعث من شـاربه قلت إنني أرغب في مـرافقته إلى المـطار... ابتسم.. قال مداعباً «أنت لا تثقين بي»! وقال إنني أتخيل أنه سيركض ويدور حول البناية دورتين.. ثم يعود ويقول بأسف إن الطائرة فاتتـه! وإنه وصـل إلى المطار متـأخراً لأن السيـارة تعطلت على طريق المطار في اللحظة الأخيرة.

أطلقت ضحكة لم تتسع لها الغرفة الضيقة. فلما خرج صداها إلى الصالة اختلط بشخير أم يوسف الخادمة.

دفتر مذكراتي هو أنا.. الضائعة... غيابـه غيابي.. مصـادرته إلغـاء لعمري

كله! عيون الحرس وهي تنهبه بحلقةً في أعماقي... تقليب صفحاته من قبل الأصابع الغريبة أشبه بتجريدي من ثيابي.

مخطوطة والدي إثبات لوجوده! صرخة في وجه العالم اللامبالي... تنطلق من أعماق قبر العزلة... وتنعش ذاكرة هذا العالم المسترسل في خدره!

٧

دلف مراد إلى غرفتي وفي يده كأس فارغة. في الكأس يأس الخواء. في يده الأخرى زجاجة نبيذ. ملأ الكأس الطافحة بيأس الخواء. الخمرة في الكأس تتوهج كأنها عصارة اليأس.

قال إنه يريد أن يحتفل. ثم انفجر ضاحكاً وأنا أتأمله بعينين مضطربتين. قال بحماسة:

ـ الجماعة هناك وافقوا على استقبالي. ووافقوا على مقابلتي لوالدك. ووافقوا على تزويدي بأشيائك وأشياء المرحومة الوالدة. والسماح لي بالسفر. . «تدبر».

بهجة عريقة كامنة تحت ركام زمن غابر، تفتحت في أعماقي فجأة. وانبثقت من مكامنها السرية.. حتى أني شككت بواقعيتها. كأنما أرفض أن أقر بما سمعته. وأرفض أن أقر بأنني أقتني بهجة. كأنني بحاجة إلى ما لا يثير سوى سوداويتي.

كدت أثبُ عن السرير، وأعانق مراد. غير أنني نهيت رغائبي بحزم قاطع. وفطنت حين تأملته بفرح ، إلى أنه كان يتوقع أن أندفع نحوه وآخذه بين ذراعي. لكنني واقعة في أسر قوة خرافية مغناطيسية، تشدني بجاذبيتها صوب الداخل المسكون بالمحرمات.

أحسست بأنني قطار يندفع بعنف إلى أمام.. ويحلم بأن يكون طائرة. وبأنني جلمود صخر يتململ في محاولة يائسة لمقاومة الجاذبية، والتحليق في فضاء بعيد داخل في مدارات الصدى.

حيث لا أصوات، ولا إشارات، ولا مفردات، ولا دلالات، ولا معنى... سوى صدى يدور ويدور ويدور غامضاً مبهماً يحكي ولا يحكي.. يحكي ولا يقول.

فرحتي الصارخة الخرافية العارمة تتجلى بتحفظ في ملامحي، إذ تمر من الأعماق لتنعكس على الوجه وتطل من العينين عبر مخفر الرصانة والخوف من التأويل الخطأ. . والذعر من المبالغة في التفاؤل.

سكب لي كأساً من النبيذ فرددته وقلت لا أشربها . كانت عيناه تبرقان، وقال إنني أخاف أم يوسف. قلت إنني لا أخاف أم يوسف. دخن سيجارة وهو يتكىء على الحائط وقال إني أخاف أن تقول أم يوسف للناس أنني شربت كأس نبيذ. قال أنت تخافين الناس. ولاحظت أنه يتحكم في تعابير وجهه ويسيطر عليها . . فغبطته. عطفت وجهي نحو المرآة فطالعت في صفحتها وجهي. قال مراد كما تشائين. وأتى على كأسه بجرعة واحدة. وحمل الزجاجة وهمَّ بالخروج. فهمست:

- إبق.

التفت وفتح عينين أطل منهما ذهول وعجب. ثم اقترب مني بخطى وئيدة وقال للمرة الألف:

- يجب أن تخرجي من عزلتك.

وذكرني بأنه حين سألني من أنا، قلت لا أعرف لأن ماضيَّ كله ظل هناك في دفتر يومياتي. وأنا نسيت ما كتبت. أدرت وجهي جانباً، فشد على يدي، وربت على ذراعي. فانتفضت للوهلة الأولى ثم تماسكت. جلس إلى الطاولة وقال إنه قابل ذلك الرجل ذا النفوذ والصلات القديمة مع الجنرال. وأن الرجل ضغط على السفير. وأن السفير اتصل بمكتب الجنرال. وأن مكتب الجنرال أبرق أن لا مانع من قدوم رسول ليأخذ حاجيات الصغيرة وأمها.

صمت وقام عن مقعده وراح يذرع الغرفة مثل تلك الظلال التي تتلاعب بها الستائر. مثل تلك الستائر التي يعبث بها الهواء. وتأملته، يساوره ضيق ما لا أكاد أتبينه، إذ لا علم لي بما في الصدور.

بدا وكأنه يرغب في أن يبوح بسر لكن ما يكاد يبرزه لي حتى يستره عني، وما يكاد يقبل به إلي حتى يدبر به عني.

وغشت عيني سحابة من القلق، إذ سمعت صدى من صدره يقول أنا الباطن فلا تظهرني الظواهر. مراد يروح ويجيء بخطى مضطربة، لكن الكأس ثابتة في يده.

توقف فجأة ثم التفت إليَّ وقال بصوت حاسم :

ـ إنه يرغب في أن يراك .

رفعت نحوه عينين مستطلعتين تنتقلان ممّا أبرزه لي وتنقبان عما ستره عني . قطب مراد حاجبيه وقال بنبرة لا تخلو من قلق :

ـ لا أدري . قال إنه يرغب في أن يسألك عن سبب زجكم في الإقامة الجبرية .

بدا لي مراد في تلك اللحظة ظاهراً لا تحجبه الحواجب، واضحاً لا يغشاه غموض . ولكن ما قصة هذه الاجتماعات السرية في الشقة المجاورة؟

وأدركت أن معرفتي به نور يضيء لي عنه لا عني . سألته عن سبب قلقه . قال إن الرجل اشترط مقابلتي على انفراد . . وأنه عموماً لا يثق بالرجل . قال إن شبكة علاقاته أوسع من العادي . وقال :

ـ أعتقد أنه يمد خيوطاً على أكثر من جهة ، أنصحك بتجنبه إن أمكن .

وهممت أن أنهض وأسعى إلى النافذة . فأحسست بثقل غريب، كأنه ثقل قرون من الماضي يشدني إلى المقعد . لكنني وقفت، إذ خلعت عني قرون الظلام تلك مثلما أخلع معطفاً ثقيلاً . ووقفت أنظر إلى وجه مراد . كانت الكلمات القليلة المتبادلة تعبر فضاء من العزلة بيننا . سكب كأساً أخرى من النبيذ وأشعل سيجارة . سعيت نحو مراد كمن يسعى نحو هويته الضائعة . ثم وقفت أمامه ، وقلت بصوت لم أسمعه :

ـ شكراً .

فخرج ولم يقل عفواً .

٨

السبت . .

أم يوسف تجلس إلى الطاولة في المطبخ . تدعوني لتناول القهوة معها . تحكي كعادتها عن ابنها يوسف ، فيتخذ وجهها هيئة الفجيعة . تقول إنه قال لها إنه قتل ثلاثة وإنه قتل الثالث لأنه يجب والده . تصوري يا حبيبتي . الولد راح ، ضاع . حلت في جسمه أرواح الجن . إنه مسكون . ويقول أنا السبب . لماذا؟ قال لأنني كنت أحمله معي إلى بيت مخدومي الجديد . ولأنه كان يرى في غرفتنا الصغيرة أحلاماً

مرعبة. لا حول ولا قوة إلا بالله. تصوري أن يقول بشر سوي إنه قتل شاباً لأنه يحب والده. طبعاً أنا أعرف أنه لم يقتل أحداً. لكن السماء تريد أن تعاقبني، فمدت يدها الخفية وأخذت عقل الولد. وتركت رأسه فارغاً مثل جرة بلا ماء. وأقول له، ولكن يا ابني يا حبيبي يا ميمتي.. ألم أحمل شقيقك رمضان معي أيضاً إلى كل بيت خدمت فيه؟ فلماذا اختارك الشيطان وتركه. تزوغ عيناه، وينتثر زبد عند زاويتي فمه، ويقول إن رمضان ما كان يرى الأيدي السوداء، تتسلل إلى غرفتنا في العتمة، متوارية في قفازات سود، تجوس مناطق الحرام ثم تخرج بيضاء من غير سوء.

إنه يقرأ القرآن بياض النهار وسواد الليل. وأنا لا أفهم ما يقول يا ميمتي. يقول إنه قتل الثالث لأنه يحبه، ولأنه رغب في أن يمنعه من الوقوع في الهاوية، ولأنه يحب أن يظل والد القتيل نظيفاً شامخاً. تصوري.. الولد ضاع يا ميمتي.. عقله طار.

ونسمع طرقاً على الباب. تقوم أم يوسف بتثاقل وتفتح الباب. تزعق ابنة خالتي:

ـ هاتف لسناء خانم.

إنها تسخر مني. لا تحبني. لا أدري لماذا؟ ماذا ينقصها؟ لها أم تطوقها بذراعيها وتحضنها وتقبلها. ولا تحضنني ولا تقبلني أنا.

هبطت إلى الطابق الأرضي. وقلت لا بد أنه مراد. لا أحد يهاتفني سوى تلك الأصوات التي تلم بي في ظلام الليل.

صوت غريب. هاتف يهتف من أغوار بئر سحيقة نائية. قال إنه الذي توسط لدى السفارة والجهات المختصة، وهيأ سفر مراد. وسهل له مهمته. وقال إنه يرغب في رؤيتي. لم أسأله لماذا. ارتبكت، فتحت فمي لأقول فلم أجد ما أقوله. ولكن ما الذي يربكني؟ قال:

ـ آلو.. ألا زلت معي على الخط؟

عضضت شفتي السفلى. وأومأت برأسي أن نعم. لكنه لم يـر رأسي. فكرر ما قاله. فقلت والاضطراب يأخذني إلى متاهة الحيرة:

ـ لماذا؟

قال إنه لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال إلا حين يلتقي بي وجهاً لوجه. ثم وصف لي عنوان مكتبه. وقال إنه محام. هززت رأسي الذي لا يراه، وقلت إنني سأستشير مراد. قال إنه يود أن يقابلني على انفراد. وأمرني بصوته الطّاغي أن أخفي عن مراد أمر هذه المكالمة. وحين آنس مني صمتاً قلقاً، طمأنني. وقال إنه سيأتي ومعه زوجته. وسينتظراني في سيارة بيضاء «فوكس فاغن» في تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم. وأكد أن الأمر خطير ويتعلق بوالدي.

ارتعشت السماعة في يدي. وتخيلت الصوت.. صوت رجل ضخم فخم شرير، يريد بي الأذى. لكنه قال إنه سيأتي مع زوجته.

عندما أغلقت الهاتف تحلقت حولي مجموعة من أفراد الأسرة. وكان الضحك يصخب في عيونهم. والأسئلة بين شفاههم. قلت لا أحد. النمرة غلط. مش مهم. وقالت ابنة خالتي بخبث:

- الله الله.. علمناهم على الشحادة سبقونا على الأبواب.

وخرجت فشيعتني عيون تبصر مؤخرة رأسي.

في غرفتي السابحة في الشعشعة الذهبية والصمت الأسود، وضعت على رأسي منديلاً. لقد حزمت أمري وقطعت فيه. لن أدعهم يجردونني مما يجلل خواطري ويحجبها. وقفت أمام النافذة أرقب الرعب يتجلى في الشارع بازدحام الناس، وضوضاء السيارات، ونداءات الباعة. واستدرت نصف استدارة. ونظرت إلى المرآة نظرة تحتشد فيها الأسئلة. لكن المرآة صماء بكماء.

٩

هبطت زوجته من السيارة. وابتسمت. حدقت إلى أصابعها أبحث عن خاتم الزواج لأطمئن.. فأبصرته. راحا يحدثاني طوال الطريق عن صداقتها القديمة لأبوي. وكانت الطمأنينة تختصم مع الرعب في نفسي. هذه تنقبض وذاك ينبسط، هذه تدبر وذاك يُقبل، هذه تقوم وذاك يقعُد. ثم هذه تقعد وذاك يقوم. ثم يتواصلان ويتقاطعان. وعنَّ لي أن أستصرخ الزوجين أن يعودا بي إلى البيت. لكن قوة خفية ساطية أمسكت لساني في فمي.

أوقف السيارة أمام بيت مستقل تحيطه حديقة منظمة تنظيماً دقيقاً بشعاً.

وهبطت زوجته من السيارة أولاً. ثم هرعت بخطى متلاحقة إلى البيت. فتحت لها الباب خادمة سوداء. ثم توارت الزوجة. وتقدمنا بخطى وئيدة نحو الباب، وأنا أحمل ثقل قرون من الرعب، وساقاي ضعيفتان. ترجل الرعب والحذر والريبة من عيني. وتسلّلت إلى ركبتي فاصطكتا. وكدت أنوء بحملي. وظلت عيناي خاويتين، لا خوف فيهما ولا معنى.

عند الباب خفت السيدة الزوجة لاستقبالي كأنها لم تكن معي من قبل. وأنا قلت لنفسي إنني أتيت عملاً جنونياً. كيف أترك غرباء يقودونني إلى بيت مجهول؟ لعلهم من منظمة (م. أ).

قلبي يخفق بقوة. قلبي مضارب قبيلة بدائية موغلة في التوحش والتيه. طقوس عربدة مبهمة مسرحها قلبي. ينبض، يعوي، يضرب صدري من الداخل كأنه قبضة عملاق خرافي القوة، يقرع صدري من الداخل وقبضته قلبي. لن أفتح، لن أفتح، لن أفتح. أوصدت أبواب صدري بمزلاج عصي على الانكسار. وكنت أجلس مثل كسيرة تنتظر قضاء مبهماً لا يأتي.

وفي الصالة الأنيقة جلس الرجل على أريكة تقابل أريكتي. وبدأ يحكي. ولاحظت اختفاء زوجته. فأطل الرعب من عيني، ومن خلف رأسي. قرأه. ابتسم بلياقة وقال إن زوجته ستعود حالما تعد القهوة.

ولكن ماذا عن الخادمة السوداء؟ وأصغيت إلى صخب المظاهرات التي كان أبي يقودها، يتردد صداها في قلبي. قبضات تتلوح في فضاء قلبي بغضب. ورايات تخفق تخفق تخفق. وهتافات هادرة.. وقلبي ميدان يلعب به الصدى، يطارد. صدى أعنف من الصوت.

قال إنه كان ملتزماً مثل أبي.. منذ زمن بعيد. وكان بين الحين والآخر يتناول منديلاً ورقياً من جيبه ويتمخط، ثم يجفف عرقه. ويقذف المنديل في سلة قمامة فخمة. قال إنه اكتشف قبل والدي أنهم ضلوا الطريق. فاعتزل الدرب المسدود. كنا نصوغ وحشاً ونحن نعتقد أننا نُقُد من حجارة الواقع حلماً جليلاً. لكن والدك ركب رأسه ورماني بقصر النفس، والتعب، والتساقط، والانتقال إلى مواقع طبقية أخرى، ورماني بالتطلعات البرجوازية، والانتهازية والانهزامية..

تدخنين سيجارة؟ شلت رأسي سلباً. دخن.. شممت من أنفاسه رائحة شماته خجلى، وتشف يطل على استحياء.

انحنى بجذعه إلى أمام وجاست يده في وعاء بلوري من الكريستال يحتوي على أنواع مختلفة من علب السجائر: مالبورو، كنت، غولد ستار، روثمانز، «سوفت سيلك» «جيتان». . لكنني انتبهت إلى أن هذا الصحن البلوري الفاخر لا يحتوي على علبة من نوع سجائر «ريم». فتمشى قلبي في صدري، وأولت هذه الظاهرة تأويلاً أثار مخاوفي. قلت إن غياب «ريم» له دلالة تشير إلى أن مراد لا يتردد على هذا البيت.

تواثبت أمعائي. وهممت بأن أولي الأدبار. . فدلفت زوجته، تتبعها خادمتها حمالة صينية القهوة، في جيدها حبل بلون الخشب.

لاحظت ما ضاعف رعبي وريبتي. كان الرجل يشعل سيجارة مالبورو، ينفث نفثتين من الدخان ويسحب نفسين ثم يسحق السيجارة في صحن السجائر. ثم يتناول من فوره سيجارة «توب تويني» فيكرر ما فعله مع سيجارة المالبورو. ثم يتناول سيجارة «كنت» ويكرر الحركات نفسها.

ولاحظت أن إيقاع صوته ينساب حيناً، ويتلوّى حيناً آخر. يخفت فما أكاد أسمعه ثم يرتفع بغتة فأكاد أنتفض كالمباغت. قلت لنفسي والقشعريرة تمشي في جسدي:

ـ هذا رجل مقنّع. أقنعته عديدة متباينة.

قال إنه سهل مهمة مراد. ونفخ دخان سيجارة مالبورو. وإنه اتصل بجهات عديدة وذلل صعوبات لا يدركها خيال في سبيل ذلك. ونفث دخان سيجارة المالبورو، ثم سحق السيجارة في صحن السجائر. وتناول علبة «روثمانز» وأشعل سيجارة أخرى بقداحته الذهبية. أخذ نفساً عميقاً، ثم نفث دخان الروثمانز من منخريه. وكانت عينا زوجته معتمتين، وساقاها مشتبكتين، وكفاها مضمومتين. ورأيت في عينيها ضحكة، ورأيت فيهما ظلاماً سرمدياً تسكنه مخاوف. ورأيت في اشتباك ساقيها ايماءة مريبة مموهة. إيماءة تقول إن كل شيء على ما يرام. لكن ثمة خلل غامض؟ ورأيت في يديها أصابع صافحت القتلة والقديسين والمهربين وأصحاب البنوك والضباط والأبطال والمجرمين. . وحملة كواتم الصوت. أصابع تفضح حقيقة تتوارى وراء قناع، فتضمها. . تشبك يديها وتضم أصابعها العارية. تواريها.

كانت كلمات الرجل تمر أمام عيني مثل قافلة من الجمال، أو السيارات، أو الدبابات. وتعبر إلى أذني مثل طابور من الناس يتزاحمون ويتدافعون لدخول «دار سينما» أو فرن خبز، أو مدرج ملعب كرة قدم.

قال إنه كان من حواريي أبي. على الرغم من انتماء كل منهما إلى قطر مختلف. لكننا كنا ننتمي إلى تنظيم واحد. أليس كذلك؟ طبعاً. والآن.. أمتأكدة من أنك لا تدخنين؟ عدم التدخين نعمة. وأشعل سيجارة غولد ستار. وشعشعة شمس باهتة تنحدر من صدري إلى حجري. قال إنه يريد مني أن أؤدي خدمة كبرى لأبي، وقضية أبي المفجعة، وللجيل الجديد. وهي خدمة يسيرة لا صعوبة فيها. قال وهو ينفث دخان سيجارته ويضيق ما بين عينيه، فيتخذ وجهه هيئة من سيسر لي بسر خطير:

ـ أريد منك أن تقولي قناعاتك.. أقصد أن تسجليها. لاحظي ما قلت بدقة: «قناعاتك». شدد على كل حرف في الكلمة.

ـ يعني أن تقولي مثلاً إنَّ مراد إبراهيم قد فجع بحلم حياته. وأن تقولي مثلاً إن الثورة مثل القطة تأكل أبناءها.. لكنها في حالة والدك وغيره.. أكلت آباءها الشرعيين. ألم يفعلوا ذلك؟ إذن أنا لا أطلب منك سوى تسجيل قناعاتك. ما رأت عيناك. ما سمعت أذناك. لا أطلب تزويراً ولا تحريفاً.

سقط شعاع الشمس فجأة عند قدمي. ثم بدأ يبهت حتى استحال إلى ظل داكن.

كلماته تعبر أمامي، العمر يعبر أمامي، الماضي، القطة، الخادمة، الظلال، أصوات السيارات..

نفث دخان سيجارته ـ لم ألحظ نوعها ـ وتنشقت رائحة الشَّماتة والتشفي مرة أخرى. رائحة ملأت أنفي ورئتي. رائحة مثل دخان سيجارته عبثت بعيني فكادت تستل دموعها وتنهبها.

ثمة ما يغادرني. ثمة ما هو جزء مني.. يغادرني. يصبح غريباً. إنه صوتي. قال صوتي:

ـ لماذا؟

زوجته الصامتة غرست كوعها في فخذها. نفث دخان سيجارة غامضة وقال:

ـ آه.. سؤال متوقع.

نظر في عيني مباشرة، فسرت في بدني قشعريرة.. ولم تكن الصالة باردة. قال:

ـ للحفظ. للتاريخ. ربما يحتاجها طلبة الدراسات العليا الذين يؤرخون تلك المرحلة.

بعد سنوات أقصد. ربما تحتاجها دولة عربية أخرى، تود أن تقيم مهرجاناً في ذكرى ميلاد الوالد. تقيم له تمثالاً.. على سبيل المثال. عند ذاك سيبحث الخطيب عن معلومات. لماذا؟ كي يضمنها خطابه. كي يقول مثلاً إن مراد إبراهيم من أولئك الأبطال الأسطوريين الذين انتهوا نهاية مفجعة. مثلاً.. أعني.. مثلاً.

وهنا سيستند إلى أقوالك. لأن أقوالك وثيقة. لقد قتلوا كل الشهود.. ولم يبق سواك. تسجيل أقوالك على شريط فيديو، سيحول بينهم وبين تصفيتك. لماذا؟ لأن قتلك يعني بث الفيلم. بيعه لدولة تتلهف على بثه.

القطة تلحس ساقي. شعشعة الشمس الباهتة تلحس ساقي. إنني لا أستطيع أن أرى نفسي على شاشة الفيديو عند التصوير. لن أرى وجهي. الآخرون سيرون وجهي. لأننا جميعاً نرى وجوه الآخرين ولا نرى وجوهنا. سأقول فأرى الشماتة في وجوه المصور وصاحب الشركة وزوجته ومساعدي المصور. وسيرون هم في وجهي آيات الفجيعة، وشرخاً في القلب يعكسه الوجه. سيجردونني من ملامحي، ويدركون بشاعة المأساة النبيلة في وجهي الحقيقي.

أما أنا.. فلن يدرك بصري سوى ملامحهم. لا أستطيع أن انتزعها كي أرى صفحات الوجوه خالصة عارية بلا ملامح. لن أقف على حقيقة الدوافع: الإخلاص أم التجارة، أم التسلق على جراح الأبرياء لطعن الآخر؟ أم استخدام حكايتنا مثل كرة قدم يقذفها هذا نحو ذاك ليسجل هدفاً، ويقذفها ذاك نحو هذا ليصيب المرمى؟ أم أنهم سيحولونها إلى قميص عثمان، ومسمار جحا؟ واستخدامها سلاحاً يوظفونه في معاركهم العصية على الفهم؟ أم لعله يريد أن يشمت وحسب: يريد تشفياً خالصاً. لعله يرغب في أن يعرض «فيلم اعترافاتي» على رفاقه القدامى ليقول: أرأيتم. كانت بصيرتي تنفذ إلى المستقبل فترى اللاجدوى. لهذا انصرفت عن الجماعة. هل أقنعكم مصير الختيار بأن انصرافي لم يكن هروباً. أو ليقول للجيل الجديد: أنظروا ما حدث للختيار وتعلموا درساً. ففي حكايته دروس وعبر، منها نستخلص أن مسيرتكم على هذا الدرب ستصطدم بذات المصير المفجع.. وربما.. لا أدري.

ولم لا أوافق؟ إنني لن أتعرف على نفسي من خلال ملامح وجهي، أو نبرة صوتي. الوجه والصوت قناعان قابلان للتزوير، للزوال، لتحريف الزمن. هم سيرون وجهي، وأنا لن أراه. أنا سأرى وجوههم الشامتة. لن أعرف وجهي. أنا أعرف رائحتي فقط. رائحتي لا تتغير. لا يطرأ عليها تبدل أو حدث.

ولكن لماذا يخبرني هذا الرجل بأن لا أتحدث لمراد عن هذا اللقاء.

وخطر ببالي خاطر أفزعني، فاصطكت ركبتاي. ماذا لو كان هذا الرجل من جماعة الجنرال، ويريد بهذه اللعبة أن يمتحنني؟ ماذا لو كان على علاقة «بالجماعة» هنا؟؟ ماذا لو كان على علاقة مريبة بالطرفين؟ ماذا لو كان مزدوجاً؟

أطرقت حائرة مشدوهة. ثم رفعت رأسي وسألته إن كان ما يطلبه مني شرطاً مسبقاً يتوقف عليه نجاح مهمة مراد. بوغتت ملامحه، واحتقن وجهه. كأنني رميته بتهمة مهينة. لاذ بالصمت، أشعل سيجارة من نوع آخر. كأنه كان يرغب في أن يظل هذا السؤال بلا جواب. أو كأنه أراد من صمته أن يوحي إلي بجواب فيه من القلق أكثر مما فيه من الوضوح.

وهنا دخلت الزوجة. فبسطت يديها، وقالت إنها ستعترف لي بالسبب الحقيقي الذي يقف وراء هذا الطلب الغريب. قالت إنها تتوسلني باسم الأمومة أن أفهم. وأكدت أن دوافعها تختلف تماماً عن دوافع زوجها.

لاحظت أنها ترتعش انفعالاً، إنتقلت العدوى إلي فارتعشت.

قالت إن ابنها ـ وهو شاب مراهق لم يتخرج من الجامعة بعد ـ يتأجج حماسة. وإنَّه من أصحاب مراد. وصفته بالتهور والطيش. فردت يديها ثم ضمتهما بحركة عصبية وقالت إنها تريدني أن أقنعه بلا جدوى الخوض في هذا البحر اللجي الذي تغشاه ظلمات فوق ظلمات. أن أهمس في أذنه عن تجربة أبي المفجعة. لعله ينصرف عندئذ عن هذا الطريق المسدود المحفوف بالمخاطر. (وصفت السياسة في بلادنا بأنها طاحونة تطحن الأخضر واليابس.. فأعجبني التشبيه).

قالت إنها لا تطلب مني تسجيل «حكايتنا» على شريط مسجل أو فيديو. وإن كانت تتمنى ذلك. لكنها تتوسل إليّ أن أحكي «حكايتنا» إلى ابنها الضال، الساعي في درب الخطر العقيم، السابح في بحيرات السراب. قد يهتدي إلى السبيل القويم (أي الدراسة والعزوف عن الخوض فيما لا تحمد عقباه، والانكباب على بناء مستقبل شخصي زاهر، والزواج والإنجاب والحياة المستقرة) على يدي.

وأخبرتني أنها على يقين من أن حكايتنا ستهديه إلى الطريق القويم. وسيكون له فيها دروس وعبر.

وأقبلت الخادمة حمالة الشاي، في جيدها حبل بلون الخشب. غير أني نهضت

وقلت إنَّ رائحتي ستتلاشى إن أنا أقدمت على ما يسألون. أنا لا أتعرف إلى نفسي من خلال وجهي، أو يدي أو صوتي. . رائحتي دليلي.

ولم يفهما.

غادرت بيتهم لا أحمل شيئاً. تركتهما جامدين ذاهلين مع الخيبة ورائحتي. ثم استفاق الرجل من ذهوله. فلحق بي وحملني بسيارته إلى البيت.

١٠

دلفت إلى البيت فإذا الجميع ينظرون إليّ بعيون متسائلة فضولية مستطلعة. أحسست بها تنهش جلدي، تنشب مخالبها في المنديل الذي يجلل مؤخرة رأسي.

قالت خالتي:

ـ أين كنت؟

قالت جدتي:

ـ ما بال وجهك شاحب؟

قال زوج خالتي:

ـ من حقنا أن نعرف أين. . .

خالي لم يقل سوى الصمت. رنا إلي بعينين حزينتين ونطقت شفتاه بصمت أسود. ساورني قلق خفي. اندفعت نحو الدرج، أطوي الدرجات طياً. كان باب الشقة الصغيرة مفتوحاً. رأيت ظهر مراد. كان يجلس على مقعد خشبي وقد رفع ساقيه وحطهما على الطاولة. كان يدخن ويحدق إلى النافذة. حقيبته السوداء الجلدية الصغيرة رابضة عند قدم المقعد.

لم أنبس. لم يلتفت. قال:

ـ منعوني من السفر.

في تلك اللحظة طرق الشباب الغامضون باب الشقة المجاورة، شقة مراد. ولمحت من بينهم وجه الشاب الأسمر المديد القامة ذي الشارب الذي يشبه لون القهوة، والعين ذات النظرة الصافية البريئة.

تماماً كما وصفته أمه الباكية.

١١

دنت الصغيرة من مراد بخطى وئيدة خائبة. سألته بنبرة توحي بالإحباط:

ـ لماذا منعوك من السفر؟

لم يلتفت مراد، لم يباغت. ظل يحدق إلى النافذة صامتاً مقطباً. قالت بلهجة تعكس انفعالاً هستيرياً:

ـ لماذا يقف العالم كله ضدنا؟ لماذا منعوك من السفر هنا؟ لماذا لا يفرجون عن أبي هناك؟

لماذا..

سكتت فجأة. كأنها أحست بعبث الأسئلة. وقفت أمام مراد. ظلا يتناظران ساعة في صمت متصل ثقيل. لا هي تقول سوى رثاء أبكم، ولا هو يقول سوى صمت متجهم.

بغتة انتفض مراد من مقعده. انتصب واقفاً وقد اتقدت عيناه بومض غريب. تناول يدها ثم سعى نحو الباب كأنه يجرها جراً. قالت مستنكرة:

ـ إلى أين؟

قال دون أن يلتفت:

ـ سنذهب للاستماع إلى محاضرة عن «الديموقراطية والإنسان.. في الوطن العربي».

هتفت:

ـ لكني أخاف الشوارع، والناس، والأماكن المزدحمة.

ثم بتوسل:

ـ هل تحمل قرصاً من الفاليوم؟

دس مراد يده في جيبه، استخرج قطعة من اللبان. وقال:

ـ امضغيها.. اعلكيها.. هذه تعويذة ضد الخوف.. ثم إنها لذيذة المذاق.

وجرها.. وجرته، مثلما كانا يجران ذيول الجرذان، كي تخرج من جحورها..

١٢

جرني جراً. كما كان يجر ذيل الجرد ليخرجه من جحره، واقتادني إلى وسط البلد. هكذا دفعة واحدة. والرعب يمشي في داخلي وأنا واقفة جامدة يشلني الاضطراب. خطواتي خطوات الرعب لكني أستمدُ من يده قوة وثقة لست أنا التي أمشي. خطواتي مستقلة عني، تضطرب وتترنح ولا تكاد ترتفع عن الأرض قليلاً حتى يدهمها الرعب، فتهبط مذعورة فاقدة الأعصاب، تتلمس الأرض تحتفل بالجاذبية. ومراد يأخذ يدي بين يديه، ويدفعني دفعاً هيناً، ويقاوم جذعي المتصلب مقاومة واهية، نال منها الارتباك، عيناه تحثانني، تبثان الطمأنينة في صدري. وأرفع رأسي وأتلفت بحذر فأرى العيون تبحلق في. يَعنُ لي أن أولي مدبرة إلى ملجأي الظليل، إلى «النفري» أو «ابن عربي» أو «الغزالي». . لكن قبضة مراد قوية. والتحرر منها مستحيل كتحقق حلم نبيل. تنهشني الوجوه، يندس من قتلوا أخي وأمي بين المارة. حين تلتقي عيوننا يتكلفون أنهم عن ذكري معرضون. ويجرني فأغض الطرف، وأكاد أغمض عيني، لولا حذري القلق. عيناي تنتقلان من يد إلى يد ولا تستقران في مكان. أراقب الأيدي التي قد تتسلل فجأة إلى جوف سترة، وتشهر مسدساً كاتماً للصوت.

أرغب في الموت. ولكني أرغب في الحياة أكثر. ولا أفهم لماذا؟

المارة يتبسمون ضاحكين مني. يرفعون أكفهم إلى أفواههم يكتمون ضحكاتهم. لماذا؟ لا أدري. ربما يتهامسون قائلين: هذه ابنة الخائن؟ ربما يقولون هذي هي الفتاة التي خرجت من عنق الزجاجة. هذي هي الفتاة البدائية التي لم تخرج إلى العالم الخارجي منذ خروجها من رحم أمها. هذي التي خرجت من رحم أمها إلى رحم خابية أو قمقم أو عنق زجاجة.

ومراد يساندني كلما هممت بأن أولي مدبرة. من أين أوتوا قوة قراءة خواطري؟ وجوه تعلم ما يكنه صدري، وما يعلنه خيالي. ويتضاحكون من الأصوات العارية التي تلم بي ليلاً. أحد المارة غمز لي بعينه. قرأت في عينيه رغبة في أن يتحول إلى صوت ينضم إلى قبيلة الأصوات التي تنهب ليلي، وتستبيح غرفتي، وتتحسس غطاء السرير الرقيق.

ما كنت أعرف إلى أين يقتادني مراد. ولم أسأله. كان صوتي مكتوماً متوارياً. ووجدتني فجأة في قاعة تزدحم بالناس، ورأيت ثلاثة رجال يجلسون إلى طاولة ويتحدث أحدهم كلاماً تأبى على مسمعي.

ويقودني مراد إلى مقعد، يشق طريقنا بين الناس. يقتادني كأنني عمياء، وقد كنت بصيرة. ويتلفت الجمهور. وجوه في عيونها فضول جائع نهم. يطمئنني مراد، كأنما قرأ هواجسي. يقول إننا وصلنا متأخرين وإنّ الحضور ينظرون هكذا إلى كل من يأتي في منتصف ندوة. وترامى إلى مسمعي لغط، ثم خشعت الأصوات، فما عدت أسمع إلا همساً. جلسنا في مقعدين أماميين، فشعرت بالعري. كل من يجلس ورائي يعلم ما بين يديّ وما خلفي من هواجس.

أستجير بالنفري، فلا يستجيب، وإذا هو لا يملك لي ضراً ولا نفعاً. حاصرنا الصمت كأنما ليوفر الحماية لصوت المحاضر. تساءلت:

أفي قلبي مرض، أم يرتاب الناس فيّ، أم يخافون مني. وأنا سراب لا يملك نفعاً ولا ضراً.. فإذا اقتربوا مني لم يجدوا شيئاً سوى خرائب. فإذا بالمحاضر يقول إنّ الأمة في هذه المرحلة أشبه بالرجل المريض. وقال إنه يعتقد أن في قلبها مرضاً، وإنّه يرتاب في مستقبلها، ويخاف منها عليها.

أدركت أنه قرأ هواجسي، وتساءلت كيف؟ وهو يجلس في مواجهتي؟ وقال إنها تظهر ما لا تبطن، وتبطن ما لا تظهر. وملت نحو مراد وقد اقشعر بدني، ونهبتني نوبة رعب ووحشة وهمست:

ـ إنه يقصدني.

ابتسم وهمس:
ـ بل يقصد الأمة.

قبضة كآبة سوداء التفت حول عنقي. والوجوه تحاصرني، والعيون تنهشني. فانتفضت واقفة. فانتصب مراد، وأخذ ذراعي وقادني إلى الخارج.

عيناي غائمتان. عيناه مضيئتان ولو لم تمسسها نار، كأنها كوكب دري توقده عزيمة مستحيلة مفجعة. اعتذر لي. تنشقت الهواء، ملأت رئتي. وشعرت بساقي وكأنها ستخذلانني. قال إنه تعجل دفعي إلى حركة المجتمع، وزجي في تيار الحياة. قال إنني أشبه ما أكون بشخص عاش دهراً في كهف معتم.. ثم خرج من فوره إلى بقعة مكشوفة عارية لا ظل فيها... في عز الظهيرة. فكاد سنا الشمس يذهب ببصره.

اعتذر مرة أخرى. وأوقف سيارة أجرة. وفي الطريق ملت برأسي على صدره،

واستسلمت لنوبة بكاء هستيرية. . والسائق يبحلق في المرآة.

مال مراد نحوي وهمس:

- عجزنا عن إعادة دفتر مذكراتك إليك. . لا يحول بيننا وبين التطلع إلى الحاضر والمستقبل.

أما منعي من السفر. . فلا أهمية له. صحراؤنا واسعة، وواحاتها رحبة.

دوائر الأصوات

١

صوت الختيار. . .
الصمت والعزلة نفي لوجودي.
الصمت يقول: أنت لست موجوداً.
فأكتب.
عندئذ، تقول الحروف إنني كامل الحضور.

٢

صوت كاتم الصوت. . .

إنني عاجز عن فهم البطولة. لا أفهم الأبطال أبداً. حين أموت لا أريد أن أترك سطراً في كتاب التاريخ، ولا فاصلة، ولا ضمة. لا أرغب في أن أترك بصمة واحدة على لحظة من لحظات الزمن الأبدي الهاربة.

نعم قتلته. قتلته لأنني أحبه، لا في سبيل مبلغ من المال. قتلته لأني كرهت ضعفه، وكرهت قوة أبيه.

كلا.. هذا ليس صوتي. ليس صوت كاتم الصوت. فكاتم الصوت لا صوت له.

كنت صادقاً حين قلت لأحمد إنني أرغب في حمايته. وحين قتلته.. كنت أحميه من نفسه.

٣

صوت الختيار. . .

أجلس إلى الطاولة وأكتب مخطوطتي «الانحياز إلى الحياة». لن أنهيها قبل أن يقبل القرن الحادي والعشرون. . ولينتظروا ما شاء لهم الانتظار. لن أنهض عن الطاولة قبل مجيء هذا القرن الجديد الباهر.

أذكر صديقي الذي أعدم وأنا في قمة الهرم. لم أسأل. أقول الآن:

«أكلت يوم أكل الثور الأبيض».

٤

صوت كاتم الصوت. . .

إنني أحب الختيار. إنني أكرهه. أحبه لأنه قوي مثل أبطال الأساطير، أبغضه لأنه ضعيف مثل البشر.

٥

صوت الصغيرة. . .

هل أنا بشر أم نبات؟ أروح هنا، أجيء هناك. أسافر، أحلق. . لكن جذوري ضاربة في أعماق الرعب السحيقة. . جذور صلبة لا تتزحزح ولا تميل.

هل أنا بشر؟ هل أنا نبات؟

٦

صوت الختيار. . .

النبات رفيقي. «المجنونة» تجلل الواجهات الزجاجية. لكنها لا تواري الآن، سوى الصمت والعزلة. إنني أكتب، وأقرأ للصمت والعزلة ما كتبته بصوت مرتفع. فيهزان رأسيهما إصغاءاً أو إعراضاً.

أصغي إلى نبض القرن الحادي والعشرين. يترامى صدى صوته من بعيد. عصارته تسبقه، ظله يتخطاه، صداه يصل قبله، رائحته. . إنني أتنشق رائحته الآن.

٧

صوت سلافة . .

أنا آلة تسجيل معطبة. ولا أدري كيف أشغلها وأديرها. سلعة مستلبة لا تكاد تعرف ما الذي تسجله.

أتنشق رائحة السكارى. اعترافاتهم مضرجة برائحة الخمرة. أحرف كلماتهم ملونة بالكحول. عباراتهم يرنحها السكر. وأنا لا أسمع سوى صدى. أبصر المفردات الملونة بالكحول. . ولا أسمع سوى تهتهة أو صدى. لا أسمع سوى صوت الصمت الواضح المرتفع.

٨

صوت الصغيرة . .

كاتم الصوت يعجز عن كتم صوت العيون. للعيون أصوات عصية على الصمت. للعيون لغة لا يكتمها كاتم. إذا كتب لي أن أعيش حتى الشيخوخة، وأن يطرأ عليّ تغيير، فإني أتمنى أن أتحرر من مخاوفي. أن أخلع هواجسي كمعطف. خشعت الأصوات للرحمن، فلا نسمع إلا همساً. هل يأتي كاتم الصوت في هذه الليلة، متدثراً بالمطر؟

٩

صوت الختيار . .

إنهم يحدقون إليّ من خلال أوراق «المجنونة» المضرجة بالزهر الجارح. أجلس إلى مكتبي. أكتب ولا أكتب. لأنهم ينتظرون. ينتظرون أن أنقطع عن الجلوس إلى الطاولة. ليتنفسوا الصعداء، ويقولوا: أنجز مخطوطته الثانية. . أنجز عمله، عمله اكتمل. . فلنصادره. لكنني أجلس إلى الطاولة كل يوم لأنني أعرف. لأنني لا أريد لعملي الثاني أن يكتمل قبل تجلي القرن القادم النضر مثل غصن أخضر.

أكتب ولا أكتب. الفصل ينجب توأمين. الفصلان ينجبان عشرات الفصول. فصول خضراء تحمل في رحمها ربيعاً يصوغ سنة بلا خريف. تتكاثر الفصول مثل تكاثر الأرانب.

أكتب ولا أدخن. . ولا أنجز عملي، وألعب رياضة الصباح. أمشي من المطبخ إلى غرفة النوم. أروح وأجيء، أروح وأجيء. وأشعر أنني أجوب البلاد.

١٠

صدى . . .

شعرها يعربد في الريح ، وكان يمشي إلى جوارها ، يدها في يده اليمنى . ويده الأخرى تعبث بشعر الهواء الراكض . يعترف لها أنه مزدوج . تقف ، تلتفت إليه . ثم تمشي فيتبعها ويتبعهما الشارع . وتقول : كيف؟

يهبطان إلى البحر . يقفان على حافة البسيطة . تتعربش الأمواج أقدامهما . يربت على كتفيها . تلتفت . يقول أحمد إنه يشعر بميل نحوها ، لكنه يشعر بميل نحو خضراء أيضاً .

تسلط عينيها على شفتيه . تقرأ كلامه . تورق بسمة خريفية على شفتيها . تقول لماذا نتعجل زمن الحسم . ليحصينا الزمن بدلاً من أن نحصيه . لنقف في مكاننا ونشيح عنه بازدراء . ليسعى هو إلينا . وحين يقبل لا نقع في إيقاعه الرتيب . لأنه يحصينا ، ونحن لا نحصيه . لأنه يتكتك ، يذكرنا بالمواعيد ، وأنا صماء . وأنت بلا ذاكرة .

وينهمر مطر خفيف فتشيح سلافة وتبلله بدموعها . تقول إنها ليست دموع الفرح ، ولا دموع الحزن . تقول إنها دموع الدهشة . تدهشها الحياة . تقول . وهي تملأ نفسها بهذه الدهشة المتوهجة البدائية الوحشية الباهرة .

تتخطف الريح شعرها . . فيهرب . يحاول أحمد أن يفتح مظلته . فتقبض على يده . وتمنعه . تتهمه بالتحفظ ، بالخوف من الحياة والمطر . أنت مصقول ومحسوب أكثر من اللازم . تقول . والأمواج تتعربش على قدميها ، تتقدم سلافة قليلاً . فتمد موجة فحلة يدها وتحسس ساقيها . يقول أحمد إنه لا يسمح لكائن بأن يتحسس ساقيها .

يقول :

- إرجعي .

لكنها لا تسمع صوته . لأن عينيها على البحر ، لا على شفتيه . ولأن جدار الصوت الخفي قائم من الأفق إلى الأفق . ولأن حاجز الصمت مرتفع . . مرتفع . . مرتفع مثل صرخة .

لأن التواصل ينطح حواجز الصوت الصلبة ، لأن التخطي يرتطم بحاجز الصمت المرتفع العالي مثل صرخة .

تلتفت ، تضحك من وجهه المضحك . تشعر بأن نظراته تنحدر من عنقها

وتتسلل تحت الثوب. تحس بنظراته تدب على بشرتها وتتسرب إلى مسامها، إلى عصارة الحياة الجارية في شرايينها. فتسري في جلدها قشعريرة لذيذة. كأن نظراته المتسللة هذه تدغدغها.. هناك تحت الثوب.

يكرر ما قاله ويضيف:

ـ أغار عليك.

يهب شعرها في الريح. تقول إنَّهُ شرقي متخلف. تقول ساخرة إنها لا تغار من «صديقته فقط». لكنها تكذب. تبعد الحقيقة عن عينيها، كما تنأى الأصوات عن أذنيها. وأحمد يعرف أنها تغار. ولا يدري ماذا يفعل. كيف يقنعها أن خضراء صديقته «فقط» فعلاً. فتح المظلة ومشى باتجاه الشارع، فتبعته سلافة. تبعتها موجة مغامرة، حين بدأت الموجة تلهث، توقفت، ثم تلفتت كاليائس، وانسحبت عائدة إلى جاذبية عالمها.. حيث الأسماك، والغرقى.

١١

صوت الصغيرة...

قالوا إن إحساسي بأن عيون الآخرين تتسلل إلى مؤخرة رأسي، تنقب عن هواجسي، تقرأ خواطري الحميمة، تهتك حجاب مشاعري الآثمة وأحاسيسي الفاضلة.. قالوا إن هذا الإحساس ضرب من الجنون. «بارانويا» سموه. أي مرض الشعور بالاضطهاد.. ولكن كيف يسعهم أن يفسروا اهتمام العيون الفضولية المريبة، بتلك الأفكار والأحلام والهواجس التي تسكن مؤخرة رأس مراد؟ كيف؟

١٢

أصوات مبهمة

يرقد أحمد بجمجمته المزدحمة بالأحلام، المسكونة بالأغاني، على قفص أمه الصدري. كأنه عصفور مولع بالقفص. إنها تحت التراب. جمجمته على قفصها الصدري. وصوتها المكتوم يغني:

ـ نم يا حبيبي نم.. كي أذبح لك طير الحمام.

وعيناه مفتوحتان على اتساعهما.

هـ

ملحق

١

صوت المؤلف . . .

لقد بات أحمد اليأس في كماله. يتحول إلى عدمٍ محض. قال ليوسف ذات مرة:

ـ بوسعي أن أطير الآن. لأني بت بوزن الريشة. بلا هدف، ولا جاذبية، ولا بوصلة ولا معنى.

قطب يوسف ولم يفهم. رمقه بنظرة مستريبة تظن بعقله الظنون. قال بصوت قاتم:

ـ اثقل يا أحمد . . أنت لست حراً. لست ملك نفسك. أنت تمثل رمزاً.

أطلق أحمد ضحكة هستيرية مرضية وقال إنه على العكس من ذلك تماماً. قال إن انهيار الحلم جعله حراً تماماً. عارياً من مسؤولية الحلم الباهظة. قال إنه خلع التفاؤل كما يخلع معطفاً ثقيلاً. قال ليوسف:

ـ تصور أن تمشي في عز الصيف . . وتضرب في متاهة صحراوية لاهبة . .

وأنت داخل معطف داكن ثقيل.

ولم يفهم يوسف. تضاعف غضبه وقطب. لم ينبس. صمت كالحردان، كالمحتج على هذه الخفة التي لا تليق بابن أستاذه.

وأحمد يشفط البيرة شفطاً، تحت الشمس الحارقة، ويقول:

ـ **ما أجمل البحر.. والحرية.. واليأس المطلق. ما أجمل الفجيعة حين تختتم بفصل العبث الشامل وستارته النهائية.**

وقال إنه تجرد من الأمل كما يتجرد غريق يحاول النجاة، من ثيابه. من سترته الأنيقة، من ربطة عنقه الثمينة، من بنطاله الذي تهواه حبيبته (؟) من حذائه الصقيل الذي كان يمنحه إحساساً بالرصانة والتفوق.

قاطعه يوسف وقد ضاع تماماً:

ـ إنك تفرط في احتساء الخمرة..

ابتسم أحمد ورفع كأسه كأنما يحيي الموج الفوضوي الصاخب. كأنما يشرب نخب العربدة، والانفلات، والفوضى. كأنما يحتفل بالخلاص من التزام كان مفروضاً عليه، ومن انتماء كان يقتضي طقوساً وشعائر يرغب عنها في باطنه.

أتى على نصف كأسه بجرعة واحدة. ثم مسح على شاربه بكم قميصه والتفت إلى يوسف. ثم سأله فجأة:

ـ هل تؤمن؟

بوغت يوسف. خمن أن الخمرة قد عبثت بعقل صاحبه. قال دون أن يلتفت:

ـ ماذا تعني؟

لم يرد على السؤال بجواب. رد أحمد على السؤال بسؤال. قال:

ـ لماذا أعجز عن الاستسلام للحق؟ لماذا نور علمي يضيء لي عني، لا عنه؟ لماذا أطلبه فيجعل المعصية بيني وبينه؟ لماذا أقبل عليه فيدبر عني ويستتر؟ لماذا تحجبه الحواجب؟ لماذا يكمن في الباطن فلا تظهره الظواهر؟ لماذا أمد يدي إليه، فأكاد أحس بيده تمتد لتنتشلني، أنا الذي تتقاذفني أمواج الظلمات.. أمد يدي يائساً صارخاً، فلا أرى سنا برقه يذهب بالأبصار ويبدد ظلمات بعضها فوق بعض، وأنا بينها أنسحق. لماذا أخرج يدي فلا أكاد أراها؟

انتفض يوسف واقفاً. وقال وقد أربد وجهه:

ـ ينبغي أن أحملك إلى الشقة. ستفضحنا. أنت تهلوس. ساعة تقول اليأس جميل، عدم الالتزام حرية، وساعة أخرى تتشكى عجزك عن الإيمان. قم. قم. الناس يبحلقون. أنت معروف. العيون تعرفك. اسمك معروف.

٢

يوسف:

كان يترنح حين حملته إلى السيارة. قلت إنني درست الفلسفة. لكن! ما معنى: «ما أجمل الفجيعة حين تختتم بستارة العبث أو خاتمة العبث أو الخ الخ الخ»... لا أفهم. والناس! يا للفضيحة. كل العيون تعرفه. كل العيون.. في الشوارع، والمنازل، والمدن، والبلاد، والقارات.. تعرفه. أقول له أنت لست ملك نفسك. فيقول كنت. أما الآن.. بعد ما جرى للختيار فقد أعتقني القدر. تصوروا الوقاحة. كأنه يشمت بما جرى للختيار! كأنه كان يتمنى منذ زمن بعيد أن تقع الكارثة! كأنه كان يتطلع إليها بشوق.

إنني لا أفهمه بتاتاً. لا أفهمه أبداً أبداً.

إنه الآن يشخر. وأنا أجوس الشقة قلقاً. يقول إنه يعيش فائض عمر. يقول إن فائض العمر أجمل من العمر ذاته. لأن فائض العمر لا حسابات فيه، ولا ربح ولا خسارة.

لا أفهم هذا الولد الضعيف. لا أفهم ضعفه. لا أفهم قوته. حدث ذات مرة أنني كنت أذرع الشقة قلقاً مضطرباً. أدنو منه بين الحين والآخر. أميل برأسي على صدره، أصغي.. لا أسمع تنفسه. تصطك ركبتاي: لقد مات. يقشعر بدني.. وألتخم، أرتبك. أركض إلى الباب كي أقرع باب الجيران، فما أكاد أصل إلى الباب، حتى أنقلب على عقبي. أعود بسرعة الومض إليه. تنفس اصطناعي.. هذا ما يحتاجه. الكحول سممت دمه. وأنحني على وجهه، فإذا به يفتح عينيه، ويصرخ:

ـ أنقذوني مني.

أقلبه على بطنه. حتى لا يبتلع لسانه. تهدر في أعماقي أمواج غضب صاخبة. تغمرني. تهزني. إذن لم يمت. لم يحتضر. أي رعب سببه لي. أي إحراج سببه للرمز؟ ماذا لو خنقته الآن في هذه اللحظة؟

شعرت برغبة مجنونة تستحوذ علي وتدفعني إلى الاطباق بيدي على عنقه. وباغتني شعور بأنني أرغب فعلاً في قتله. لا.. لم تباغتني رغبتي في قتله. أفزعني الدافع، باغتني باعث الرغبة:

احسست أني أرغب في الانتقام من الختيار.. بقتل أحمد. تصفية حسابات مبهمة. الحياة كلها مبهمة. إنني لا أفهم أحمد. لا أفهم الختيار. لا أفهم نفسي. العالم

غامض عصي على فهمي. الحياة لغز.. وأنا لا أفهم.

هربت من هذه المشاعر المصطرعة، والتساؤلات الملحة المقلقة إلى الصالة. حيث مكتبة أحمد. ورحت أتناول كتب «بيكيت» و«ينسكو» و«أداموف» بحركات عصبية هائجة. قوة خفية خارقة كانت تدفعني، تستحوذ على قواي. ما كنت أعي ماذا أفعل. ما كنت أحس بنفسي.

قذفت بهذه الكتب بالتحديد إلى الأرض، ثم لملمتها واندفعت إلى الشرفة. ألقيتها في وعاء الغسيل المعدني. وأضرمت فيها النيران. أحسست بأنها نيران حقدي تتأجج. ولكن أي حقد؟ ولماذا هذه الحماسة الهستيرية.

حاولت أن أفهم. أن أبسط الأشياء. قلت لنفسي إن مصدر أفكار أحمد السوداوية العجيبة هو هذه الكتب التي تروج للعبث. ولهذا أحرقتها. ولكنني لم أقتنع. إذ أني لم أقرأ كتاباً واحداً منها. هو كان يقول إنها تمثل مسرح العبث.. أو العدم.. أو اللاجدوى. الخ.. الخ.. الخ..

إنني لا أفهمه، ولا أفهمني.

كنت أحدق إلى النار تتأجج، وأتنفس الصعداء. سكينة عذبة احتوتني. لذة أشبه بالنشوة.

أطل أحد الجيران وصاح محتجاً. قال إن دخان النار تسلل إلى شقته. إبتسمت بهدوء. ودلفت إلى غرفتي منتشياً، أشعر بخفة وخدر ناعمين. رقدت على سريري. أشعلت سيجارة، أخذت نفساً عميقاً. أحسست بلذة التدخين. لذة مميزة لم أعهدها من قبل.

وترامى إلى مسامعي صوت الجار يزأر مرة أخرى. لكنني ابتسمت، ولم أتحرك. وبين الشخير والشخير كان أحمد يغمغم: ليتني أعتزل. ليتني أعتزل. وتنهمر دموعه. وهو في شبه غيبوبة. وأنا لا أفهم. وأبتسم. حدث كل هذا قبل أن يقر قراري على قتله.

٣

صوت المؤلف...

قال أحمد إنه كان يحاول أن يجد صيغة توفق بين التراث والمعاصرة، بين ابن

رشد والمادية الجدلية.

فتح يوسف فمه وعينيه وأذنيه كأنما ينتظر سماع أنباء نتائج هذه المحاولة. لكن أحمد سكت كأنه انتهى من قول جملة مفيدة. سأله يوسف بفضول لا يخلو من ريبة:

ـ وبعدين؟

دس أحمد كمية من التبغ في غليونه. أشعله على مهل. ثم قال:

ـ ولا قبلين. مـا عـادت المسـألـة تعنيني. كنت أكتب.. ثم صـرت أدون ملاحظاتي في ذهني.. ثم انصرفت عن المسألة تماماً. لأنها لم تعد تعنيني.

وضع يوسف يديه على خاصرته وقال بلهجة المستنكر:

ـ وما الذي يعنيك إذن؟

حدق أحمد إلى البحر. وقال:

ـ لست أدري..

ثم جعل يغني مدارياً إحتقان يأسه أغنية لعبد الحليم حافظ:

ـ جئت لا أعلم من أين؟ ولكني أتيت.. من أين جئت.. لست أدري؟

قال يوسف إن أحمد لا يحفظ كلمات الأغنية بشكل دقيق، وإنه يذكر جيداً أن عبد الحليم غنى هذه الأغنية في فيلم الخطايا، وأن نادية لطفي مثلت في الفيلم. وأنه كان ينتحب طوال الوقت في عتمة الصالة، لأن الفيلم محزن.

٤

صوت المؤلف...

قال أحمد وهو ينكث الرمل بعود ثقاب، إنه كان يعرف من هو. لقد اعتاد نفسه أكثر من عشرين سنـة. ثم.. بغتة استفـاق على وقـع كابـوس، فإذا هـو ليس هو. وعندما حدق إلى المرآة لم يتعرف إلى وجهه الجديد الغائم الملامح.

قال يوسف إن الـرمل ينتـثر على عينيـه. وأمر أحـمـد أن لا ينكث الرمـل بعود ثقاب. بدت على وجه أحمد ملامح القرف واللامبالاة. وقال إنه لا يريد أن يتعـرف على نفسه الجديدة، ووجهه الجديد. لا يرغب في تلك المهمة الثقيلة. لا يرغب في أن يبدأ من الصفر.

كانا يحتسيان القهوة في مقهى رصيفي. قال يوسف بأسى:

ـ هل غسلت يديك من كل شيء؟
أطرق أحمد ثم ابتسم، ومد بصره نحو المارة. قال:
ـ أنظر إلى هذه المرأة الاستراتيجية ذات الثوب الأحمر. .
أطرق مرة أخرى. طرق غليونه على طرف الطاولة وغمغم:
ـ لقد غسلت يدي من الحياة.
ثم استدرك قائلاً:
ـ ثمة أمل في المقاومة. حيث الأمور سوداء وبيضاء. عدوك هناك. . والبندقية في يدك. . ولكني متشائم.

قال له يوسف، إنه مصاب بعقدة نفسية، وإنه عصابي. قال:

يخالجني شعور لا أستطيع تبريره أو الدفاع عنه. بأنك تحاول أن تعاقب الختيار.

رد أحمد بعصبية فورية:
ـ هذا إسقاط. أنت الذي يحاول. .
استدرك أحمد. أطرق مفكراً ثم رفع رأسه ومد يده إلى فنجان القهوة، وقال:

ـ أنت تحاول أن تعاقبه على قوته. وأنا أعاقب ضعفه. هذا هو الفارق الوحيد بيننا.

وارتعش فنجان القهوة في يد أحمد.

٥

صوت القارىء. . .
إلى أي بلد تنتمي أم أحمد؟ إلى أي بلد ينتمي الختيار؟
صوت المؤلف: تنتمي أم أحمد إلى مدينة ذات جبال سبعة. تحبها وتحلم بها وتنقلها معها مثل خاتم الزواج أينما يممت وجهها، وحيثما حلت قدماها.

صوت القارىء: والزوج أي الختيار؟
صوت المؤلف: يقول أحمد في فصل لم أكتبه: «أعمامي من قطر عربي، وأخوالي من قطر آخر. فمن أين أنا؟» يرد أبوه: الأردن شقيقة العراق، والعراق شقيق سورية، وسورية شقيقة مصر، ومصر شقيقة الجزائر. ونحن عرب، والوطن

العربي الكبير هو وطننا الأم.

سأله أحمد - في الفصل الذي لم أكتبه -: وكيف تكون الأجزاء شقيقات والكل أم؟ جمع الشقيقات لا ينتج أماً. لو صرت أنا وأختي الصغيرة شخصاً واحداً.. هل نتحول إلى أم؟

وضحك الختيار، لكنك يا عزيزي لم تسمع ضحكته لأنني لم أكتب هذا الفصل الذي ضحك فيه الختيار.

صوت القارىء: لا أرغب في مقتل أحمد والأم الصغيرة لم تصل. إسمح لي أن أشاركك الكتابة، وأقترح إنقاذ الصغيرة على الأقل من كاتم الصوت.

صوت المؤلف: ولكني أريد أن أقول إن الأسرة كلها قد تعرضت للتصفية. فأمحى اسم الأسرة من صفحات التاريخ، ودليل الهاتف.

صوت القارىء: إذن استحدث فصلاً، تصور فيه الختيار وهو يقرأ على الصغيرة درساً من التاريخ. مثلاً قتل جماعة معادية للحسين ثم الحسن والتنكيل بعائلة علي، ولتصور الصغيرة وهي تنتحب بشدة وقد تأثرت بهذا الدرس. ورأت في مصير أبناء علي - رضي الله عنه - مصيرها.. بذلك، تكون قد أوحيت إلينا بما تريد، دون أن تعرضها للقتل.

صوت المؤلف: سأفكر في الأمر.

صوت القارىء: أنا لا أفهم أحمد تماماً؟

صوت المؤلف: ولا أنا. حتى نفسه لا يفهم. لماذا دافع عن نفسه في اللحظة الأخيرة.. وشهر مسدسه. هل كان يرغب رغبة خفية خجولة في الحياة؟

صوت القارىء: إننا لا نعرف ماضي سلافة أو سيلفيا في هذه الرواية! أي أحداث أو دروب أفضت بها إلى احتراف العمل في الملاهي والحانات.

صوت المؤلف: لكم أن تملأوا الفراغات.

صوت قارىء: أنا أتخيلها صبية من الجزائر.. شاركت في الثورة. قبض عليها الفرنسيون، وعذبوها تعذيباً وحشياً، ففقدت حاسة السمع. بعد الاستقلال صُدمت بالواقع. وجدت أنها قد فجعت بأحلامها. أحست بالاغتراب. لجأت إلى فرنسا.. واحترفت العمل في الملاهي.

صوت قارىء آخر: لا. . لا. . أنا أرى أن «الختيار» هنا يرمز إلى «أحمد بن بللا». . وبالتالي لا يمكن أن تكون سلافة جزائرية. لأنني لم أشعر أن سلافة تنتمي إلى بلد «أحمد». . أي الجزائر. أنا أرى أن نحول سلافة إلى رمز لا لحم ولا دم له. وجودها يخدم فكرة العجز عن التواصل بين الناس. إفلاس اللغة.

صوت قارىء ثالث: لا. . لا. . لا. . سلافة فتاة فلسطينية، من حيفا. قتلت أمها في دير ياسين. وقتل أبوها في «القسطل». وضاعت في الهجرة. تبناها أحد العاملين في السفارة الفرنسية في الأردن، ثم رحل بها إلى باريس حيث نشأت. بعد ذلك. . بعد ذلك. . مات الديبلوماسي الفرنسي وسلافة في ريعان الصبا. فاضطرت إلى العمل في الملاهي والحانات - مع أنني أتحفظ على عمل فتاة عربية في مثل هذه الأماكن - حاصله. . والعرب، مثل أحمد ويوسف يستأجرون سمعها، ليدلوا لها باعترافات تؤرقهم. إعترافات تتحرق شوقاً للانتقال من الصدور المحتقنة وكهوفها السرية، إلى أذن آخر، دون فضائح. وهكذا ينشر الزبائن العرب غسيلهم المتسخ أمام سلافة. لكن سلافة تتكلف السمع والإصغاء، وهي عاجزة عنه. لماذا؟ لأنها ضحية. تصوروا أن يدلي كاتم الصوت باعترافاته لضحية. هل هي رمز استحالة التواصل بين كاتم الصوت والآخرين. أم استحالة منحه فرصة للندم؟ أم استحالة التراجع؟ ثم لماذا ينظر كاتم الصوت إليها على أنها آلة تسجيل؟ وكيف لا يكتشف أنها معطبة لا تسجل؟ ثم. . ثم لماذا. . أقصد. . ألا يعرف أنه هو الآخر مجرد آلة. . آلة كاتمة للأصوات؟

ولا بد لي من أن أضيف هنا ملاحظة: كنت أتمنى لو صور لنا الكاتب الانطباع الذي تركه يوسف في بال «سلافة». فقد كانت تسمع جزءاً يسيراً غير مترابط مما يقول. ما أطرف أن نعرف أي انطباع أو صورة إرتسمت في ذهن «سلافة» عن يوسف. لكن الكاتب فوت علينا هذه الفرصة. فلنفكر إذن معاً. . ونحاول أن. . .

صوت قارىء رابع يقاطعه: لا بد من وجود ضحية، كي يوجد كاتم الصوت. بكلمة أخرى، لا بد من وجود أصوات مرتفعة كي يجد كاتم الصوت لحياته معنى. أي. . لا بد أن ترتفع الأصوات كي لا يبقى كاتم الصوت عاطلاً عن العمل.

أصوات أخرى تحتج: فهمنا. فهمنا. اختصر.

صوت القارىء الرابع مستنكراً مغضباً: مش حاكي. بطلت أحكي ما دمتم تقاطعونني وتقمعونني.. وتكتمون صوتي.

الأصوات الأخرى باستياء: نحن نكتم صوتك؟
صوت القارىء الرابع: أنا لم أقاطعكم حين تكلمتم.. فلماذا تكتمون..

صوت قارىء خامس: وبالتالي فإن سؤالي للمؤلف لا يتعلق بهذه المسألة. وإنما يتعلق بمسألة...

صوت قارىء سادس يقاطع الخامس: بمسألة غموض انتماء مراد الصغير السياسي. نريد أن نعرف إلى أي فصيل ينتمي؟.. بالاسم. لماذا لا تحدد؟ لا بل نرغب في أن نعرف مرتبته التنظيمية. سواء أكان عضواً في ناد أو مؤسسة أو...

صوت القارىء السادس يقاطع الخامس: الصوت الخامس أراد أن يسأل ـ لكن خانه التعبير ـ: هل كان أحمد يحمل إلى جانب النقود في جيبه منشورات.. حين أرجعوه من المطار.

صوت خافت شبه مكتوم: لا.. ليس هذا ما قصدت.
صوت هامس آخر: لماذا كتمتم صوتي؟ لماذا قاطعتـ...
صوت قارىء سابع: منشورات؟ هل كان يحمل منشورات؟
صوت قارىء ثامن: أعتقد أنك تعني مناشير. لأن..
صوت قارىء تاسع: هذا خطير.. خطير للغاية. وماذا كان يحمل في جيوبه أيضاً؟ هل كان يحمل أشياء خطيرة أخرى. مثل شيكات مرتجعة؟ أقراص فاليوم؟ ثقب في جيب ما؟ أعتقد ذلك. أنا لم أمل لهذه الشخصية أبداً. لأنها شخصية غامضة. تصر أن تقف على قدميها.. ولكن.. التيار..

صوت قارىء عاشر: أنا أيضاً أحب الوضوح، وبهذه المناسبة أقترح أن لا يبكي الختيار، عند سماع نبأ مقتل أحمد، في الحمام. لأن الحمام ـ بلا مؤاخذة ـ قد يكون مزروعاً بأجهزة تصوير سرية. ونحن تعاطفنا مع الختيار، ولا نريد للملازم أن يشمت به. دعه يبكي في عتمة الليل. بعد أن ينام الكون، ويظل هو وحيداً مع الصمت والعزلة والأرق.

أما بالنسبة للملازم. فأنا عندي حل لمشكلته ـ أعني مشكلة علاقته الطبيعية أو غير الطبيعية مع زوجته. أنا يا سيدي، أملك فندقاً هنا. وأنت تعرف أن الفنادق هنا

غير مزروعة بمثل هذه الأجهزة. إمنحه، إدن، إجازة، وليأت إلى هذا البلد مع زوجته. وهكذا نضرب عصفورين بحجر واحد:

أنا أتخلص من الكساد جزئياً، بتأجير غرفة فارغة، وهو يحل أزمته.

اتخذ المؤلف هيئة الجد والاستعداد والوقار ليناقش كل هذه المسائل. لكنه ـ في أعماقه الخفية ـ كان يكركر فرحاً (بخبث ومكر) لأنه وجد أخيراً عشرة قراء يقرأون روايته.

* * *

عمان ـ أيار ـ ١٩٨٦

ـــ

اعترافات كاتم صوت

الختيار ، الزوجة ، الصغيرة ، الملازم ، أحمد وكاتم الصوت يوسف ، ثم سلافة التي تؤجِّر سمعها فإذا بالمستأجرين يسخرون لها على غير علم حركات شفاههم ثم الجنرال وأجهزة التنصت ، وأخيراً ، الأقارب ، أقارب الزوجة .

هذه الشخصيات المحدودة في الرواية ، أنطقها الكاتب وحرَّكها ، أدخل بعضها السجن ووضع البعض في الإقامة الجبرية . طاف بشخصياته في غير قطر عربي ، وسلَّط الضوء على أكثر من قضية ومرحلة .

أنطق مؤنس الرزاز بعض شخصياته بدون صوت ، وأسمع تفكير البعض دون أن يُخرج التفكير إلى حيِّز الترجمة ، كتم الأسرار رغم أن أصداء الإعتراف جلجلت ؛ خلق من اليأس تفاؤلاً وتحدياً ؛ فالختيار !! يكتب ويُحبِّر وعندما ينهي الكتابة تصادر الكلمات . . . لكن الرسالة تصل إلى أصحابها . . . من قلب الإقامة الجبرية والوحدة القاتلة تنفلت الإرادة ويشع الأمل بالمستقبل لرؤية القرن الحادي والعشرين .

وبطريقته ، دخل الكاتب في نهاية الرواية بما يشبه الحوار مع القراء وكأنه أراد أن يجعلهم من شخصيات الرواية فوصل إلى مبتغاه واستراح بتواضع ، وختم الكلام : « لكنه في أعماقه الخفية ـ كان يكركر فرحاً (بخبث ومكر) لأنه وجد أخيراً عشرة قراء يقرأون روايته » .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
ARAB INSTITUTE FOR RESEARCH AND PUBLISHING
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ١١-٥٤٦٠ ، العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ١/٨٧٩٠٠ ، تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧
الغلاف : زهير أبو شايب ● لوحة الغلاف : رافع الناصري / العراق